أفكار

افتتاحيــــة

ثمانية وأربعون عاماً مِنْ عُمْرِ «أفكار»...

تُصادفُ هذا الشهر (حزيران 2014) الذكرى الثامنة والأربعون لولادة مجلَّة «أفكار»؛ حيث أنَّ العدد الأوَّل منها صدر في حزيران 1966. ويلفتُ النظر، هنا، أنَّ إصدار هذه المطبوعة الثقافيَّة العريقة قد سبق قيام وزارة الثقافة في البلاد، وسبق إنشاء التلفزيون الأردنيّ، وسبق صدور الصحف الأردنيَّة اليوميَّة الموجودة حاليّاً جميعها. وبالتالي، فهي ربّما تكون أقدم مطبوعة في بلادنا ما زالت تواصل الصدور. وأرجو أنْ يصحِّحني أيّ قارئ مُطّلع إذا كانت لديه معلومة تخالف ذلك.

وخلال هذه السنوات الطويلة، التي مضت منذ صدور العدد الأوَّل مِنْ «أفكار»، تعاقَبَ على رئاسة تحريرها عددٌ مِنْ أبرز المثقَّفين الأردنيين، منهم –على سبيل المثال لا الحصر– الشاعر والإعلاميّ الراحل عبد الرحيم عمر، الذي كان له دورٌ أساسيٌّ في إطلاقها وإعطائها اسمها، كما أنَّه كان أوَّل رئيس تحريرٍ لها؛ لكنَّ مدّة رئاسته لم تطُل كثيراً، مع الأسف؛ حيث صدر أوَّل عددين من المجلَّة باسمه، أمَّا العدد الثالث، «فصدرَ أشبه ما يكون باليتيم، إذ خلا مِنْ اسم رئيس التحرير»؛ كما أشار المؤرِّخ والكاتب الأردنيّ الراحل سليمان الموسى في كلمته التي ألقاها في الحفل الذي أقامته وزارة الثقافة في الذكرى السنويَّة الأربعين لصدور «أفكار». وقد نُشرَتْ تلك الكلمة بعنوان «كلمة الأستاذ سليمان الموسى نيابة عن رؤساء التحرير السابقين» في عدد «أفكار» 213 – تمّوز 2006، المخصَّص للاحتفال بذكرى تأسيسها الأربعين. ويضيف سليمان الموسى قائلاً: «في ليلةٍ ضاع نور القمر فيها، تمَّ التحفّظ على عبد الرحيم بتهمة الانتماء إلى حزبٍ كان محظوراً في تلك الأيَّام».

ومِنْ ضمن الكتّاب والمثقَّفين البارزين الذين تعاقبوا على رئاسة تحرير «أفكار»، بعد ذلك: سليمان الموسى، ومحمود سيف الدين الإيرانيّ، وبدر عبد الحقّ، وفايز محمود، ومؤنس الرزّاز الذي استقرَّتْ المجلَّة في عهده، ورسختْ هويَّتها الثقافيَّة الوطنيَّة التقدّميَّة. وهو الوحيد الذي استمرَّ في رئاسة تحريرها حوالي عشر سنوات متواصلات.

كما شارك في عضويَّة هيئات تحرير «أفكار» عددٌ آخر أكبر من المثقَّفين والكتّاب الأردنيين، واستطاعتْ، منذ بدايات صدورها، أنْ تلفت أنظار المثقَّفين والكتّاب العرب في مختلف أماكن تواجدهم، وجذبتهم لنشر إبداعاتهم ودراساتهم

ومختلف أصناف كتاباتهم فيها. ويلقي الأديب الأردنيّ محمود عيسى موسى الضوء على هذا الجانب، في مقال له في «أفكار» (العدد 213 تمّوز 2006، الذي سبقت الإشارة إليه)، بعنوان «أربعون عاماً على التأسيس والمسيرة»، فيقول: «إنّ المتتبّع لأعداد المجلَّة الـ«212» منذ 1966 وحتَّى 2006 يمكن له أنْ يدرك حجم المشاركة الواسعة من الكتّاب والأدباء العرب في شتَّى مجالات الأدب والفنّ، على سبيل المثال لا الحصر، صلاح عبد الصبور، أدونيس، فدوى طوقان، يوسف العاني، شاكر النابلسيّ، جان ألكسان، وليد مدفعيّ، محمَّد علي شمس الدين، د. حسام الخطيب، ماجد السامرائيّ، ياسين رفاعيّة، اسكندر لوقا، د. عصمت السعيد، حارث طه الراويّ، عادل أبو شنب، رشدي العامل، يوسف اليوسف، سمر روحي الفيصل، يوسف القعيد، عدنان بن ذريل وغيرهم، كما يدرك حجم المشاركة غير المحدودة من الأجيال المتتابعة للكتّاب والأدباء والمثقَّفين الأردنيين بلا استثناء».

وفي هذا السياق نفسه، فقد تفاجأ كاتب هذه السطور، عند تسلّمه رئاسة تحرير «أفكار»، بأنَّ ما يرسله لها، شهريّاً، الكتّاب الأردنيون والعرب، من الموادّ المراد نشرها، يفوق بكثير قدرتها على استيعابه.

وبهذا المعنى فإنَّ «أفكار» هي أحد أبرز المنابر الثقافيَّة العربيَّة، وتُعتَبَر جسراً للتواصل بين منتجي الثقافة والفكر في الوطن العربيّ؛ وبين هؤلاء وبين المثقَّفين الأردنيين؛ وبين المثقَّفين الأردنيين والعرب وبين قُرّائهم. وربَّما كان هذا هو مكمن النظرة البعيدة التي دفعتْ إلى إصدار هذه المجلَّة الثقافيَّة قبل قيام وزارة الثقافة وقبل التلفزيون وقبل الصحف اليوميَّة الموجودة حاليّاً؛ فهي بين هذه كلّها ما زالت هي الأكثر اتّصالاً (وتواصلاً) مع الثقافة العربيَّة ومنتجيها.

ويؤمل أنْ تظلّ تلك النظرة البعيدة التي كانت وراء إصدار «أفكار» هي السائدة دائماً في الموقف الرسميّ منها (ومن الثقافة والمثقَّفين عموماً)؛ خصوصاً الآن، حيث تنتشر الأفكار الظلاميَّة التكفيريَّة وينمو الإرهاب الوحشيّ الأعمى في أحضانها. الأمر الذي لا يمكن مواجهته إلا بالثقافة.. وتحديداً الثقافة التنويريَّة المنفتحة والمتحضّرة.

الثقافة ليست مشروعاً اقتصاديّاً؛ وبالتالي فإنَّه ليس من الجائز قياس جدواها بمقياس الربح والخسارة التجاريّ. الثقافة استثمار عميق وبعيد المدى في الإنسان مِنْ أجل مستقبله ومستقبل بلده؛ وذلك بتحصين وعيه وتطويره، وإكسابه المزيد من القيم السامية، وتحفيز ملكاته الإبداعيَّة، وتنمية شعوره بالمسؤوليَّة، وتعزيز نزعاته الإنسانيَّة الراقية. لذلك، تهتمّ الدول المتقدّمة، جميعها وعلى اختلاف توجّهاتها، بتعزيز البعد الثقافيّ فيها، مهما كانت التكاليف الماليَّة المترتّبة على ذلك باهظة.

ومع الأسف، فإنَّه ليس كلّ الحكومات والمسؤولين يقيسون أهميَّة الثقافة والمثقَّفين بالمقاييس الإنسانيَّة الحضاريَّة الرفيعة وبعيدة النظر. وهنا، أتذكَّر كيف أنَّه في إحدى سنوات القرن الواحد والعشرين المنصرمة قامت إحدى الحكومات بإلغاء وزارة الثقافة، فهبّ المثقَّفون الأردنيون، وفي طليعتهم رابطة الكتّاب الأردنيين، للإعراب عن رفضهم لهذا القرار غير الصائب، ولم يتوقَّفوا عن الاحتجاج عليه إلا عندما أُعيدت الوزارة إلى الوجود. وبعد ذلك بسنوات، قرَّرتْ حكومة أخرى إلغاء مهرجان جرش، وقد ووجه ذلك القرار أيضاً بحملة واسعة ومتواصلة، قادتها رابطة الكتّاب الأردنيين

ونقابة الفنّانين الأردنيين ورابطة التشكيليين الأردنيين، كما أنّه قوبل أيضاً باستغراب واستهجان كبيرين من المثقّفين العرب، إلى أنْ تمّ التراجع عنه وإعادة إحياء المهرجان مِنْ جديد. ومصدر ارتكاب مثل هذين القرارين (وأشباههما) من القرارات الخاطئة هو محاكمة دور الثقافة والمثقّفين بمعيار الربح والخسارة الاقتصاديّ البحت.

ونعود إلى مجلّة «أفكار»، فرغم نجاحها المشهود والمتواصل، إلا أنّها في الكثير من الأحيان لم تكن تحظى بدعم المسؤولين الذين تعاقبوا على وزارة الثقافة (أو على «دائرة الثقافة والفنون»، قبل قيام الوزارة). ويقدّم الأديب عزمي خميس، الذي عمل طويلاً في «أفكار» وخبر تقلّبات ظروفها وأحوالها (ومعاناتها)، صورةً مكثّفةً لهذه المعاناة، في مقال له بعنوان «مجلّة «أفكار».. ذكريات وتأمّلات»، نشره في الذكرى الأربعين أيضاً لصدور المجلّة في عدد «أفكار» نفسه الذي سبقت الإشارة إليه، فيقول: «لذلك كان أوّل ما يبدأون به (يقصد مسؤولي الوزارة) هو إعادة هيكلة المجلّة وتغيير العاملين بها سواء أكانوا مِنْ خارج الوزارة أم مِنْ داخلها، بادئين من الصفر، دون أنْ يراكموا أيَّة خبرات ودون أنْ يعترفوا بإنجازات السابقين عليهم ولو كانت ضئيلة، ودون أنْ يقيّموا بشكلٍ موضوعيّ أداء الموظّفين، ودون أنْ يكون لهم أيَّة معرفة بطبيعة العمل في المجلّات، بل إنّ بعضهم ربّما لم يشاهد مجلّةً مِنْ مجلّات الوزارة قبل أنْ تطأها قدماه. ومع ذلك كان أحدهم يقرّر أنْ تكون المجلّة شهريَّة، وآخر أنْ تكون كلّ شهرين، وثالث أنْ تكون فصليَّة، وربَّما تساءل آخر عن جدوى المجلّة أصلاً، فيما يقترح غيره أنْ تكون بحجمٍ مختلف عن حجمها الذي درجتْ عليه...».

على أيَّة حال، تواصل «أفكار» احتفاءها بالنتاج الثقافيّ الأردنيّ وبمنتجي الثقافة والفكر الأردنيين؛ حيث تمّ تخصيص ملفّ هذا العدد لقامة فكريَّة وثقافيَّة وتربويَّة سامقة، هو المؤرّخ الأردنيّ الراحل «الشيخ المعلّم» عبد الكريم غرايبة. يتميَّز مؤرّخنا الكبير الراحل ليس فقط بإحاطته الواسعة والمدهشة بأحداث التاريخ؛ بل، أيضاً، بنظرته المختلفة لهذه الأحداث، وإضاءته للزوايا المعتمة فيها، ونبشه للجوانب المطموسة منها. وهو يرفض أنْ تُختَزَل عمليَّة التأريخ –كما جرت العادة لدى الكثير من المؤرّخين– بسرد وقائع الحروب وسِيَر مشعليها من الحكّام المستبدّين. وبرأيه، فإنّ معظم تلك الحروب لا مبرّر له أصلاً سوى رغبة الحكّام الجدد في تسجيل مآثر حربيَّة في صفحات تاريخهم الخاصّ لا تقل عن مآثر أسلافهم في هذا المجال.. مهما كانت تكاليف تلك الصفحات المدفوعة مِنْ أرواح البشر وظروف حياتهم. لذلك، كان «الشيخ المعلّم» يزدري مثل تلك «الإنجازات»، المزعومة غالباً، ويكشف الجوانب السلبيَّة الكثيرة التي صاحبتها وتمّ طمسها تحت ركام الدعاية الرسميَّة الفارغة. وبدلاً مِنْ ذلك، كان يهتمّ، بظروف حياة الناس الحقيقيَّة الصعبة، ويبيّن أسباب صعوباتها.. سواء أكانت تتمثّل في الحروب أم في الكوارث الطبيعيَّة أم في استبداد الحكّام وجورهم.

وبإمكانكم الاطّلاع على المزيد مِنْ جوانب صورة «الشيخ المعلّم» الإنسان، وصورته كمعلّم للأجيال، وصورة إنجازه العلميّ القيّم، مِنْ خلال الشهادات والدراسات التي قدّمها عددٌ من الكتّاب والباحثين الأردنيين عنه، في ملفّ هذا العدد المخصّص له.

وفي الختام، نتمنّى لـ«أفكار» أنْ يمتدَّ عمرها إلى أمدٍ طويل، وأنْ يتواصل إنجازها ويتّسع ويتطوّر دائماً.

سعود قبيلات

رئيس التحرير

جماليــات قبــة الصخــرة

الدكتور المهندس بديع العابد

مهـداة إلى روح الفقيـد
الدكتـور عبـد الكريـم غرايبـة

مقدمة

ترتكز مطالبات الكيان الصهيوني اليهودي على الاعتراف بالحضور اليهودي العمراني والمعماري على حساب الحضور الإسلامي أو إلى جانبه. وهذه المطالبات تشكل العامل الرئيس في عملية تهويد المدينة، وتستهدف المسجد الأقصى (الحرم القدسي)، وبصورة خاصة قبة الصخرة، المكوّن الرئيس للهوية المعمارية العربية الإسلامية للمدينة. وخطة الكيان الصهيوني قائمة على المطالبة بمشاركة الحضور الإسلامي بالموقع أو في جواره، لمزاحمته ولإضعاف شخصيته البصرية، تمهيداً للانقضاض عليه، وهدمه، والانفراد به، لإقامة هيكلهم المزعوم مكانه.

الأهداف والمنهجية

يهدف هذا البحث إلى التعريف بالهوية المعمارية العربية الإسلامية لمدينة القدس، المتمثلة (بالحرم القدسي) المسجد الأقصى، وتحديداً بقبة الصخرة، لكونها العنصر الأقوى حضوراً في النسيج المعماري لمدينة القدس، لما تتمتع به من خصائص ومزايا جمالية.

ولتحقيق ذلك سأعرض لعمارة المسجد الأقصى وأبين مدى حضوره في النسيج المعماري، وبصفة خاصة طغيان الشخصية البصرية لقبة الصخرة، بخصائصها ومزاياها الجمالية، على المشهد المعماري للمدينة، التي يشكل حضورها: ثقلاً نفسياً، وحاجزاً عاطفياً، وعائقاً مادياً معمارياً، ومانعاً دينياً، لتهويد المدينة.

المسجد الأقصى (الحرم القدسي)

يقع المسجد الأقصى في المنطقة الجنوبية الشرقية للمركز التقليدي لمدينة القدس كما في الصورة (رقم-1)، ومساحته 143 دونماً من مساحة المركز التقليدي البالغة 1000 دونم، وهنا يتوجب التنويه أن المسجد الأقصى(1) يطلق على كامل المساحة البالغة 14.3% من مساحة المركز التقليدي، ويشمل جميع المباني المقامة على هذه المساحة بما فيها قبة الصخرة. لكن الناس تواضعت على أن تسمي هذه المساحة بالحرم، وأن تسمي المسجد (القبلي) الكائن جنوب هذه المساحة بالمسجد الأقصى. ولما كان الأصل في الأسماء المواضعة، أي اتفاق الناس، فسأشير من الآن إلى ما تواضع عليه الناس،

كاتب أردني، مهندس معماري

أي سأسمي بناء المسجد الكائن جنوب المساحة (القبلي) «الأقصى» وكامل المساحة «الحرم القدسي». وهو في الإسلام يمثل أولى القبلتين وثالث الحرمين الشريفين في مكة والمدينة، قدسيته مطلقة وحرمته مصانة، باركه الله سبحانه وتعالى وشرفه الرسول صلى الله عليه وسلم بالإسراء والمعراج.



الحرم القدسي-المسجد الأقصى - الصورة (رقم-1)

ويشكل الحرم القدسي فضاءً بصرياً واسعاً جداً، وبه مبنيان مركزيان هما: المسجد القبلي (الأقصى) (87هـ-705م) كما في الصورة (رقم-2)، وقبة الصخرة (66-72هـ/ 685-692م) كما في الصورة (رقم-3)، ومجموعة من المباني، أهمها مباني المدارس المقامة على ضلعيه الغربي والشمالي. وهذه المدارس شكلت في مجموعها حرماً جامعياً استقطب نخبة من العلماء، وخرّج نخباً منهم. كما يضمّ الحرم مجموعة من العناصر والمفردات المعمارية كقبة السلسلة وغيرها، ومنبر برهان الدين الرخامي، وسبيل قايتباي، وبعض الترب.

أما تحت الأرض فيشمل المصلى المرواني، كما في الصورة (رقم-4)، الكائن في الزاوية الجنوبية الشرقية للحرم، كما يشمل تسوية المسجد الأقصى والمداخل الثلاثة الكائنة في الواجهة الجنوبية التي تؤدي إلى ساحة الحرم وإلى المصلى المرواني.



المسجد القبلي (الأقصى) - الصورة (رقم-2)

والحرم برمزيته الدينية وفضائه البصري ومبنييه المركزيين، خاصة قبة الصخرة، يفرض حضوره على النسيج المعماري للمركز التقليدي (القدس داخل السور) ويشكل هويته المعمارية العربية الإسلامية. وهذا ما يثير حفيظة الكيان الصهيوني اليهودي ويعرقل تهويد المدينة. فمحاولاته التشكيكية التاريخية فشلت، ومخططاته الآنية مبنية على مزاعم ودعاوى لن يتمكن من فرضها في المستقبل المنظور، وسيكون مصيرها الفشل كسابقتها. وسأعرض فيما يلي لقبة الصخرة باعتبارها المبنى الأقدم زمناً، والأظهر حضوراً في عمارة الحرم القدسي الشريف، وسأركز على خصائصها الجمالية، ثم أبين محاولات الكيان الصهيوني اليهودي في زعزعة حضورها والتخلص منها بإزالتها وهدمها.



قبة الصخرة - الصوورة (رقم-3)



المصلى المرواني - الصورة (رقم-4)

قبة الصخرة

تتمتع قبة الصخرة بمزايا عديدة: دينية، ومكانية، وتاريخية، ومعمارية، وجمالية وتقانية؛ شكلت منها شخصية بصرية ذات حضور طاغ ومسيطر، يأخذ بالألباب، ويذهب بالعقول، ويهيج المشاعر، ويأسر النفوس، ويسكن في الوجدان، وتعشقه القلوب، خاصة للقادم من الشرق، وتحديداً عند منعطف الطريق القادم من قرية العيزرية والمطل على الحرم. حيث تبرز له، أي قبة الصخرة، فيتفاجأ بموضعتها الحضرية الرائعة، وشكلها الرشيق، ونسبها الجميلة المتناسقة، وألوانها الزاهية البراقة، التي تدهش الناظر، ويتراءى له وكأن مبنى القبة، يتحرر من حالته السكونية إلى حالة حركية تتجه نحو الناظر، فتسلبه وعيه للحظات يحتاجها العقل للإدراك، يتحرر بعدها الوعي، فتهيج النفوس فرحاً وسروراً، وتلتذُّ القلوب عشقاً وطرباً بما ترى. هذه الحالة تنفرد بها قبة الصخرة، وربما لا يضاهيها أي مبنى آخر في العالم. ويلمسها ويعيشها كل من رآها قادماً من الشرق، عند المنعطف المشار إليه سابقاً. أكدها القاضي مجير الدين العليمي (860-928هـ/1455-1521م) في كتابه(2) الأنس الجليل (900هـ-1494م)، فمنظرها من الشرق تجربة فريدة في الإدراك، تعجز الكلمات عن التعبير عنه، ويقصر الوصف عن تصويره. وأتساءل لماذا امتنع الشعراء عن تخليد هذا المشهد الرائع، والنادر، بل المتفرد الحدوث؟ هل يعود ذلك إلى قصورهم في الوصف والتعبير عنه؟ أم لعدم مرورهم بهذه التجربة النادرة؟ وآمل أن يكون هذا التساؤل دافعاً ومحفزاً لهم على تسجيله وتوثيقه، خاصة شعراء فلسطين.

أما من الجنوب، فالشخصية البصرية لقبة الصخرة ظاهرة الوضوح، مسيطرة وطاغية، وإن افتقرت إلى عنصر المفاجأة الذي يتمتع به الناظر من الشرق. وأما من الغرب والشمال فشخصيتها البصرية تظهر بكل قوتها وسيطرتها من داخل المركز التقليدي (المدينة داخل السور)، وليس من خارجه كما هي الحال من الشرق والجنوب. لأن المباني في شمال وغرب المدينة تحجبها جزئياً، فلا يتبينها القادمين من هذه الجهات بوضوح إلا بعد دخولهم المدينة. فحضور



المدينة المثالية في أوروبا ويظهر بها شكل قبة الصخرة المقلد في وضع مركزي لمعماري مجهول – القرن 15 م

الصورة (رقم-5)



المدينة المثالية في أوروبا ويظهر بها شكل قبة الصخرة المقلد - بيرو دالا فرانسسك -1470م

الصورة (رقم-6)

الشخصية البصرية لقبة الصخرة وسيطرتها على النسيج المعماري للمدينة، وطغيانها على مفرداته، يعود إلى جملة المزايا التي سأعرض لها فيما يلي من دراسة وتحليل.

إن أهم المزايا التي تتمتع بها الشخصية البصرية لقبة الصخرة هي موضعتها الحضرية. والمقصود بالموضعة الحضرية هو موقع قبة الصخرة داخل الحرم القدسي، ومن ثم داخل المركز التقليدي. ولقد بينت فيما سبق أن الحرم القدسي يحتل الجزء الجنوبي الشرقي من المركز التقليدي، وقبة الصخرة تتموضع تقريباً في منتصفه، وهي مقامة على دكة (مصطبة أو منصة)، مرتفعة عن سطح أرضية الحرم بحوالي 5 أمتار. ولقد لعبت الدكة دوراً رئيسياً في إظهار مبنى قبة الصخرة من داخل وخارج الحرم القدسي، فقوّت من مركزية مبنى القبة وسط الحرم وجعلتها قبلة الناظرين من جميع الاتجاهات، فألغت جميع عوائق التواصل البصري بين مبنى القبة والناظرين من داخل الحرم، وعززت إظهارها وحضورها من خارجه، خاصة من الشرق والجنوب.

فالموضعة الحضرية إذن إبداع معماري بامتياز، ومعالجة معمارية غير مسبوقة، قلدتها(3) المدن الإيطالية والأوروبية في القرون (10-16) الميلادية، أو ما يعرف في الحضارة الغربية «بالقرون الوسطى وعصر النهضة». وأكثر من ذلك فإن الموضعة الحضرية لقبة الصخرة أصبحت أنموذجاً(4) للمدينة المثالية في أوروبا في القرن الخامس عشر، كما في الصورتين (رقم:5-6).

كما عزز الموضعة الحضرية للقبة الحلول المعمارية التي ابتدعها القائمون على ممارستها، فجعلوا الوصول إليها من خلال أدراج، فقوّوا بذلك شخصيتها البصرية كما في الصورة (رقم-7). وواصل القائمون على عمارتها وصيانتها (منذ القرن العاشر وحتى بداية القرن الرابع عشر) تعزيز موضعتها الحضرية، وتقوية شخصيتها البصرية، بإضافة



البواكي المحيطة بدكة قبة الصخرة

الصورة (رقم-7)

القناطر (الموازين) التي تعلو الأدراج الثمانية المحيطة بالدكة من جهاتها الأربع، التي بدورها عملت على تحديد مسار البصر ومجال الرؤيا، وجعل مبنى قبة الصخرة قبلة للناظرين ومحجاً للمشاهدين. فكانت هذه القناطر حلولاً مبتكرة وعناصر جديدة في تشكيل وتكوين الشخصية البصرية لمبنى القبة وتعزيز حضورها. ويقتضي التنويه هنا بأن هذا الحل المبتكر، أي استعمال القناطر، قد تأثرت به العمارة المغولية بالهند فاستعملت في معظم مداخل المباني الرئيسية خاصة في ضريح تاج محل صورة (رقم-8). واللافت للنظر أن العمارة المغولية قلدت(5) قبة الصخرة في مباني الأضرحة، كما في الصورة (رقم-9). وهذا بدوره يؤكد حضور عمارة قبة الصخرة في العالم الإسلامي أيضاً.



مدخل تاج محل المقنطر حيث تعمل القناطر على توجيه البصر باتجاه المبنى - الهند

وهو اقتباس مطور عن قناطر قبة الصخرة

الصورة (رقم-8)

ومن الحلول المعمارية التي ساعدت في تعزيز الشخصية البصرية لقبة الصخرة، الشكل المثمَّن، الذي من مزاياه عدم وضوح نهايتيه بشكل قاطع كما في المربع والمستطيل، فالناظر يتلمس حضوره كيفما اتجه البصر، فيتوالى حضوره مع حركة الناظر إليه، فتبقى الشخصية البصرية (الشكل) لمبنى قبة الصخرة ماثلة للناظرين إليها دون انقطاع حتى الولوج إليها،



ضريح سكندر لودي – سلالة لودي-1518م -الهند
تقليد لقبة الصخرة - الصورة (رقم-9)

الأمر الذي يقوي حضورها ويميزها عن سائر مباني المدينة ويؤكد هويتها المعمارية العربية الإسلامية.

فاختيار الشكل المثمَّن عمل إبداعي بكل المعايير، وزاد في إبداعه انسلابه إلى أعلى بشكل مخروطي ليشكل فوق مساحة الصخرة دائرة تعلوها رقبة القبة، ثم القبة التي تتسامى إلى أعلى فتضيق رويداً رويداً وبالتدريج، حتى تنهي تحيزها بالفضاء بشكل مدبب، يعلوه الهلال رمز الإسلام والمسلمين. فتكتمل بذلك شخصيتها البصرية المدروسة هندسياً بدقة متناهية، سواء على مستوى التدرج الشكلي لعناصر المبنى أو على مستوى النسب المتناسقة طولاً وعرضاً وارتفاعاً، التي عبّرت، أي المعالجة الهندسية، عن معالجات معمارية بحس فني راقٍ وجمالي عالٍ، أسفرت بدورها عن إنتاج عمل معماري (مبني) إبداعي ومتميز في غاية الروعة والجمال.

وتواصلت المعالجات المعمارية في أعمال التكسيات الخارجية لتزيد من روعة وجمال المبنى، فلجأ المعمار إلى توظيف التكسيات الخارجية بصرياً باستعمال التفاصيل المعمارية والزخارف والألوان. فاستعمل الرخام المائل إلى البياض في أسفل المبنى، وعمد إلى استعمال الزخارف الهندسية كبيرة الحجم بالرخام البني والأسود عليها لتسهيل عملية إدراكها، وتسريع عملية الانتقال منها إلى الأجزاء العليا



زخارف قبة الصخرة - الصورة (رقم-10)

من المبنى التي كساها بالبلاط القيشاني بزخارفه الهندسية المتنوعة، صغيرة الحجم ودقيقة التفاصيل ومتعددة الألوان، وإن غلب عليها اللون الأزرق، كما في الصورة (رقم-10).

وهدف المعمار من هذا التنوع في المواد، والتباين في الزخارف والألوان، إلى تعزيز المنظومة الجمالية للمبنى، التي توّجها باللون الذهبي البرّاق للقبة نفسها من ناحية، وإلى تسريع عملية الإدراك الجمعي للمبنى لتتساوق مع التدرج الشكلي، والنسب المتناسقة للمبنى، التي أشرت إليها سابقاً. فتتم عملية الإدراك الجمعي لمبنى القبة بشكل موحَّد وسريع، ودون فوارق ذهنية تعمل على تجزئة الإدراك بالانتقال من عنصر إلى عنصر آخر. فمن خصائص اللون الأبيض إظهار الجسم بما هو عليه، أي بحالته الحقيقية، فثبّت به المعمار الشكل المثمَّن على مستوى الأرض، وعمد إلى توظيف اللون الأزرق في أعلى الشكل المثمَّن ليتكامل مع الفضاء البصري للمبنى، ثم نوّع الألوان في قطع الزجاج المعشّق بجص الشمسيات (الشبابيك) الموزعة بانتظام على رقبة القبة، ليسهل بذلك عملية الانتقال من الشكل المثمَّن إلى النصف كروي (القبة)، التي أنهى بها منظومة المواد والألوان بالذهب اللامع والبراق.

فأكد بذلك شخصيتها البصرية، وعزز تحيزها بالفضاء، لتصبح العنصر المعماري الأظهر حضوراً، والأوضح بصرياً، والأقوى تعبيراً، في النسيج المعماري للمدينة، التي حسمت الهوية المعمارية للمدينة لصالح العمارة العربية الإسلامية.

عرضتُ فيما سبق للمزايا: الدينية، والمكانية، والمعمارية، والجمالية، والتقانية الهندسية؛ وأضيف إليها هنا أن لقبة الصخرة سقف مزدوج وبينهما فراغ وهو ثاني سقف مزدوج في الإسلام، أما الأول فكان للكعبة المشرفة. والسقف الخارجي هو سقف إنشائي، أما الداخلي فيعرف في عصرنا الحاضر بالسقف «العيرة» ويستعمل لتزيين سطح المبنى الداخلي، ولهذا السبب استعمل السقف الداخلي في الكعبة وقبة الصخرة المشرفتين.

أما الفراغ الداخلي فاستغل حالياً في أعمال تمديدات الكهرباء والميكانيك ومقاومة الحريق، وقد تمّ استغلاله في قبة الصخرة لهذه الغاية، في أعمال الترميم الأخيرة، فساعد هذا الفراغ في إخفاء تمديدات التقانات المستجدة لحماية مبنى قبة الصخرة.

أما مزاياها التاريخية، فيكفي أن أنوه هنا بأن قبة الصخرة هي أقدم بناء معماري بقي على حالته الأصلية في الإسلام. فالشكل المعماري بقي كما هو ولكن اختلفت أعمال التكسية ومواد البناء، أما عناصر المبنى فلم يطرأ عليها أي تغيير أو زيادة أو نقصان. وحتى أجلي أي تناقض قد يتبادر إلى الذهن بأن الكعبة المشرفة هي أقدم من قبة الصخرة فهذا صحيح، إلا أن الكعبة المشرفة بنيت قبل الإسلام أما قبة الصخرة فبنيت في الإسلام. وأما المسجد النبوي والحرم المكي فلم تكتمل شخصيتها البصرية إلا بعد بناء قبة الصخرة، المكتملة الشخصية البصرية، بفترة زمنية طويلة وتحديداً في عهد الخليفة العباسي المهدي، ناهيك عن أنها أولى القبلتين والجزء الأقدم من ثالث الحرمين الشريفين.

خاتمة

بيّنت فيما سبق الحضور العمراني والمعماري الإسلامي ممثلاً بالحرم القدسي ومبنييه الرئيسيين المسجد الأقصى وقبة الصخرة، وركزت على المنظومة الجمالية لقبة الصخرة، وتحيزها في الفراغ بشخصيتها البصرية الطاغية، وسيطرتها على جميع مفردات النسيج المعماري للمركز التقليدي الذي يمثل ثقلاً نفسياً وعبئاً عاطفياً على الكيان الصهيوني اليهودي الذي يرى فيها عائقاً مادياً معمارياً ودينياً أمام خططه في تهويد المدينة التي بدأها بالمزاعم والدعاوى وعززها بمطالبات المشاركة تمهيداً لنواياه المستقبلية بهدمها وإزالتها.

المراجع

1- انظر: مجير الدين العليمي، (900هـ - 1494م)، الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل، جزءان، مكتبة المحتسب، عمان- الأردن، 1973، ج2/ ص: 11، 24.

2- انظر: مجير الدين العليمي، الأنس الجليل، مرجع سابق، ج2/ ص: 56.

3- انظر: بديع العابد،) 2004) التخطيط العمراني لمدينة القدس وأثر قبة الصخرة على النسيج المعماري للمدن الإيطالية، المجلة الأردنية للعلوم التطبيقية، العلوم الطبيعية، مج6/ العدد 1، ص ص: 21 – 34.

4- المرجع السابق.

5- See: Grover Satish (1981), The Architecture of Islamic Indi (170 – 727 A.D.), P.: 143 – 141



المسـرح والتــاريـخ

د.يحيى البشتاوي

شكّل استلهام التاريخ وتوظيفه في المسرح مصدراً هاماً من بين المصادر التراثية، وقد عبّر بحكم ماهيته وموضوعاته ومناهجه عن معطيات واقعية، حيث وثّق للمسار البشري ضمن تحولاته المرحلية المتعددة محاولاً من خلال ذلك البلوغ إلى أكبر قدر من الموضوعية، ونظراً لما يتمتع به من إمكانات فقد أمكن تشغيله من خلال النص المسرحي بمستويات متعددة، فأصبح النص بذلك وثيقة تكشف عن بعض تفاصيل الصورة المتكاملة لفترة زمنية معينة.

ورغم ما يبدو ظاهرياً من اختلاف بين الأدب والتاريخ، نتيجة لاختلاف مجالي اشتغالهما، فإن هناك علاقة خفية تحيك وشائج متشابكة فيما بينهما، حتى إنّ المتأمل لهذه العلاقة سيكتشف حالة من التكامل تربط بعضهما ببعض، فإذا كان التاريخ شاهداً على الحياة فإنّ المسرح شاهد آخر بمقدوره هضم التاريخ ومعطياته دون الخلط بين التاريخ والموروث، فالمسرح يستطيع التقاط تلك الفجوات التاريخية وملؤها بالحاضر، وهو يشكل لحظة راهنة تستقطب الماضي والمستقبل، مما يعني أن المسرح هو زمن الحدث المسرحي وزمن الشخصية وزمن العرض مثلما هو زمن التلقي.

وذهب (ملتون ماركس) إلى أن المسرحية التي تتخذ من التاريخ مصدراً لها هي: (محاولة جدية لإعادة بناء حياة إحدى الشخصيات التاريخية، أو أحد العهود التاريخية، أو قسم منها، وإبرازها في شكل مسرحي، وكاتب التمثيليات التاريخية ينتقي كل شخصياته أو معظمها من بين صفحات التاريخ، ويضيف إليها أخرى من مخيلته ليحسن قصته أو يقوي أثرها)(1).

لكن (حمادة) وصف المسرحية التاريخية بأنها (القطعة الدرامية التي تتخذ مادتها من التاريخ). ويمكننا أن نقول: مأساة تاريخية أو ملهاة تاريخية -مثلاً- إذا كان الموضوع المعالج مستمداً من أحداث الماضي. أما عن مدى التزام الكاتب بالحقيقة التاريخية التي يعالجها، فقد مال بعض النقاد إلى القول بوجوب التزامه بالخطوط العامة الأساسية، دون التقيد بالتفاصيل الجزئية، بينما مال بعضهم الآخر إلى التصريح للكاتب بأن يعمل خياله في المادة التاريخية مثلما يعملها في وقائع الحياة)(2).

وفي حديثه عن علاقة المسرح بالتاريخ ذهب (جورج بوشنر) إلى أنّ المؤلف المسرحي هو أقرب إلى (أن يكون مؤرخاً، ولكنه يحتل مرتبة أعلى من هذا الأخير لأنه يخلق التاريخ مرة أخرى، ويغوص بنا في حياة أحد العصور بدلاً من أن يقدّم لنا سرداً جافاً عنه، ويرينا الطبائع بدلاً من الخواص، والوجود بدلاً من الوصف، (...)، وأسمى واجبات هذا الشاعر هو الاقتراب من التاريخ كلما كان فعلاً ما أمكنه ذلك)(3)، وبذلك فإن (بوشنر) قد رجّح أهمية الجوانب التاريخية في عمل المؤلف على الجوانب الإبداعية، متجاهلاً إلى حد ما أهمية تدخّل الإبداع الفني في المنتج من خلال الحذف والإضافة وإعادة التركيب، وذلك لخلق الصدق الفني في الكتابة التاريخية.

وإذا كان التاريخ من أهم المصادر التي اعتمد عليها المؤلف المسرحي، فذلك لأن التاريخ يتفق في طبيعته مع المسرح في كونهما يعنيان بالأحداث المصيرية لشعب من الشعوب أو فرد من الأفراد، ومهمة الكاتب المسرحي ليست

كاتب وأكاديمي أردني.

تسجيل الأحداث التاريخية، وإنما تقديم منتج إبداعي يتخذ من الماضي وسيلة لمعاينة الحاضر، مستعيناً بخبرته الإنسانية في استحضار جوهر التاريخ بما يتلاءم مع طبيعة المشكلات المعاصرة، إذ (إنّ علاقة كاتب ما بالتاريخ ليست شيئاً خاصاً ولا معزولاً، إنها عنصر مهم من العناصر التي تؤلف علاقته بكامل الواقع، ولا سيما المجتمع، وهذا لا يعني طبعاً أنّ علاقة الكاتب بالتاريخ يمكن أن تساوى ميكانيكياً بعلاقته بالمجتمع المعاصر، بل بالعكس، يوجد تفاعل معقد جداً بين علاقته بالحاضر، وعلاقته بالتاريخ، إلا أنّ فحصاً نظرياً وتاريخياً أدقّ لهذه العلاقة، تبين بأن علاقة الكاتب بمشاكل الحاضر الاجتماعية حاسمة)(4)، وهذا الموقف يستدعي من المؤلف المسرحي عدم العبث بحقائق التاريخ في سبيل خدمة غرضه الفني، لكنه ليس ملزماً بالتقيُّد بتلك الحقائق وعدم الخروج عليها لكونه لا يكتب بحثاً تاريخياً، وإنما عملاً إبداعياً يقدّم من خلاله فكرة جديدة خلاقة ترتبط بالواقع.

إنّ توظيف المبدع المسرحي لمعطيات التاريخ يعني توظيف معطياته بطريقة فنية هدفها خدمة الحاضر والمستقبل، فالعودة إلى التراث ينبغي أن تكون طريقاً لتنميته والامتداد به نحو المستقبل بقيم متطورة بعيدة عن السطحية والابتذال، (وكل ذلك سيتطلب من الكاتب المسرحي قبل أن يعمل في المادة التاريخية حذفاً أو إضافة أو تحويراً، الإلمام بتفاصيل الواقعة التاريخية وطبيعة عصرها ومعطياتها وعلاقتها وروحها، وإذا استطاع الكاتب المسرحي بعد كل ذلك أن يوازن بدقة بين حقائق الواقعة التاريخية وشخوصها، وبين تفسيراته وتأويلاته الفكرية والإنسانية والفنية «الدرامية»، فإنه سينجح عندئذ في تقديم الحقيقة الإنسانية والفنية إلى جانب الحقيقة التاريخية، وتبقى الحقيقة الفنية هي الهدف الأول والأهم في العمل الفني)(5).

ورغم الطابع التخييلي المهيمن على مجال اشتغال الأدب، فإنه كثيراً ما اعتمد على معطيات التاريخ لتوظيفها في نسج بعض النصوص الأدبية، ولم يكن الأدب المسرحي العربي بمعزل عن هذا التوجه الذي اتخذ طابعاً أكثر عمقاً، إذ لم يعد الأديب مكتفياً بالتوظيف الخارجي للمعطى التاريخي، حدثاً كان أو شخصية، بل عمد إلى جعله جزءاً من بنية النص، وذلك لتحقيق أهداف فنية ودلالية، هي بالتأكيد تضفي على الإبداع قيمة مضافة، ويمكن القول إنّ العلاقة بين المسرح والتاريخ ليست علاقة بسيطة، أو صيغة مسطّحة، إنما هي علاقة مركّبة متشابكة، كون المسرح يعتمد حساسية خاصة في التعبير عن الوضع التاريخي والحضاري ليعكس الكثير من مفردات الفعل، ويلتقي المسرح مع التاريخ في تعامله مع الزمن ومحاولة تغطية امتداداته الثلاثة، الماضي والحاضر والمستقبل، كل بأسلوبه الخاص.

إن المؤرخ يحكي ما حدث مجرداً من الخيال، وإن أظهر ما في التاريخ من أسس إنسانية، بينما الأديب يفسّر ويتخيل ويستنبط الحقائق الكلية التي تصدق على الواقع، وهو يقرأ حقائق التاريخ ويتخيلها، ثم يترك لوجيه الفني أن يلهمه صوراً لا تكذب على التاريخ برسومها وأعلامها، ولكنها ليست ترجمة تاريخية مبنية على وقائع، فلا يحاول إعادة تجسيم التاريخ، بل يحاول تجسيم العوامل التاريخية(6).

وإذا كان الأدب بأنواعه قد اعتمد الواقعة التاريخية ضمن مساحات واسعة من أنشطته الإبداعية، فإنه قد شكّل بذلك مورداً خصباً للتوثيق الذي يخدم الحقيقة التاريخية ويصونها من الضياع، وذلك بسبب قدرة الذاكرة البشرية على استيعاب النّص الإبداعي.

إنّ العلاقة بين التجربة الواقعية والتجربة التاريخية هي علاقة اتصال وانفصال، وهناك شكلان للمسرحية المرتبطة بالتاريخ، الأول: يتمثل في ارتباط الكاتب بالتاريخ؛ أي التجربة التاريخية زماناً ومكاناً، والثاني يمزج فيه الكاتب مزجاً واضحاً ومتعمداً بين التاريخ والواقع، فيتداخلان على نحو يصنع منهما بنية موحدة، فالوعي بالتراث لا تصبح له فعالية حقيقية إلا إذا ارتبط بوعي مماثل للواقع، لأنه في

هذه الحالة وحدها، يمكن أن ينشأ جدل عميق ومثمر(7). إلا أن معالجة الأديب المسرحي لموضوع تاريخي تقتضي منه أن يختار من الأحداث ما يلائم هدفه، ويترك ما لا يفيده من تلك الأحداث، فينبغي أن يكون توظيفه لهذه الأحداث التاريخية نابعاً من ضرورات فنية وليست من قبيل الترف العقلي.

ويظهر توظيف التاريخ في المسرح بوضوح من خلال مسرحيات وليم شكسبير (1564-1616م)، فهو يُعدّ أعظم كتاب المسرح في العصر الإليزابيثي حيث تفوّق من خلال تراجيدياته تفوقاً مذهلاً لاسيما التاريخية منها، وقد عاش في عصر مليء بالثورات وعدم الاستقرار السياسي والاجتماعي مما أثر على خياراته المسرحية، وكان (شكسبير) قد بدأ بكتابة المسرحيات حوالي عام 1590م مستنداً في كتابتها على الروايات والمسرحيات وكتب التاريخ والأساطير وغيرها من المصادر.

إنّ مسرحة الشخصيات والأحداث التاريخية عند شكسبير تشكّل ظاهرة فريدة في استلهام التاريخ من شتى المصادر وتوظيفه درامياً بشكل واع ومتقدم، فقد (اتخذ شكسبير من التاريخ حجة قوية عاشها الناس وعرفوها جميعاً، وعليه ارتكزت العبقرية الخلّاقة لتشرف على العالم ومشاكله، ولتوجه الناس نحو تأملات خصبة ذاتية وشاملة في معضلات البشر، وتأخذ بيد كل إنسان ليحيا بانسجام مع زمنه)(8)، فجاءت مآسيه غريبة بحكم طبيعة وجوهر الحدث، أما أبطالها فهم دائمو الحركة ولا يتصالحون مع مذهب الانفصال بين المصالح وبين وجود الإنسان نفسه مما يعكس شعبيتهم، أما الشخصية التاريخية عند شكسبير، فتظهر ضمن نوازعها المتعددة، وهي شخصية مفهومة من جانب الشعب الذي ارتبطت به بصورة عفوية لاسيما أنّ الخلفية الشعبية تنسجم مع طبيعة الأبطال المأساويين.

ومنذ منتصف القرن التاسع عشر الميلادي، تنبّه رواد المسرح العربي، من أمثال (مارون النقاش) و(أحمد أبو خليل القباني)، إلى غربة الشكل المسرحي الغربي في ظل المحاولات الجادة من قبل المستعمِر لفرض ثقافته وطمس كل ثقافة وطنية، فكان التاريخ مصدراً من مصادر الإلهام بالنسبة للفنان المسرحي كونه يحقق له القدرة على حماية مقوّمات الأمة وهويتها، ومن التجارب الإبداعية الأولى لتأصيل المسرح العربي تبرز مسرحية (أبو الحسن المغفل) التي كتبها (النقاش) عام 1850م بوصفها أول مسرحية عربية اتخذت شكلاً ومضموناً، إذ استمد المؤلف مادتها الأدبية من حكايات ألف ليلة وليلة. وقد (كان التجاء مارون النقاش إلى مصادر تراثية شعبية وتاريخية يمثل نوعاً من التحدي للمسرح الغربي بصيغته الأرسطية، لأن هذا النوع من المسرح ما هو إلا وجه من أوجه المستعمِر المختلفة، كما أن الالتجاء إلى التاريخ لاستيحاء بطولاته وأمجاده يعكس نوعاً من المواجهة الضمنية، ذلك أن المبدع المسرحي كان يلجأ إلى إحياء هذه الأمجاد والبطولات لاستنهاض الهمم وبثّ الحماسة، خصوصاً وأنّ المستعمِر كان يفرض رقابة مشددة على الفكر. لذلك كان اللجوء إلى التراث واجهة نضالية، خاصة إذا علمنا أنّ كثيراً من هؤلاء المبدعين قد لعبوا أدواراً أساسية -وطنية أو اجتماعية- مهمّة، كما هو الشأن بالنسبة لمصطفى كامل، صاحب مسرحية «فتح الأندلس» التي ألفها سنة 1893م. وقبله لعب أبو خليل القباني دوراً اجتماعياً سياسياً خطيراً في سوريا، حتى اكتسب مسرحه شعبية كبيرة اضطرت السلطة العثمانية إلى نفيه من دمشق مع فرقته) (9).

لقد جاء توظيف التاريخ في المسرح العربي لتحقيق الفهم الموضوعي للذاكرة التراثية، وتفسيرها ضمن سياقات متعدّدة يمكن من خلالها نقد الحاضر في ضوء معطيات الماضي، وإثراء أي عمل عربي ينشد التأصيل على صعيد الهوية القومية، فكانت محاولات توفيق الحكيم وعبد الرحمن الشرقاوي وسعد الله ونّوس وقاسم محمد وعز الدين المدني وعبد الكريم برشيد والطيب الصدّيقي وغيرهم، (عبارة عن دعوات إلى تأصيل المسرح العربي، أو تأسيسه من منطلقات مغايرة، أو إعادة تأسيسه ضمن هذه الثنائية الضدية الأنا/ الآخر، إلا أن المزالق التي وقعت فيها أغلب هذه الدعوات، هو اعتبارها التأثر بالثقافة والنتاج الغربي أمراً مطلقاً وليس نسبياً، لا يخضع

لأية مقاربة نقدية. كان من البديهي أن يسيطر التقليد على مستوى التعبير الأدبي وعلى مستوى تأثيث الفضاء المسرحي وعلى مستوى كتابة العرض، فذاع السهل وانتشر أفقياً، ولم يستطع هذا الانتشار الأفقي للعادي والسهل والمقبول التأثير في المتلقي العربي إلا بترويضه على التبعية والرضى بالسهل والعادي والمبتذل)(10).

وتُعدّ تجارب (توفيق الحكيم) في استلهام التاريخ من التجارب الثريّة في المسرح العربي، ورغم أنه قد تأثر بالمسرح الغربي إلا أنه قد أبدى اهتمامه بالتراث الثقافي الشرقي واتجه إلى محاولات التجريب على الشكل التراثي المصري والعربي. ففي عام 1933 أتمّ الحكيم كتابة مسرحيته (أهل الكهف) التي عبّرت عن البعث ومقاومة الفناء، وفي خريف عام 1959 كتب مسرحية (السلطان الحائر)، حيث كانت غايته منها هو تقديم فكرة عن طريق اللقاء والصراع بين ضدين، مستوحياً من عالم اليوم السؤال حول كيفية حلّ مشكلات العالم، وقد ارتكز عند كتابتها على واقعة تاريخية هي أقرب إلى طبيعة الأسطورة أو الحكاية الشعبية القديمة، وتتلخص في أنّ أحد عظماء سلاطين المماليك قد وجد نفسه في موقف حرج حينما علم أن الناس في المدينة يلغطون أنه لم يزل عبداً مملوكاً لم يعتقه سيده السلطان السابق كما تقتضي الشريعة، وحتى يتمكن من الاستمرار في حكمه يجب أن يصبح حراً لأن العبد لا يجوز له أن يحكم شعباً حراً.

لقد اختار الحكيم من بين أحداث التاريخ موقفاً يقوم على فكرة الرقّ والعبودية، حيث شرّعها لتكون محوراً للصراع الذي ينتهي بانتصار الحق والقانون، وهذا الموضوع رغم ظرافته إلا أنه يثير في نفس المتلقي مشاعر القلق إزاء هذا التسليم الشكلي بفكرة الرق، وحول ذلك الحوار الطويل الذي يقضي ببيع سلطان وقائد عظيم حمى أمته ووطنه من غارات المغول بالمزاد العلني، لتتحول فكرتا العبودية والحرية عند الحكيم، كالمعتاد في مسرحياته الذهنية، إلى معان مجردة لا شأن لها بواقع الحياة ولا صلة لها بشعور الناس(11).

وأخذ المسرح العربي السوري طابعاً ريادياً في توظيف التراث التاريخي في مسرحنا العربي المعاصر، وذلك من خلال ظهور تجارب الرائد أحمد أبو خليل القباني (1833-1903م) في دمشق، فهو يُعدّ حجر الأساس الأهم في تأسيس المسرح العربي عامة، والسوري خاصة، وكان قد قدّم أول نشاط مسرحي عربي في دمشق عام 1871م، وكان مقاربة لمسرحية (عايدة) وسواها من الموضوعات الميلودرامية، حيث أحرز شعبية أوسع من تلك التي أحرزها النقاش.

ونتيجة لنقمة الحاقدين، وسخط المتشددين دينياً، ومعارضته لذوي الجاه والسلطان، انتهت الأمور بالقباني إلى حرق مسرحه في ظروف غامضة، فهاجر إلى مصر، وفي مرحلة لاحقة من حياته قارب القباني بالتعاون مع اسكندر فرح بعض حكايات وشخصيات التاريخ العربي، كما اقتبس حبكات مسرحيات ميلودرامية أجنبية، فضلاً عن إبتداعه قصصاً وشخصيات من وحي خياله، حيث صهر كل ذلك في بوتقة موهبة واعية للذوق العام السائد في المجتمعات العربية، ومن أشهر أعماله: كليوبتره، والشيخ وضاح ومصباح وقوت الأرواح(12). وفي مرحلة لاحقة ظهرت تجارب أبو الوهاب أبو السعود (1897-1951م) فقدّم مسرحيات وطنية من خلال عودته إلى التاريخ مثل مسرحية (وامعتصماه) عام 1944م، كذلك ظهرت كتابات مراد السباعي، خليل مردم، وغيرهم، ثم توالت التجارب المسرحية في سوريا والتي ارتكزت على التاريخ في سبيل تأصيل المسرح العربي، وتُعدّ كتابات (سعد الله ونوس) المسرحية من أهم تلك التجارب، حيث كتب عدداً من المسرحيات ذات المرجعيات التاريخية، وقد اختار التصرف بالمادة التاريخية على المستوى الإبداعي حيث اتصفت تجربته بالعمق والأصالة، فهو (يستلهم التاريخ والتراث العربي الإسلامي لا من أجل سرد أحداث التاريخ ونقل أحداث التاريخ فحسب، وإنما الاستفادة منهما من حيث عمق المضمون ومنطقية ترابط الأحداث والشخصيات في سياقها التاريخي من حيث الشكل الذي يحظى عند ونوس باهتمام، كما يهتمّ بالتعرية السياسية أي التحليل العلمي الذي يتّسم بالتماسك الفني والبناء

العضوي)(13)، فاقترب كثيراً من الواقع السياسي وعبّر من خلال توظيفه للتاريخ عن موقفه من السلطة والممارسات القمعية التي تمارَس على الإنسان العربي.

وتُعدّ مسرحية (مغامرة رأس المملوك جابر) إحدى المسرحيات التي ارتكز فيها ونوس على التاريخ، وهي عمل تغريبي امتزجت فيه البنية التاريخية مع عناصر فولكلورية كثيرة في محاولة لتقديم عالم مسرحي عريض متشابك العلاقات شكّل المقهى الشعبي صورة مصغرة عنه، وفي مسرحية (الملك هو الملك) 1978م اختار ونوس حكاية تراثية من حكايات ألف ليلة وليلة اسمها (النائم واليقظان).

لكنّ ونّوس في مسرحية (الملك هو الملك) قد نزع عن الحكاية الشعبية روح الدعابة، وأجرى عليها بعض التغييرات التي انسحبت على الأحداث العامة، فقد أجرى تعديلات على زمان ومكان وشخصيات المسرحية، فأبدل شخصية (هارون الرشيد) بملك ما لمملكة ما مجهولة الزمان والمكان، وذلك حتى يمنح الملك الصفات التي تخدم هدفه الدرامي بعيداً عن التمثل الذهني لشخصية الرشيد في أذهان المتفرجين، كذلك استبدل شخصية السيّاف مسرور كمرافق للرشيد بشخصية الوزير (بربير) كمرافق للملك، مبقياً على وظيفة السيّاف لشخصية الجلاد، كذلك قام بتغيير اسم (أبي الحسن) إلى (أبي عزة) وخلق بيئة اجتماعية واقتصادية خاصة به ممثلة بزوجته وابنته وخادمه (عرقوب)، وتم استحداث شخصيات أخرى لاستكمال البيئة الخاصة بالملك ووزيره وللحديث بلسان المؤلف ورواية جانب من الأحداث(14).

لقد حقق (ونّوس) في هذه المسرحية نجاحاً كبيراً في توظيف أفكاره، المرتبطة بالحكاية الشعبية وروحها، توظيفاً جميلاً، وقدّم درساً سياسياً واضحاً يعبّر عن أن تغيير الأفراد لا يغيّر الأنظمة، وإنما يجب تغيير الأنظمة من جذورها، ولم يغفل دور الشعب في صنع التغيير مؤمناً بقدرته على ألا يكون قابلاً للتشكيل حسب رغبة الطغاة والجبابرة.

الهوامش:

1. ماركس، ملتون: المسرحية كيف نتذوقها وندرسها، ترجمة فريد مدور، بيروت، دار الآداب، 1965، ص245.

2. حمادة، إبراهيم: معجم المصطلحات الدرامية والمسرحية، دار الشعب، القاهرة، (د ت)، ص147.

3. أصلان، أوديت: فن المسرح، ج1، ترجمة سامية أحمد أسعد،، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، (د ت)، ص246.

4. لوكاش، جورج: الرواية التاريخية، ترجمة صالح جواد الكاظم، وزارة الثقافة، 1978، ص241.

5. هارف، حسين علي: فلسفة التاريخ في الدراما التاريخية، دار الكندي للنشر والتوزيع، إربد، 2001، ص29.

6. هلال، محمد غنيمي: في النقد المسرحي، دار العودة، بيروت، 1975، ص (45.44).

7. العشري، أحمد: المسرحية السياسية في الوطن العربي، دار المعارف، القاهرة، 1985، ص90.

8. شانصوريل، ليون: تاريخ المسرح، ترجمة خليل شرف الدين ونعمان أباظة، مطبعة كرم، بيروت، 1961، ص66.

9. رمضاني، مصطفى: توظيف التراث وإشكالية التأصيل في المسرح العربي، مجلة عالم الفكر، المجلد السابع عشر، العدد الرابع، وزارة الاعلام، الكويت، 1987، ص80.

10- ابن زيدان، عبد الرحمن: أسئلة المسرح العربي، المغرب، دار الثقافة للنشر والتوزيع، الدار البيضاء، 1987، ص66.

11. القط، عبد القادر: من فنون الأدب- المسرحية، دار النهضة العربية، بيروت، 1978، ص 178.

12- عصمت، رياض، المسرح في سوريا، الهيئة العربية للمسرح، الشارقة، 2009، ص (3.4).

13. الطالب، عمر: نحو مسرح عربي جديد، مجلة الأقلام، العددان 3،4، وزارة الثقافة، بغداد، 1987، ص47.

14. إسماعيل، إسماعيل فهد: الكلمة- الفعل في مسرح سعد الله ونّوس، دار الآداب، بيروت، 1981 ، ص168.

الأدب العربي في ميزان مدارس النقد

د. أحمد عودة الله الشقيرات

مقدمة

يقول شوقي ضيف، كما يقول آخرون: «اليونان القدماء هم الذين سبقوا إلى وضع أصول النقد وقواعده». وفي القرن الثالث عشر بدأت الرومانسية تمثل رداً عنيفاً ضد المذهب الكلاسيكي، وتنادي بالتجديد وترك التراث القديم، والاعتماد على متطلبات العصر الذي يعيشون فيه، مع استمرار الاتجاه الأول على ضعف وتراجع. وفي القرن التاسع عشر نمت علوم مختلفة، من بينها علم النفس وعلم الاجتماع وغيرهما. وقد أثر علم النفس على الدراسات النقدية في الأدب، كما أثر غيره من العلوم.

وقد سمي كل من «بورلير»، و«مالارميه»، و«فزلين»، المنحطين، ثم رفع عنهم هذا الاسم وسموا رواد المذهب «الرمزي» لمّا عمّ الانحطاط وطمّ، وتعددت مذاهب النقد وأخذ بعضها يصارع بعضها الآخر، وتعددت مذاهب الأدب، وأخذ كل مذهب يبحث له عن سند وجذور في التراث اليوناني.

الأدب ضمير الأمة

يمكن القول إنّ أدب أي أمة إنما يشكل: ضمير الأمة+ القيم الفكرية+ الروحية التي تعتنقها+ جوهر اللغة. وفي مجال الأدب العربي نجد الأمة العربية لم تكن قائمة قبل الإسلام في الجزيرة العربية، وإنما كانت مجموعة من القبائل المختلفة المتصارعة التي لم تجتمع تحت أي لواء سوى الإسلام. ولكنها كانت ذات قيم وتقاليد، ولها طابعها الذي أورثها إياه مكانها في هذه الجزيرة شبه المنعزلة عن حضارتي العالم: حضارتي الفرس والرومان(1).

ذاتية الأدب العربي

كانت ظروف الجاهلية وحياتها، وما آلت إليه حياة العرب بعد الإسلام قد أعطت للأدب العربي ذاتية خاصة، وطبعته على نحو خاص، يختلف به عن آداب الأمم الأخرى، فظهرت فنون لم توجد في الآداب الأخرى، واختفت فنون وجدت في الآداب الأخرى، وظهور هذه الفنون فيه واختفاء تلك الأخرى منه لا ينقص من قدره، ما دام يصدر عن أعماق روحه الطبيعية ومقوماته الخالصة. ومن هنا فإن هذا الأدب لا يدرس على ضوء مناهج وضعت لآداب أخرى، ذلك أن أساليب النقد والبحث إنما توضع للآداب بعد ظهور هذه الآداب، ولذلك فهي مستمدة منها، ولا يمكن العكس.

◄ كاتب أردني.

أما مذاهب النقد الأوروبي فهي في الحق ليست مذاهب، وإنما هي أسماء عصور: كالكلاسيكية والرومانسية وغيرها. وهي تتصل في مجموعها بتاريخ الأمم الغربية. فلماذا تُنقل لتكون قوانين يخضع لها أدبنا الذي يختلف من حيث تكوينه وطابعه وتاريخه وبيئته ومظاهر حياته عن هذه الآداب؟ كما أنها تختلف عن أدبنا العربي مزاجاً وشكلاً وطابعاً(2).

فوضوية المذاهب الغربية

لقد تعددت مذاهب النقد، وأخذ بعضها يصارع بعضه الآخر، وتعددت مذاهب الأدب، وأخذ كل مذهب يبحث له عن سند وجذور في التراث اليوناني. وثار أدباء القرن التاسع عشر على الأدب الرومانسي، مع بقاء بعض المؤيدين له على ضعف وتردد. وأخذت المدارس الأدبية والنقدية تتعدد: فمن المذهب الرمزي والانطباعي والمستقبلي الإيطالي والمستقبلي الروسي والمذهب التعبيري، وكذلك الحركة الدادائية والحركة السريالية، ثم الحركة البنيوية، وحركة ما بعد الحداثة، وامتدت مذاهب الأدب والنقد، في صورة فوضوية متناقضة سريعة التبدل والتغيير(3).

مفاهيم البيان العربـي

إن أبرز هذه المفاهيم: الوضوح الصادق، حيث لا تأويل ولا غمغمة ولا ظلال ولا رمز، وحيث لا يحمل اللفظ أكثر مما يطيق ولا يؤدي أكثر من معنى، والأمر فيه إما باطل وإما حق، ولا يكون الاثنان معاً. واللغة العربية بهذا المفهوم ليست لغة أو أنها لغة العرب وحدهم، ولكنها لغة فكر وثقافة ودين لألف مليون من المسلمين. ومن هنا فمن العسير مقايستها وفق مفهوم اللغات الغربية، وليس في استطاعة العرب وحدهم التصرف بها أو عزلها عن مستواها القرآني وطابعها الإسلامي. وعندما هاجم الإمام الشافعي المنهج الأرسطي قال: إنه يستند إلى خصائص اللغة اليونانية، وهي مخالفة لخصائص اللغة العربية(4).

أصول الأدب العربـي

1- إنسانية الأدب: تلك التي يستمدها من الفكر الإسلامي، ومن أريحية العرب في الجاهلية ووفائهم ومروءتهم.

2- الأصالة: وهي الالتحاق بالجذور مع التفتح، والتحرر من التبعية في الوقت نفسه.

3- الصدق: حيث رفض الأدب العربي وخاصة بعد الإسلام، الخرافات والأوهام التي لم تثبت صحتها ولم تثبت للبحث أمام البرهان.

4- الوضوح: فالجو الصافي في جزيرة العرب، والتفاؤل، مدّ الأدب العربي بطابع الوضوح الخالص البعيد عن التعقيدات والرمزيات والأوهام.

5- الإيمان: حيث آمن العرب بالله سبحانه وتعالى حتى في جاهليتهم، ولما جاء الإسلام حرّر الفكر العربي من السحر والشعوذة، وادعاء علم الغيب.

6- التفاؤل: فالأدب العربي لا يعرف التشاؤم كالأدب الغربي نتيجة ما يطلق عليه: الخطيئة الأصلية.

7- ترابط العروبة والإسلام: لقد أحدثت موجة العنصرية والدعوة إلى السلالات هزة كبرى في الفكر البشري في العصر الحديث، ومنها تسربت الاضطرابات إلى العلاقة بين العروبة والإسلام. فالعروبة قيمة تختلف عن مفهوم القومية الغربي، لأنها لا تحمل العداء أو الصراع، بل تحمل الانفتاح والتكامل مع عالم الإسلام كله. ومن هنا يأتي التكامل بين الإسلام والعروبة تكاملاً عضوياً متفاعلاً بحيث لا يمكن فصلهما(5).

النقد العربي في الجاهليــة

أما النقد عند العرب فقد كان في العصر الجاهلي قائماً

على أساس اللغة العربية وخصائصها الجمالية والبيانية المتعارف عليها بين القوم، وعلى الذوق والإحساس الذاتي، تبنيهما طبيعة اللغة وأعراف المجتمع. ومن هنا فلا بد من أن يكون لنا نظريتنا الخاصة في الجمال، والجمال في كل شيء: في النفس، وفي الكلمة، وفي الأدب والنقد، وفي كل ميدان(6).

من أين أتانا الشعر الحرّ؟

يظن كثير من الناس أن ما يسمى «الشعر الحر» كان ولادة طبيعية لنمو الشعر وتطوره في بلادنا، وهذا ظن خاطئ. يقول «جودي روس» في كتاب «الحداثة» لمالكوم برابيري وآخرون عن نشوء (الشعر الحر) «Free Verse» إنه كان على يد الحركة المستقبلية الإيطالية. فيقول عنها: «نجد هنا دعوة إلى كتابة شعر نابع من الحدس «Intuition»، دعوة إلى كره المكتبات والمتاحف، إلى التبرؤ من العقل، إلى إعادة تأكيد أهمية الحدس المقدّس الذي جبلت عليه الأجناس اللاتينية(7).

والحداثيون العرب، ماذا يقولون؟

إن الشاعر يحرر الكلمة من معانيها مما علق بها من غبار السنين... هكذا يقول عبد الله الغذامي. ويقول كمال أبو ديب: «..إذ إن هذا الشعر يجسّد تجربة فذة في رؤيا الخمرة وإغراقه في الرفض المطلق للتراث الأخلاقي والديني». ويقول أدونيس: «لقد انتهى عهد الكلمة– الغاية....، ويقول: «وترفع الكلمات من معانيها الموضوعة مسبقاً في المعاجم أو على الألسنة». ويقول أيضاً: «إنما تصبح اللغة وسيلة لإقامة علاقة بين فضاء أعماقه وفضاء الأبعاد التي يتطلع إليها»(8).

هكذا يصفون الشعر الحرّ، بينما لا يوجد له في تاريخ اللغة العربية تربة ولا منبت، إنه شجرة غريبة عن اللغة العربية وآدابها. يقول ابن خلدون في مقدمته: «علم أو لسان العرب وكلامهم على فنين: في الشعر المنظوم وهو الكلام الموزون المقفى....، وفي النثر وهو الكلام غير الموزون». ولم يحدث أن نثر الشعر في العربية، ولكن الشعر بأوزانه وقوافيه أثر في النثر في بعض العصور بالتزام السجع والتقفية في المخاطبات السلطانية».

كما يقول ابن خلدون أيضاً: حيث «قصروا الاستعمال في المنثور كله على هذا الفن الذي ارتضوه.... وهو غير صواب من جهة البلاغة، لا لما يلاحظ في تطبيق الكلام على مقتضى الحال من أحوال المخاطِب والمخاطَب»(9).

بناء القصيدة الجاهليـة

يجتهد بعض الباحثين في بيان مبدأ الوحدة في القصيدة الجاهلية مثلما يفعل كمال أبو ديب، ولكنه في بحثه عن هذا المبدأ يرى أن عمله في هذا المجال لم يكتمل بعد. ويضل القارئ المتخصص في كتاب المنهج الذي اتبعه الباحث، في متاهات تفاصيله ورموزه، ويصاب بالدوار. وقد طبّق أبو ديب في هذه الدراسة على معلقة امرئ القيس مفهومه الخاص، بأنها رؤية شبقيه، وأخصها لهذه المقولة. ويبدو التعسف واضحاً من محاولة البحث فيها عن شيء شعائري، لمجرد أن الشاعر يقول:

أصاح ترى برقا أريك وميضه
كلمع اليدين في حبيّ مكلّل

يضيء سناه أو مصابيح راهب
أمال السليط بالذابل المفتّلِ

ففي البيت الثاني يرى أبو ديب بعداً شعائرياً، يقول: "نجد أن البعد الشعائري للسيل يتصاعد في البيت الثاني، فيرتبط البرق بمصابيح الراهب الذي يحافظ على ذبالتها مغموسة في الزيت، كي تظل منيرة إلى الأبد" (10).

الفن للفن أم الفن للحياة؟

يقول محمد مندور: "...والنقد الأدبي في أدق تعريفاته هو أولاً قبل كل شيء، فمن تمييز الأساليب باعتبار أن أسلوب

الرجل هو الرجل نفسه. وهناك، مفارقات لا تنتهي بين كل نوع نظري من أنواع الأساليب، فالأسلوب الساخر مثلاً منه المرّ ومنه الحلو ومنه المتشائم، ومنه المتفائل، ومنه المداعب اللطيف ومنه المتهكم القاسي، ومنه المستخفّ بالحياة ومنه الحرية عليها الباكي منها خلف سخريته. وكذلك الأمر في كافة الأساليب"، والناقد الناجح هو الذي يحس بهذه المفارقات ويبرزها ليميز كاتباً كبيراً عن آخر، وبذلك يحدد أصالته ولونه النفسي المتميز عن ألوان النفوس الأخرى. ويقول مندور: "وأقبح في نظري من التعصبات الفكرية العمياء، الأهواء الشخصية والنزوات الفردية المرضية التي تحابي وتعادي على غير أسس نزيهة من التذوق البريء والتعليل المنطقي السليم الموضوعية الجدية لما يتناوله الناقد من أعمال بأدبية..." (11).

ثم يقول د. محمد مندور: "هل يعمل النقد الأيديولوجي أصول الفن ومبادئه أو يغلب عليها المصادر والأهداف؟" هذا ما لا يقول به أحد ولا يمكن أن يقول، وإلا أهدرنا جوهر الأدب كفنّ جميل من حيث أن الأدب في أصدق حدوده هو صياغة فنية لتجربة بشرية.

والنقد الأيديولوجي لا يسلم بكل تجديد، بل يشترط قبول التجديد شرطين أساسيين؛ أولهما ألا يطيح هذا التجديد بالطابع الجمالي للأدب، وإلا فقد الأدب الصفة المميزة له عن غيره من أنواع الكتابات. والشرط الثاني هو أن يخدم كل تجديد الهدف أو الأهداف التي يمكن أن يهدف إليها الأدب، وإلا حرفنا الأدب عن سبل فاعليته(12).

الفـن والحيـــاة

إن الفن الأصيل لا يقوم بدهياً على المغامرات كمغازلة النساء ومعاقرة الخمر وسهر الليالي، ولو كان ذلك صحيحاً لهان أمر الفن وأصبح شيئاً يسيراً يستطيعه كل إنسان، ولكننا لسوء الحظ ما نزال نجهل دور هذه المغامرات في إذكاء عبقريات بعض عباقرة التاريخ، أم إنها كانت وبالأعلى هذه العبقريات.

فقد أنفق الكاتب الفرنسي الذائع الصيت "مارسيل بروست"، خمسة عشر عاماً في صالونات باريس الصاخبة، ولكنه لم يكتب حرفاً واحداً خلال هذه المدة الطويلة، حتى أصابه مرض ألزمه البيت، فابتدأ عندئذ سلسلة قصصه التحليلي الرائع، واتخذ لها عنواناً هو: "البحث وراء الوقت الضائع" (13).

خطر المذاهب الأدبية على الأدب العربي

إن خطر هذه المذاهب الوافدة من الغرب، والتي كانت مضللة في مجال التطبيق عليه، قد امتد إلى أخطار كبرى تتصل بجذور الفكر العربي نفسه. وقد كان لهذا الغزو الثقافي للأدب العربي أثره في قضايا كبرى أهمها:

- تقديس الأدب اليوناني الوثني والإشادة به، وقد كان ذلك باباً إلى إعلاء شأن الأدب الغربي بفنونه المختلفة، واتهام الأدب العربي بالنقص في مجالات القصة والمسرحية والأدب الملحمي. ومن هذا المنطلق كانت الاستهانة باللغة العربية ومحاكمتها على نحو محاكمة اللغة اللاتينية، وإعلاء شأن العاميات والإقليميات، والدعوة إلى التحرر من البلاغة العربية للفصل بين مستوى القرآن البياني وبين مستوى الكتابة العربية.

- ومن هذه الأخطار كانت الدعوة إلى تحرر الأدب العربي من القيم الأخلاقية، وارتفاع الدعوة إلى (الفن للفن) ودفعها إلى الأمام، وفتح الباب واسعاً أمام الكتابات المكشوفة والإباحية. ومنها أيضاً مهاجمة التراث والسخرية منه، والاهتمام بالجوانب الضعيفة والشعوبية منه، وإعلاء شأن المؤلفات التي تثير الخلاف وتنشر الفتنة ولا تعبِّر حقيقة عن روح الأمة العربية أو مقوماتها.

- والأحظر من ذلك إغراق الأدب العربي بالترجمات عن الآداب الأوروبية، وهي ترجمات روعي فيها أن تحمل كل مذاهب الإباحة والانحلال والإلحاد والفساد إلى الأدب العربي وخاصة القصة المكشوفة(14).

الهوامش:

1- أنور الجندي: خصاص الأدب العربي، دار الكتاب اللبناني، بيروت، 1985، ص17.

2- المرجع السابق: ص18.

3- د.عدنان النحوي: النقد الأدبي المعاصر بين الهدم والبناء، دار النحو للنشر والتوزيع، الرياض، 1995، ص26.

4- أنور الجندي: مرجع سابق، ص29.

5- المرجع السابق: ص30-31.

6- عدنان النحوي: مرجع سابق، ص27-30.

7- المرجع السابق، ص84.

8- المرجع نفسه: ص85.

9- المرجع نفسه: ص86.

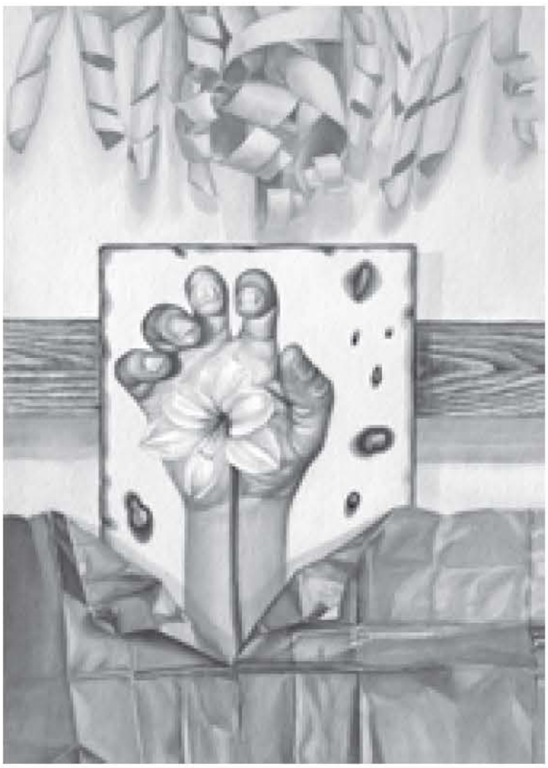
10- د.عبد الحميد القط: آراء في الأدب والنقد، دار المعارف، القاهرة، 1993، ص70-71.

11- د.محمد مندور: معارك أدبية، دار نهضة مصر، القاهرة، دون تاريخ، ص4-8.

12- المرجع السابق، ص305.

13- المرجع السابق، ص303.

14- أنور الجندي: مرجع سابق، ص68.



لوحة للفنان التشكيلي د. راتب شعبان

سوسيولوجيا الفن في المتغيرات العربية الراهنة

محمد أبو زريق

يستند العمل الفني في مشروعيته من السياق العام للفن والمحيط الخاص به في فضائه، لأنه يرتبط جدلياً بالنظريات والمفاهيم الثقافية التي تؤلف الخطاب العام للفن، سواء كان ذلك بالمعايير الخاصة بقاعات العرض أو ما يكتب في الصحافة الثقافية من نقد جمالي، أو ما تشتمل عليه كثير من «بروشورات» المعارض الفنية والبيانات الثقافية والإعلامية التي ترافق الظواهر الفنية البصرية الراسخة أو الجديدة، وهو بالتالي محكوم لهذا الفضاء ولا يستطيع الفكاك منه رؤيوياً، ولكنه عملياً يفكك البنى التقنية والحواجز الأدائية بين أنماط الفعل الإبداعي البصري من رسم ونحت وجرافيك وحدث، منتصراً لأي شيء يمكن أن يكون فناً، ومنتصراً لزحزحة المفهوم التقليدي الساكن لصالح المفهوم الجديد المتحرك، ومن القاعات المغلقة إلى الفضاء الرحب، ومن خصوصية العمل البصري النخبوي في المتاحف وقاعات العرض إلى عمومية الفن الجماهيري في الساحات والميادين العامة.

ولعل اهتمام الدول بتجميل المدينة في طرحها لبعض الجداريات والنصب هو انعكاس للجوّ العام الذي شهد بعض التحولات الديمقراطية في البلاد، أو نقيضتها الديكتاتورية فيما مضى، وسيزداد هذا التحول كلما كان التحول الديمقراطي أكبر، ذلك أن الفعل الجمالي يكتسب أهمية خاصة كلما ازداد الوعي العام بضرورة تفعيل الفن بصرياً، ليكون له تأثير محمود على الجماهير، ولا يتأتى هذا التأثير بمعناه الشامل بالعرض في جو مغلق في صالة العرض، ذلك أن التأثير الديمقراطي يحمل في وجه من وجوهه الصخب والتغيير، وهكذا فإنّ بقاء الفن داخل الصالات المغلقة يظل محدود التأثير، ولا يراه إلا النخبة، ويعزل الفن ضمن حدود نخبوية لا تتناغم مع حركة الشارع الجديد المفعم بالحيوية والتغيير، وعليه فإن الحقل الفني يستمد فاعليته أحياناً من (أصناف العوامل التي تتدخل في الآثار«الفنية» إنتاجاً وتوزيعاً واستهلاكاً، والمجموعات المتنافسة في إطار كل صنف حيناً آخر)(1) فالفن لا يتطور الا في محيط سوسيولوجي متحرك.

من جهة أخرى، يرغب الفنانون بالتواصل مع الجمهور والقفز فوق البنى التقليدية للفن، باعتبارها بنى قديمة، ويعمد كثير منهم إلى محاولة الالتفاف على هذه البنى باللجوء إلى جمهور شعبوي مختلف، هذا الحراك يخلق جدلاً خاصاً بمشروعية الفن وفحواه وجدواه، وتطويراً للأدوات والتقنيات وأداء الفنان وحرفيته، كما يخلق جدلاً مفاهيمياً على مستوى الرؤية الفنية عند الفنان، وعلى مستوى التلقي عند الناس، بحيث تصبح مساءلة جدوى العمل الفني مطروحة جماهيرياً، ولعل ذلك كله يجعل الميدان فضاءً مفتوحاً على الحراك الاجتماعي، ومكاناً للتلاقي وصوغ الأفكار والوجدان، بل إن الميدان هو المكان الأكثر تعبيراً عن هذا الحراك سواء في كونه مكاناً للقاء أو باعتباره بوتقة لتلاقي جميع الفئات

كاتب، وفنان تشكيلي أردني.

والطبقات والأفكار، وحيزاً لتعايش المتناقضات الاجتماعية والثقافية والسلوكية لدى شرائح واسعة من المجتمع المدني، ولعل فنون الأنستوليشن والفن المفاهيمي هو استجابة لكل تلك المتغيرات.

لقد وقع الفنان العربي الحديث ضمن وهم النخبة، فلم يعد يرى لوحاته سوى جمهور ضئيل من أقرانه الفنانين والمثقفين، وفقد الاتصال بالبيئة والمحيط، فتغرّب بفنه واستغرب عن جماليات المكان والناس وحركة الواقع، فلا أرضاً قطع ولا ظهراً أبقى، وتزداد غربة الفنان، عندما يحس بمعاول التخريب والهدم تدكّ كل ما يتصل بالحقيقة في كل مجالات الحياة، وخاصة في ميدانه الأساس ميدان الفن والجمال، ومصدر التخريب يأتي من مجمل الواقع المسكون بالخراب، والظواهر المعيقة التي تتبادل المنافع والأدوار، والإعلام الشللي، وعلاقات النفوذ حيناً و(إلى استراتيجيات المهنة، وحيناً ثالثاً إلى وصول فرق جديدة ساعية إلى الاختلاف عن غيرها، هذا بالإضافة إلى التصلب النسبي لأولئك الذين توقفوا عن التجديد بعد استحواذهم على السلطة الرمزية يرومون بها تحصيل مداخيل على الصعيدين الاجتماعي والمالي)(2).

في القرن المنصرم وصل العالم العربي إلى الدرك الأسفل في جميع المجالات، وظن أكثرية الفاعلين في الميدان أن لا فائدة من العرب، وأنهم يعيشون في عصور ما قبل الحداثة، وقال آخرون إنّ الشخصية البنيوية العربية تنتمي إلى التخلف وعدم القدرة على مجاراة العصر، وإنه كائن تاريخي لا يعيش عصره.

وفي ظل العولمة المطروحة الآن، والتي أتتنا كأنها القدر المحتوم، فإن أول ما علينا القيام به هو القبول بها كواقع، ومن ثم محاولة المشاركة بها ضمن ما هو متوفر لدينا إبداعياً، ومن ثم محاولة أنسنة هذه العولمة وترويضها بما يتلاءم مع طبيعتنا، وهو أمر بعيد المنال لكنه ليس مستحيلاً، وهو بديل واقعي للاندماج في العولمة أحادية الإرسال، ولدينا من المبدعين ممن هم قادرون على هذه المشاركة، لكننا بحاجة ماسة إلى المؤسسات القادرة على تبني الإبداع وتصديره، وهو أمر مرتبط بقدرتنا على استيعاب التطور المدني والانتقال به وإليه، لنكون أكفاء في عولمة متعددة الأطراف، وقادرة على الجدل والحوار، يعززها القيم الإنسانية والتعددية وحقوق الإنسان.

وقد كانت الثقافه وبيدها الإعلام الرافعة الحقيقية لوصول الناس إلى المعلومة، حيث أدرك الناس أنّ المياه الراكدة العفنة، وكل القيم الدخيلة الفاسدة قد مرّت من تحت أقدامهم، وأنّ هذه المرحلة من التدهور ما عاد بالإمكان السيطرة عليها بخسائر محدودة، وأنّ الأمر يتطلب فعلاً منظماً يقف أمام هذه الأعاصير التي سرقت الرغيف والحلم والمستقبل. ومن هذا الواقع المرير خرجت الجماهير العربية منتفضة على هذا الواقع السكوني الذي أفقد الأمة القدرة على الحركة والتجدد والإبداع، حيث شهدت المنطقة العربية مجموعة من الانتفاضات الشعبية التي اعتبرها كثيرون ثورات من أجل الحرية والديمقراطية، بعضها كان سلمياً، وبعضها الآخر اتخذ طابع العنف، وقد كان للثقافة والفن أثرهما البارز في صياغة هذه الثورات وإنضاجها، لكنّ هذا الأثر لا يبدو واضحاً لدى الكثيرين نظراً لأن الأثر الثقافي يعمل على مديات طويلة من التخمر والتفاعل والانصهار، ولعل النموذج الأوضح لهذا الأثر قد نجده في كل من مصر وتونس وليبيا واليمن، وما زال الوضع ملتبساً في كل من سوريا والبحرين وأقطار أخرى.

ولعل دخول التأثيرات الأصولية على مسار هذه الثورات يعيدنا إلى تأثيرات الثقافة المحافظة التي ترعرعت في ظل أنظمة قامعة؛ مما دفع الناس إلى الانكفاء واستنهاض القيم التي مثلت نجاحاً في تاريخها اعتقاداً منهم أنّ هذه القيم التاريخية ستظل قادرة على النجاح في الحاضر والمستقبل،

وبهذا انقسم المجتمع إلى طائفتين، الأولى تنظر للخلف، والثانية مدنية تنظر إلى المستقبل.

من الملاحظ أنّ التأثير المتبادل ما بين الثقافة والفن من جهة، والفعل الاجتماعي في بعده السياسي والاقتصادي من جهة أخرى، هو تأثير بطيء لكنه مستمر وطويل على المدى البعيد، ذلك أنّ إحداث أثر سلوكي ما لا يتم إلا بفعل عامل جمالي، هذا الأثر الذي يخلق القيم والهواجس والميول التي تؤدي في النهايه إلى رؤية ما للحياة والكون، وتتجلى في السلوك والموقف، وهذا ما يحققه الفن. لكنّ ما يحدث في العالم العربي هو التحالف الضمني ما بين السياسة والثقافة فـ(أنساق البنى الثقافية غير مفروزة عن السياسي لدينا، باختصار السياسي العربي يساوي السلطة، الثقافي تابع كالعادة؟ الثقافي ملحق أو ضحية اعتقال، أو مشروع إلغاء، السلطة الرسمية تستحوذ على المشهد كله... الثقافي يتواطأ بنافق ضد ذاته، يبرر يفسر بحمق ولا يؤوّل بعمق، يتآمر وهو يئن أنيناً جاهزاً من نظرية المؤامرة)(3). يحضرني هنا زيارة زعيم دولة عربية كبرى لمعرض فنان عربي مشهور، والهدف لم يكن بريئاً يؤدي إلى تقدير الثقافة، بل كان الهدف سياسياً بامتياز، وما الثقافة هنا إلا عمل تزييني مضلل، وفي أفقٍ موازٍ تقيم دولة الإمارات العربية المتحدة سلسلة من المتاحف الضخمة على جزيرة السعديات صمّم لها كبار المعماريين العالميين، حيث تأمل الإمارات الترويج للسياحة الثقافية، لكن ذلك لا يخلو من هدف سياسي وهو الترويج للإمارات كواحة للسلام في محيط يعجّ بالعنف والتطرف، وقد أشار الزميل عز الدين نجيب إلى هذا المعنى بالقول: (إن الفن الحقيقي مناعة ضد الإرهاب، لأنه عدو التعصب والكراهية واحتكار الحقيقة، ولأنه يشجع التعدد ويحترم اختلاف الألوان، ولأنه يزرع في النفوس الحب والتسامح والرقة والروح الإنسانية، ولأنه -بهذه السمات جميعاً- مدخل رائع لفهم صحيح لمبادئ الدين والقيم العليا في الحياة..)(4).

وقد لجأ الفنان العربي في هذا الوضع للحداثة، دون استيعاب متطلباتها، ولجأ للتجديد في الشكل والمضمون، دون انتظار للظروف الاجتماعية والثقافية الموازية، والقادرة على احتضان فنه والتفاعل معه وفيه، فاعتمد مدارس ما بعد الحداثة كبرهان على تقدمه ومعاصرته لكل جديد، وتلازم ذلك مع وجود أزمات مختلفة في البنية العربية من كل شكل ولون، فعكست سلبياتها وعنفها على عملنا التشكيلي، فظهر المضمون السياسي والإعلامي والسياحي، جنباً إلى جنب مع آخر مستجدات الحداثة، وتبعنا مشاهدٌ لا يختلف كثيراً عنا، بل متأخر عنا، فاستجاب لطروحاتنا سلباً أو إيجاباً، دون هضم واعٍ لما أنتجنا، لكنه سرعان ما أدار ظهره لنا، لأننا ببساطة قد قدناه إلى وعي زائف، لم يقدم له شيئاً على طريق إعداده الحضاري المأمول، في هذا الكم الهائل من المعلومات والرؤى والأفكار.

على أنّ الأثر الثقافي هنا لم ينتهِ بهذا الإنجاز، بل طرح أسئلة مهمة في التراث/ والمعاصرة، الشكل/ والمضمون، القديم /والجديد، وأسئلة أخرى ما زالت تفعل فعلها في المجتمعات العربية، وقد اتخذت صيغة التفاعل شكل الحوار ما بين المركز والهامش، خاصة في الدولة الشمولية، حيث مثلت الثقافة السلطوية دور المركز في الفعل الثقافي، ومثلت ثقافة المعارضة دور الهامش، وقد تم تبادل الأدوار بين المركز والهامش في الثورات الناجزة، حيث احتل الهامش مركز الفعل الثقافي، وبدا تأثيره واضحاً في وسائل الإعلام المرئي والمسموع والمكتوب، وتبدلت صيغ الخطاب ومضامينه بين ليلة وضحاها، وانتشرت قوائم التصنيف على المستوى الإعلامي والثقافي والفني، هذا مع الثورة وهذا مع السلطه، بل انتقل كثيرون من المركز إلى الهامش الذي أصبح مركزاً، (ففي قطاع مثل الفنون التشكيلية، لم يكن متاحاً للفنانين غير الانخراط والانضمام لجمعية واحدة، اسمها اتحاد الفنانين التشكيليين، والفنان الذي يرفض المرور عبر بوابة هذه الجمعية، لم يكن له من حل إلاّ شرب ماء البحر والتهميش، ذلك أنّ هذه الجمعية هي

الإطار الذي يتحصل من خلاله الفنان مثلاً على بطاقة تثبت أنه فنان. ولم يكن الأمر مختلفاً في بقية القطاعات، فالدولة «البورقيبية» صاغت هذه الأطر وفق تصورها لنظام حكمها، وهي الأطر التي وجد فيها نظام بن علي، المثال لترسيخ نظام حكمه البوليسي والمهين للإبداع والمثقفين)(5)، وهذا مثال تكرر في غالبية الدول العربية، سواءً في الفنون التشكيلية أو الأدب، عبر جمعيات واتحادات وروابط ثقافية متعددة الأسماء (وهذا التداخل لا يمثل في اعتقادنا سبباً لتفسير أو لفهم حالة «التشتت» أو تنوع الهياكل الممثلة للقطاعات بقدر ما هو ضرب من الخصوصية في بلد لا تعد ضمنه الفنون صناعة، وسوقها الفنية غير محصنة بقوانين وبنى تحتية، بالإضافة إلى أن قطاعاً مثل الفنون التشكيلية لا يعد قطاعاً مهنياً على المستوى القانوني)(6).

أما في الثورات غير الناجزة، فقد لاحظنا اقتراب المركز من الهامش أو المحيط، ويصبح الهامش هو المنارة التي ترشد السفن الثقافية إلى خطابها ونورها، بما يعني أن لكلا القطبين تأثير واضح على نوعية الخطاب الثقافي المقدم للجماهير، ولكننا في النهاية لا بد وأن نعترف بأنّ هذا الخطاب هو وليد مرحلة انتقالية لم تنضج فيه ملامح الثقافة المستقبلية التي تنبذ العنف، وتدعو لتجاوز الذات والاعتراف بحق الآخر في الوجود والفكر والتمثيل السياسي، مقابل حركات سلفية تقاوم مثل هذا التغيير وتفرض عنفها، وتعتبر نفسها بديلاً عن السلطة، ولكن بأدواتها وتمثلاتها السلطوية نفسها من إبعاد وتهميش لقوى التغيير، ولعل ذلك مرده أن الفعل الثقافي بطيء التأثير لكنه ضاغط وصولاً إلى حالة من التوازن والنضج، بعيداً عن الفعل ورد الفعل.

إنّ الدور الخطير للإعلام الثقافي يتمثل في تلك المفارقة بين الترويج للتطرف من جهة، أو الانحلال من جهة أخرى، إذ إنّ وجود عدد هائل من المواقع الإعلامية التي توظف التطرف الديني، وأخرى تروّج للانحلال الأخلاقي، أدى إلى ثقافة ضد التقدم والتطوير، قابلها جهود ثقافية عربية لعددٍ متنامٍ من المثقفين العضويين على امتداد الساحة العربية ساهموا في ميادين الإبداع الأدبي والجمالي والتنظيري، لكنّ هذا الجهد لم تظهر بوادر تأثيره الفوري في مقابل الإعلام الثقافي الهابط، ولعلّ اليمن التي كان يُظنّ أن الثقافة غائبة عنها تجلت فيها هذه الآثار، وانعكس ذلك على ساحاتها التي وحدت كل القوى قبلية أو جهوية أو طائفية أمام مطلب التقدم والمستقبل، وهذا يؤكد أنّ المجتمعات التي جرّبت النظام المحافظ وخبرت إمكاناته الحضارية وتأثيراته السوسيولوجية هي الأكثر ميلاً لتجاوزه، مع عدم إنكار وجود تدخلات خارجية ركبت التغيير وحرفته عن مساره.

ولعل هذه المرحلة من تاريخ العرب بحاجة إلى مراجعات ثقافية وفنية شاملة، واختبارات شتى حتى نتجنب الفشل، ولعل الميدان الأهم هو ميدان الفنون البصرية؛ هذا الميدان الذي يتخذ من الصورة الوسيلة الأقرب إلى التأثير في الجماهير، فالصورة تعبّر عن ثقافة النخبة وتفاعلها مع ثقافة الناس، وهي بهذا تتخذ أيضاً جدل المركز/ النخبة، مع جدل الهامش/ الناس، وفي هذا الجدل التفاعلي يقترب الطرفان من مفاهيم ذات علاقة بالتطور والتجديد، إما بتبادل الأدوار، أو باقتراب أحدهما من الآخر، فالمثقف والفنان الحديث (شأنه شأن المتأنق، أرستقراطي مفتقد للشرعية، ولا نفع له.. عليه أن يؤكد اختلافه دون أن يقطع الصلة الاجتماعية التي أوجدت اختلافه ذاك)(7). ولهذا فإن على المثقف والفنان العربي أن يعيد ترتيب أولوياته بدلاً من تماهيه في اتجاهات الفن الغربي، كما فعل الصينيون واليابانيون والمكسيكيون.

وربما كان هذا هو الدافع للناقد التشكيلي فاروق يوسف حين قال: (لذلك ربما أشعر أن ما يفعله الرسامون العرب لا يرتقي إلى مستوى الشعور بالمسؤولية)(8)، ذلك أن الغالبية العظمى منهم يظل هاجسهم العمل على لوحة قابلة للبيع والاقتناء من قبل سوق يهتم بالجماليات الصرفة، وبما يتناسب مع قاعات البيت وأثاثه، بعيداً عن الخطاب الثقافي الذي تحمله اللوحة وما فيها من أبعاد حضارية وأصالة

ثقافية، ولعل اندفاع الفنانين لإيجاد طرق عمل جديدة، وعدم قدرتهم على تقنين ما يصلون إليه، يترك الكثيرين منهم ممن (يقع ضحية الفصل بين طرفي تلك المعادلة. يكتفي بالفن، كونه دائرة مغلقة، ويظل يدور بين دروب المتاهة، وهناك في الجانب الآخر من يغادر تلك الدائرة ليغلق عليه دائرة الحياة، منتشياً بتجليات فتنتها وجمالها. الرسم أشبه بالمكيدة، يهبك بالقدر الذي يكفي للغواية، هناك دائماً متعة واقعية لا تمتّ إلى الحقيقة بصلة، غالباً ما يسقط الرسامون ضحايا تلك المتعة).(9) وهي في الغالب متعة التجريد التي يحس به الفنان كمتعة مضللة يتشارك فيها مع المتلقي ضمن عملية نفاق اجتماعي وتواطؤ يفترض أن الفنان يعبر عن فكر ورؤى معينة، وبين متلقٍ يدّعي التذوق والفهم.

يقترح بورديو تحليلاً سوسيولوجياً ثلاثي الأبعاد هي (موقع العمل الفني في محيطه، بنيته الداخلية باعتباره محصلة الصلات بين مختلف الفرق والأفراد، ونشوء عادات التطبع لدى شاغلي هذه المواقع)(10)، وعليه فإن موقع الفنان سيكون ضمن تحقق ومواصفات هذه المحددات، مما يعني أنه سيأخذ تموضعه من خلال الإمكانيات المتاحة سواء في الأسلوب السائد أو الشكل والموقع الاجتماعي والأيدولوجي والحالة الاقتصادية ومراعاة إمكاناته الإبداعية وقدرته على اللعب داخل الميدان.

ماذا يفعل الفنان أمام هذا الواقع الذي يكون فيه الإبداع من آخر شروطه؟ وكيف نحدث نقلة كبيرة في العمل الفني، تكون قادرة على مقاومة المرآوية الكوكبية؟ وكيف نحدث وننشئ متلقياً عربياً، قادراً على الفرز الحضاري الواعي في هذا الخضم السيال من المعلوماتية؟ أسئلة لا يمكن الإجابة عنها في وضع دولي متحرك وسريع، يقابله ما يشبه السكونية في الوضع العربي الراهن، وليس هناك من وصفة جاهزة للخروج من هذا الوضع.

ولعل هذا النفاق هو الذي شجع الفنانين على مجاراة بعضهم بعضاً في وضع أسعار عالية لأعمالهم، وهو السبب الأهم في التنافس على وضع أسعار أعلى مما يستحق العمل الفني، وأدى ذلك بالتالي إلى كساد في السوق الفني، وأصبح كثير من الفنانين أسرى لأسعارهم، وبالتالي، تعطُّل مبيعاتهم وخاصة في مرحلة الركود.

إنّ سوقاً فنياً كهذا قد أضرّ بالعملية الفنية، فهي تحتكم إلى ذوات متضخمة فنياً، وتحتكم إلى عناصر من خارج الأسس التشكيلية؛ كالوظيفة العامة والطبقة الاجتماعية والشللية وغياب الرؤية وتبادل المصالح، الأمر الذي أدى إلى وجود رسامين ولكن بدون رؤية حضارية تضع بصْمَتَها على الخريطة التشكيلية العالمية.

كيف ننقل المواطن العربي إلى إعلاء قيمة العمل المنتج؟ وكيف ننقله إلى اتخاذ القرار الاقتصادي والسياسي والاجتماعي السليم؟ وكيف نرتقي بروحه ووجدانه ليتعامل مع المستجدات المتنوعة في حياته؟ وكيف ننمي ذائقته ليبتعد عن الاستهلاك الرخيص وقيم «الفشخرة» والتظاهر الكاذب؟ وكيف نقوي لديه نوازع الخير والحق والجمال؟ وكيف نقوي انتماءه الوطني؟ كل هذه التساؤلات ليست بعيدة عن الثقافة والفن، فالمجتمع الأكثر ثقافة وفناً، هو القادر على البقاء في عالم متغير، وإذا أردنا كل ذلك، وهو قطعاً هدف الدولة العربية الحديثة؛ كل دولة، وإن اختلف الاجتهاد، فإن علينا إعادة الاعتبار للثقافة والفنون، وهذا يعني الاهتمام بالمثقف والفنان، وتهيئة سبل العيش الكريم لهذه الشريحة، وتأمين حاجاتها المعاشية والإبداعية، وتمكينها من أداء رسالتها الجمالية والثقافية، بعيداً عن السيطرة والهيمنة المستترة بطابع مؤسسي حيناً، وبطابع اقتصادي حيناً آخر، وليس ذلك صعب التحقيق إذا ما توفرت النية الصادقة، ليصار إلى إلحاقهم في دينامية التطوير، إذ لا ينمو مجتمع اقتصادياً أو حضارياً بدون نمو أفراده ثقافياً وفكرياً.

ولعل هذا يعيدنا إلى اقتصاديات الثقافة، في عصر يعجّ بمنتجات لا تحتاج إلى حدود جمركية أو ضوابط إغلاقية، أو إجراءات حمائية، لأن الوسائل الاتصالية الفائقة التنوع والحداثة، قد حيّدت هذه الحدود وتجاوزتها، وأصبح بمستطاع كل مواطن أن يكون قادراً على الحصول على المعلومة من أي جهة يريد.

في هذه الحالة فإنّ أي تقاعس عن تشجيع الإنتاج الثقافي الوطني، معناه السماح لثقافة الآخر بالسيادة، ومعناه تهميش السوق الثقافي المحلي والعربي لصالح أسواق أخرى، تدخل إلينا من فضاء بيوتنا المنفتحة على كوكب يعجّ بالجميل والرصين والإبداعي، ممزوجاً بكل غثّ وركيك، وربما معادٍ لكياننا ومستقبلنا، إضافة إلى استنزاف ناتجنا المحلي في الوصول إلى ثقافة لا تعبّر عن طموحاتنا ورؤانا، كما أن هذا التحجيم للثقافة المحلية والعربية سيخرجها من ميدان المنافسة، ليس في الخارج، بل في الميدان الداخلي، بمعنى تعطيل الجهود الإبداعية المحلية التي قد تصبح سلعة مطلوبة ذات مردود اقتصادي هام على الوطن، وخاصة أننا نفاخر بأن ثروتنا هي الإنسان.

ما هو البديل المتاح أمامنا في ظل هذه الكوكبية؟ وكيف نجسّر الفجوة بيننا وبين الآخر وقد تأخرنا كثيراً؟! أعتقد أن البداية بخطوة أفضل من البقاء والتراجع والنكوص، علماً بأن إمكاناتنا القطرية لا تسمح لنا بموازاة الآخر المتقدم، وقد رأى د. إبراهيم بدران أن الحل يكمن في التعاون (العربي كإقليم ثقافي «إن لم نقل كإقليم قومي واحد»، لتحقيق اقتصاديات الترويض الثقافي للمعلومات المتفجرة في كل لحظة في العالم، وتحويل هذه الطفرات المعلوماتية إلى مادة عربية أو معربة لغة وانتشاراً، إذ ينبغي أن لا نتجاهل حقيقة هامة، وهي أن الكثير من هذه المعلومات والمفردات، هي بالضرورة مفيدة ومخصصة للثقافة العربية، وبالتالي وصولها في الوقت المناسب والكلفة المناسبة، هو أمر على جانب كبير من الأهمية للمستقبل الثقافي والحضاري العربي برمته)(11). ولقد سهلت العولمة فرض الهيمنة الثقافية للذين يملكون الوسائل التكنولوجية الحديثة من قنوات بث واتصال على حساب الثقافات الوطنية، وليس أمامنا إلا السير باتجاهين متوازيين، فمن جهة علينا العمل على ترجمة ومواءمة ما يبث لنا من المراكز التكنولوجية لتقديمها بأسلوب متوازن لا يلغي منطق التقدم والعصر، ومن جهة أخرى علينا توفير السبل أمام الإبداع الوطني للتطوير والتحديث، بشكل يصبح فيه قادراً على الوقوف في وجه القيم الدخيلة المضرة في مجتمعاتنا التي تعاني من التخلف والفاقة.

الهوامش:

1- بيار بورديو، آلان فيالا، ترجمة سليم العمري، مجلة كتابات معاصرة، عدد74، ص 12.

2- بيار بورديو، آلان فيالا، ترجمة سليم العمري، مجلة كتابات معاصرة، عدد74، ص13.

3- إلياس لحود، مجلة كتابات معاصرة، عدد63، ص 4.

4- Khamsat.com السبت /31/آب/ 2013

5- by Amor Ghedamsi on Thursday. April 2012 .5 at 6:33am

6- by Amor Ghedamsi on Thursday. April 2012 .5 at 6:33am

7- باتريس بولون، ترجمة منير السعيداني، كتابات معاصرة، العدد 74، ص 25.

8- فاروق يوسف، صحيفة الحياة، 11/5/ 2012

9- فاروق يوسف، صحيفة الحياة، 11/5/ 2012.

10- بيار بورديو، ألان فيالا، ترجمة سليم العمري، مجلة كتابات معاصرة، عدد74، ص14.

11- د.إبراهيم بدران، صحيفة الدستور، 16/أيلول 1998، عمان، الأردن.

إلاّ هــي..!

محمود الشلبي

هي الذّكرى تظلُّ مُقيمةً في الرّأسِ،
والأُفُقُ البعيدُ تُطِلُّ منه الشمسُ.
راعفةَ الفؤادِ من الجوى،
والوَعدُ في يدها
بذارُ الأرضِ،
تَصدُقُ في المواسمِ والفُصولِ،
كأنَّها إطلالةُ الفَجرِ.
تُرتّبُ صيغةَ الحُبِّ النبيلِ،
ولا تُحاورُ غيرَ معناها الخفيّ،
وراءَ ثوب المفرداتِ،
بما يليقُ بظلّها،
ومرافقُ التأويل تولدُ في مرايا النّصّ
ماثلةً على السطرِ.
أنوثتُها انخطافُ الياسمين،
حجابُها نَسجُ الحياءِ،
تكادُ نُعرَفُ من ندى سيمائها،
ولعلّها السِّرُّ الذي ينحازُ للشعرِ.
تَحِنُّ إلى صدى الأشياءِ،
في وترِ الكمنجةِ،
حين تَشتعِلُ اللُّحونُ
على أناملِ عازفٍ مُتَمرّسٍ.
وتبينُ في لُغةِ الهوى البِكرِ.

◄ شاعر أردني.

إذا ما زارها طيفٌ،
وحطَّ على صنوبرةٍ،
تكونُ بحيِّ مَطلعِها الأنيقِ،
فإنَّ أُلفتَها تُعَرِّشُ،
في المكانِ،
يُصيبني في الحال سَهمُ الأُمنياتِ،
يَغيبُ في الصّدر.
تُعلِّقُها عيونُ القلبِ،
في أرجاء غُرفتها...
فتزهر في حديقتها البهيةِ،
فكرةٌ جذابةٌ برحيقها السّيّالِ،
من وقع الحديثِ..ولوعةِ الصّبرِ.
لقد خَفيت بمن عَشِقَت،
وما خفيت عليَّ،
رأيتها تمشي.
كوقع فراشةٍ رفّت على عِطرِ.
وما من فرحةٍ مثلِ احتفالِ حبيبةٍ،
بطفولةٍ محتاجةٍ للمفرداتِ،
وزُمرة القِطط الأليفةِ،
في حمى حاكورةٍ تُغري.
أنا أمضي إلى وَعد انتظاري،
وهي لا تمضي...
فيُرجعني انتظاري فجأةً،
لرنين هاتفها،
ورَعشةِ صوتِها في مَسمعي يَسري.
أرنو لها بعيون شوقي مرّةً،
وأصيرُ مروحةَ الحنينِ،
لمرّةٍ أُخرى..
وأقطِفُ من مفاتِنها التي نَضَجَت،
صهيلَ عناصرِ الجسدِ المُشوقِ،
إلى رؤىً خُضرِ.
يلوحُ على ملامحها ندى الصّبواتِ،
يَعقدُ حُلمُها الورديُّ هالاتٍ،
تحيطُ بها،

وأطواقاً تُزيّنُ جيدَها المُغري.

ويحتفظُ المكانُ بِسرِّها.. وبها...

وتسري القهقهاتُ إلى معارجها،

رسائل يَلتفتنَ إلى أنوثتها،

فتنجو من كمائن صيدِها الكُثرِ.

لها نَغمٌ يُضافُ له المدى..

ويخصُّها بالمُستَحقِّ من الهوى..

والأُغنياتِ،

فيستعينُ بها الغناءُ،

وإنها بَدءُ التجلي،

في رؤى العُمرِ.

وما هي غيرُ بَوحِ دموعها...

يتسَّكعُ المعنى على طُرُقاتِها..

وتصيرُ في وَزن القصيدةِ،

بَحرها العُذري.

وتُدرِكُ بالصِّفاتِ،

من التفاتِ المُهجةِ الحرّى،

أكادُ أطيرُ مُستَلِفَ الجَناحِ،

من الجراحِ،

وفي الصّباحِ أجولُ في الفكرِ.

وما هي في القصيدة غيرُ شَهقةِ روحها،

ورحيقها المختومِ،

ظَلَّ نداؤها في المفرداتِ،

يزيدُ من وجع القوافي،

ليس يَنقصها اكتمالٌ..

ليس لي إلاّ هيَ..

اقتُبِسَت من الجمرِ.

أُضيفُ إلى رحيق الحُبِّ،

وَردَ حضورها...

وتُضيفُ لي إيماءةً...

مَمهورةً بصفائها...

وتنهداتِ فؤادِها...

وتُجيزُ لي في عُذرها..

عُذري

مـرايـــا لا تنكســـر

م. قيس الطه القوقزة

(1)

انعكاس لوطن آخر

في بابها يطوي الهوى صيفـا

ويذوب في نظراتهــا وصفــا

لم تعتبـرْ من كثرِ ما قُتِلَـتْ

حتى غدت أخطاؤهـــا حَتْفَا

تمشي على درب الهوى قُبَلاً

فتـــزيدُ لطفَ نسيمهِ لطفـــا

لم ترتطمْ أمواجهـــا أبـــداً

بالشاطىءِ العطشانِ والمرفا

لــم تقترفْ ذنبـاً لتعرفَـــهُ

أو راودتْ عن نفسهـــا طيـفا

الهـــمُّ يأكـل كلَّ عالمهــــا

والانتظـــارُ يزيدهـــا خوفـــا

والـــوردُ يعشقها ويأسـرُهَــا

فتَشُـدُّهُ من شَــعْـرِهِ قَطْفَــا

هيَ موطنٌ لجميعِ مَنْ رحلُوا

لكنهـــا أيضــــاً هـي المنفــى

هي في كتابِ الغَيْـبِ أمنيةٌ

أنشدْتُهَـــا حَرْفاً تـلا حَرْفَـــا

أحببتها...فجفت...وأيقظني

رِمشٌ علــى أهدابهـــا رفَّـــا

بالـرغمِ أني كنتُ أشــبِهُهَا

يوماً وكنتُ لدارِهَــا السَّقْفَــا

لكننـــي أصبحـتُ مختلفــاً

عنهـــا، وعن شَـوقٍ بها هَـفَّـا

لــم أســتطعْ أن أتقي وجعي

من يومِ أن كسرتْ بنا السَّيفَا

نصفــانِ قلبـي حينَ أقسِمُـهُ

وأمُـــدُّهُ لعيونهَـــــا ضَيفَـــــا

نصفٌ دفنتُ بـــه ملامِحَهَـا

وذبحـتُ قُربانـــاً لها نِصْفَـا

شاعر أردني.

(2)

مرايا لا ترى غير نفسها

لعينيكِ أكتب أول سطرٍ وآخر ما سيقال

عن الشعر والشعراءْ

* * *

ولم يتبقَّ لدي من الأمنيات سوى الصمت

والكبرياءْ...

أطل على عالمي من غيومي

وأعرف أن الهوى كان محض هراءْ

أراني ولست أراني...

فكيف سأشبهني وأنا لا أرى غير ظلي

على درج الانحناءْ...

* * *

أحب المرايا، لأني بها أتقي شرَّ نفسي وشرّي

وقبلهما شر هذا البكاءْ...

ولست أحاول أن أتقي الموج،،،

إنَّ ارتطامي به وحده من سيرفعني للسماءْ...

* * *

أرى بعض روحيَ من سطح أمنيةٍ

جرها الوهم نحوي...

إلى غيمةٍ لطَّختها الدماء...

أحبكِ

لا وقت للياسمينِ

ولا وقت للانتظارِ

ولا وقت إلا لكل الذين ادعو حين ماتوا

على درج الانكسارِ ، بأنهمُ الشهداءْ

فكيف أكون أنا غير حبرٍ

ووردٍ

وشعرٍ

وجوعٍ

وحزنٍ

وحبٍّ

وماء

(3)

سماء مستقيمة

يرى كل شيء كما لا يراهُ الذي يبصرُ

يعدُّ ورود المساء على كفّهِ

وردةً وردةً، ثم يخطئُ بالعدِّ حيناً...

وحين يصبُّ من الكأسِ لا يسكرُ

ويعرف أسماء كل النساءِ

وأسماء كل الجهاتِ

ولا يشعرُ

* * *

يريدُ بأن يقتلَ الوقتَ فيهِ، يمدُّ

يديهِ إلى شمعةٍ ليضيءَ الحروفَ

كطفلٍ تورَّطَ بالأمنياتِ إذا شدَّهُ المنظرُ

* * *

وحين يفتّشُ كلَّ الزوايا، وكلَّ المرايا

ليعثر فيها على نفسهِ

يفعلُ المستحيلَ ولا يعثرُ

* * *

يرى الأرضَ في عتبات الخطايا تدورُ

ويقرأُ شكلَ الخطوطِ على راحتيهِ

وتقتلهُ نظراتُ المرايا

ولا يثأرُ...

* * *

يرى ما يرى، بيد أن السماء لديه

تقوُّسها ليس يغريهِ

يطوي تقوُّسها في مداهُ لكي تستقيمَ

وبعد ثمانين فطلاً يمرُّ عليها ولا يكبُرُ



لوحة للفنان التشكيلي د. راتب شعبان

بيــدق..

عمار الجنيدي

لستُ بنادم

بعد ضياع العمر

إلاّ على هذا الجاحد.

بيدي أطعمته لوزاً

بيدي أسقيته خمراً / شعراً..

* * *

وحين اجتراحي قصيدة:

يَعِنُّ لِغَدْرِهِ أن يَنْهَشَ الهدوءَ

فينتبهَ انتباهي.

* * *

بيدقٌ على هامش الحياة يحبو

تحرِّكه نزوة الخيانة

فَيَدُلُّ «إبرهة الحبشيّ»

على حرائر القوم

يرشد الفيلَ إلى موضعِ الكعبةِ

يومئُ لفارسٍ أسود:

هذا قبر حاتم.

وهذا شاعرٌ يحبُّ الوطن.

* * *

لا بدّ من قصيدةٍ إذن

تعرّي هذا الخائن،

فقَدَرُ القصيدة أن تبقى

أن تشمخ وتعلو

وإلى عتمة المصير يرحل الجاحدون..

شاعر أردني.

قصيدة «إلى أدونيس»

علي ياسين عوض عبيدات

تنصّلت مني الأبوةُ يا صديقي!

فشقائقُ النعمانِ تنسابُ نهر تخلصٍ

وانعتاقٌ..

بين المدينة والغيوم يستنجِدُك هانيبال

وعلى الظلالِ ونُعاسِها أنت

والنداءُ وريثُ العدمْ..

اهمس لي

تعال!

أو عُد دون أن تأتي، فعشتارُ تهواكَ ويا كُبر

ما هوتْ بي..

في شظايا مراياك

في عتمةِ أقمار الضباب

بين خُطى التمرد

وعلى كُفوف الشراسة

يكمنُ ظِلُك الثقيل

والظل يا صديقي يدلهِمُ طولاً وانتحار..

مات هانيبال

لم تقُل لي حذاري!

صديقي

في فراغ شمْلِنا مُتسعٌ من تقاطُع، وملء الفراغِ

فواصلٌ وتقاطُع،

ليكن كِلانا أنا أو أنت..

شاعر أردني.

كُرَ معي ولنقتل الخنزير في مضارب الإله

فيوم الصيد ذاك لا شمس له وأنت في البعيد

وأنا تائهٌ فيه..

لو لم ينتحر هانيبال

لكانت ثورتي أنت

كنتُ قد قتلتهُ

أسرتهُ

ثبتُّهُ

حولتُهُ

ولطلبتُ من وثنيتنا فديةً مِقدارُها قضية..

فيمَ الخلاص..؟

ماذا عساني لو لم تقابلنا؟

كيف لن يكون حالي لو لم تقابلنا؟

أظنهُ موت.. لكنه اختيار..

تعال بي

لي

فأنا ألهثُ منك..

في سُحب الرتابة والعبودية

نام ثائر..

وتطاير شعرُكَ الأشيب بين لحده ومرماه

وفلفل التغيير صار محجاً

في ملكوت البياض والصُدفة

كأن جبينك كل إله و كل الفصول!

اقتلوا عشتار ..



لوحة للفنان التشكيلي د. راتب شعبان

قصــة

حكـايــة اســمها الـزمــن..

عصام الموسى

عند عتبات حديقة المفترق، حيث كان يلقاها، توقف الزمن.

جلس دون حراك في ظلال شجرة عتيقة على مقعد خشبيٍّ محفور عليه رسومات وكلمات. كانت شمس الصيف ترسل أشعة حارقة، لكنّ أغصان الشجر المتشابكة حالت دونها. تقافز عصفور على شجرة سرو باسقة ذكّرته بشجرة مثلها كانت في حديقة منزلهم، وتذكّر متعة تسلقها والانتقال عبر أغصانها كالعصفور. كان يتمثل العصفور وهو على الأغصان ويفتح ذراعيه كأنه يتهيأ للتحليق. تلفّت حوله وهو يضمّ ذراعيه: كانت الحديقة خالية إلا من سيدة تتحدث بهاتفها الخليوي.

مدّ ذراعه اليمنى وأوسدها أعلى المقعد ومال برأسه عليها. كان ينظر إلى أشجار الحديقة والسماء، ويتوقع مجيئها.. قال متسائلاً بين مصدّق ومكذّب:

- هل تأتي!

تمنى أن يراها ويسمع صوتها، فتخرجه من الوجع الذي وضع نفسه فيه. حاول أن يقرأ الكلمات المحفورة على المقعد الخشبي. استطاع أن يميّز اسماً منقوشاً على ريشة طائر. لم يمنعه تركيزه من أن يراها.

كانت ابتسامتها تستفز شاعريته: كم أنت جميلة يا امرأة.. كم هي جميلة يداكِ، عيناكِ.. مشيتك! لولاها لاعترف بأن هذا العالم كئيب.. ولولاها لتمرّد.. أراد لحياته لوناً فوجده في حمرة خديها. تمنى أن يكون قاطع طريق، فيأخذ من الورود ألوانها وعطرها ليعطيها لها..

قال معللاً هذه الأمنية:

إن لم توجد عدالة على هذه الأرض، فعلينا أن نحلم بها على الأقل.

أمس مساء، وربما قبل ست سنوات، حين وقع صريع عشقها، سمعها تهمس:

- أتمنى لو أن لحظات اللقاء تطول.. صارت حياتنا جافة قانطة.. لا يملؤها إلا السعار..

وأضافت هامسة:

-لكن العيون تحاصر.. وأنا لا أقوى على مواجهتها..

بحث عن العصفور على الشجرة حيث هاجر قبل قليل، فلم يجده. ربما طار إلى مكان آخر وتركه جالساً وحيداً مع أفكاره في ظلال شجرته لئلا يفسد عليه لحظة اللقاء. حتى العصافير لا تتعاطف معه. كانت المرأة ما تزال تتحدث من هاتفها.

قال متشاغلاً يناجي نفسه:

- ستجيء حتماً... كل من عرفت قبلها في زحام الطرق.. ذهبوا.. لم يبقَ في الذاكرة الّاها..

جمعتهما الصدفة في حفلة.. رقص الحضور.. ورقص

كاتب أردني.

العروسان.. وكانت في الحفلة ترقص مع رفيق لها.. رقصت بوحشية.. تطاير شعرها الطويل على كتفيها، ودقت الأرض بقدميها.. تمايلت.. انثنت..هزت وسطها بعنف ورشاقة.. ضربت الحلبة بقدمها.. رقصت عيناه باندهاش مع عنفوانها..

أخبرها حين صدفها في الصالة بأنّ رقصها كان الأجمل.. والأدفأ..

ابتسمت له.. ابتسامتك قاتلة.. أحس بذلك الوجع الكاوي.. وكانت تلك البداية.

قال في لقائهما الثاني، ولم يكن عفوياً:

لماذا يضرب القدر سهامه يمنة ويسرة دون أن يصيب الهدف؟ وإن أصاب يدمي قلوبنا!

عاد العصفور يتقافز.. نظر اليه وأراد أن يسأله بصوت عال أين ذهب ولماذا عاد.. لماذا ارتكب حماقة العودة.. كان يجب أن يبقى هناك.. في المهجر غريباً مع صديقته «فيونا»، التي فتحت له قلبها على وسعه.. لكنه دائماً تساءل: هل حقاً فعلت؟

انقطع تدفق ذكرياته حين رآها قادمة.. جاءت تحمل صينية قهوة كما تاقت نفسه...

جلست بجواره.. تنسم عطرها يداعب حواسه ويوقظها.. بدت متعبة لكنما جميلة.. تتلفت حولها متوترة.

قال لها مناجياً وهو يتناول قهوته من عينيها:

– ما أبهى إطلالتك.. لولاك لكانت أيامي رتيبة.. وبساتيني التي أسرح بين أشجارها قاحلة!

رنت اليه بنظرة عميقة.. وابتسمت... مدّ يده تمسك بيدها.. سحبتها وهي تتلفت يمنة ويسرة.

وسألها:

– لماذا تأتين إليّ في وقتٍ لم يعد يعودني فيه أحد؟

وأضاف متمهلاً:

– في عزلتي فقدتُ كل شيء.. اكتشفتُ كم أنا وحيد في هذا العالم..

نهضت من مقعدها واقتربت منه.. مدّت يدها ووضعتها على فمه. همست:

–لا.. لا تقل هذا الكلام.. أنت كوكبي الذي أحلق في أجوائه..

قبّل يدها وأمسك بها بحنوّ، وواصل:

– منذ أن فقدت براءتي وأنا أعيش على هامش الزمن.. أتمنى الرحيل من هذا الزمن لولاك تشدينني للبقاء..

لم تجب.. رآها تتلاشى..

مثلما جاءت.. غادرت.. سارت في ممرات الحديقة وابتعدت.. وغادر معها عطرها، ورحيقها، وبحة صوتها المثير.

عاد السكون يبسط نفسه.. كانت المرأة قد أنهت مكالمتها واستكانت. توسطت الشمس كبد السماء وحميت.. اختفى العصفور من على الشجرة.. تلاشى ربما بين الأغصان متوارياً عن الأشعة الحارقة..

نظر حائراً حوله يفتّش عنها.. وتساءل: هل شربنا حقاً القهوة معاً؟

شعر أنه لا بدّ من الخروج.. لا بدّ من مواصلة الحلم وإلا ضاع.. لم يكن في فمه نكهة للقهوة..

نهض متثاقلاً، حمل وحدته.. على حافة زمن فيه ضجر ثقيل ووجوه ضائعة.. وارتحل..

قصــة

حـوض الـسمك

سـحر ملـص

لم أكن يوماً من محبي الأسماك، فأنا أعتبرها مخلوقات غبية تقضي حياتها في الماء تتسكع هناك بلا هدف، بانتظار شبكة صيد تغريها بطعم هزيل فتلاقي حتفها. وكانت رائحتها «الزنخة» تزيد من نفوري منها، فلا أقترب منها إلا في حال وجودي على شاطئ البحر، آنذاك يغلبني حبي للبحر، وأتحوّل إلى مخلوقة خرافية، فأطلب سمكاً طازجاً تم اصطياده للتو، وتتفتح حواسي كلها وأنا أعيش حياة البحر، فتنتشي عيناي برؤية الموج يصطخب، ويسترخي جسدي مستسلماً لرذاذه، وأتنشق الرائحة تعبق بأنفي، ثم أتوّج ذلك بالتهام السمك الطازج الممزوج بكثير من الثوم والليمون،

إلى أن فاجأتني صديقتي يوماً بتقديم حوض من أسماك الزينة لي، فوقفتُ مندهشة أمام روعته برمله الأبيض ونباتاته الخضراء والسمكات الثلاث الملونة التي تسبح بداخله. فرحتُ بالهدية، ولكني فكرت في قطة البيت الشرسة التي لا بد وأن تلتهم الأسماك.

لكن لدهشتي اكتشفت بأن القطة لم تقترب من الأسماك مطلقاً، واكتفت بأن تكون مشاهدة تراقب حركة الأسماك الجميلة وانسيابها، كانت سمكتان منها برتقالية والثالثة فضية اللون تميل إلى الزهري حتى يكاد يشفّ جسدها كاشفاً عن أحشائها.

وصارت متعتي مراقبة الأسماك والعناية بها، فقد اكتشفت بأنها ليست من المخلوقات الغبية على الاطلاق، إذ ما إن أقترب من الحوض حتى تسرع باتجاهي وتصعد إلى السطح بانتظار طعامها، فأذهب إلى الجهة الأخرى من الحوض فتسرع صوبي حتى ألقي لها الطعام، فيبدأ السباق بينها، وكنت أتساءل كيف تقضي حياتها في الماء لا عمل لها سوى أن تفتح فمها وتغلقه، وللحظات أراها تدور حول بعضها كأنها تتحاور أو تلعب أو ترغب بالزواج.

صرت أتخيّل حوض السمك عالمنا، لاسيما أنه يحتوي على بيت صغير أمامه ناعورة الماء، تقف أمام البيت فتاة صغيرة ترنو إلى البعيد، وصرتُ أطوف بخيالي حول هذا العالم، وأتخيل كيف توزَّع الأرزاق على الناس في كل صباح، فاجأني ابني يوما بإحضار سمكة صغيرة زرقاء اللون جميلة جداً لها أجنحه تشبه الفراشة، وسمعته يقول لي: إنها تسمى المقاتلة.

◄ كاتبة أردنية.

ـ ماذا؟ هل يعقل أن تكون بهذا الجمال والروعة وتسمى المقاتلة؟

ـ إنها من أشرس أنواع الأسماك.

ـ ولماذا أتيت بها؟

ـ لأضعها في حوض السمك.

ـ هل تريد أن تعكر صفو الحوض؟

ـ أبداً... إنها لا تقاتل إلا أفراد نوعها، ولذلك يحتفظ بها بائع الأسماك في وعاء مستقل بعيداً عن أقرانها، أما مع الأسماك الأخرى فهي مسالمة.

ترددتُ في البداية في قبولها، ولكن ما إن وضعتها في الحوض حتى ظهر جمالها وفتنتها وهي تحرك زعانفها وذيلها، وازداد حبي لهذا العالم الغريب الذي صرت أجلس أمامه لساعات أتأمله.

في أحد الأيام عدت إلى بيتي، وعندما نظرتُ إلى الحوض كانت السمكة الفضية قد اختفت تماماً، بحثتُ هنا وهناك ولم أجدها، فتشتُ بين الأعشاب ولم أجدها، وبحثتُ خلف مضخة الهواء عبثاً، وبدأت الظنون تراودني حول القطة، لكنّ غطاء الحوض كان محكماً، ولم يكن هناك ما يدلّ على اقترابها منه، إذ على الأقل كنت وجدتُ بعض الماء منسكباً، أو بعضاً من أجزاء السمكة، ولم أجد تفسيراً سوى أن الأسماك الأخرى قد التهمتها، وزاد من يقيني أني رميتُ للأسماك بعض الطعام لكنها لم تتحرك، وراحت السمكتان البرتقاليتان تدوران حول بعضهما وكأنهما في نشوة الفرح أو رقصة الحب والتزاوج، فتملكني الغيظ وبحثت عن السمكة المقاتلة أيضاً، فلم أجدها، وخطر ببالي أن أوقف مضخة الهواء عن الحوض وأتركهما لحتفهما، ولكني تراجعت عن الفكرة وقلت لعلّ إحداهما تكون هي الفاعلة، وبدأت أسأل نفسي: «أتراني لا أضع لهما طعاماً كافياً؟ هل نهشتا السمكة وهي حية؟ وأين اختفت المقاتلة التي خفتُ منها؟».

أسئلة كثيرة حاكت في نفسي، وأعترف بأني نَفَرتُ من الحوض، وفكرتُ بكسره كي ينساب منه الماء وتختنق السمكتان.

كان بي فضول كبير أن أعرف من منهما الجانية، وكنتُ أتأمل كيف تحوّل الحوض إلى مكان للموت والعداء، بعد ما كان دفقة من الحياة.

وبعد أيام لاحظت بأن إحدى السمكتين كانت منتفخة، وثمة شق مثل جرح قرب خياشيمها، ما إن ينزف منه الدم حتى تسرع السمكة الأخرى وتلعق الدم بشكلٍ مقزز، راعني ما شاهدت وأنا أقول في سري: «أعرف أن السمك الكبير يأكل الصغير، أما أن يأكل مثله فتلك معضلة»، وراح الحزن ينهش قلبي بعدما تعكر ماء الحوض وبات بقعه من الفناء والموت، بعدما كان حوضاً رائعاً نابضاً بالحياة زاهياً. تساءلت: «لماذا لا تعيش المخلوقات كلها بودّ ووئام؟»، وعزفتُ عن الاقتراب من الحوض، حتى صحوت يوماً واقتربت من الحوض لأضع لهما بعض الطعام، لكنّ المنظر كان مروعاً؛ كانت السمكتان البرتقاليتان قد التهمت كل واحدة منهما ذيل وبطن الأخرى، ولم يبقَ في الحوض سوى رأسين لسمكتين برتقاليتي اللون بعيون مفتوحة تطفو على السطح، تحدّق بنظرات غريبة، وفي طرف الحوض كانت السمكة الزرقاء تتراقص في الماء غير مبالية بكل ما جرى.

منحة لمدرسة داخلية [1]

للكاتبة التركية فوروزان*

ترجمها عن التركية صفوان الشلبي

– عند خروجك بعيد انتهاء عملك، سنذهب سيراً على الأقدام إلى سوق الحبوب، لنتناول طعام الغداء عند بائع الفطائر ذي طيور الكناري المفضل لدينا. ليكن، ولو مرة واحدة بالعمر. لن يكون شاقاً علينا الذهاب إلى هناك من حي «جال أوغلو» سيراً على الأقدام. أليس كذلك يا ابنتي؟ سنأكل الحلوى أيضاً، إذا ما رغبنا. ثم نعود بالسلامة عبر الجسر.

في الصباح، كانت الأم وابنتها تسيران مسرعتين وسط الزحام. الأم تتحدث بلا انقطاع. ثرثرتها على هذه الشاكلة سبق أن حدثت مرة واحدة في الماضي. كان ذلك يوم تعيينها «مستخدمة»(2) في المستشفى. في ذلك الحين، كانت الطفلة في الصف الثالث. مئزرها كان ملطخاً بالسخام، فالشتاء كان قد أقبل، وابتدأ معه تموين الفحم من عند الفحّام الذي عند الناصية. أجادت إشعال الموقد، تشعل أولاً، العيدان الخشبية، خارج البيت، ثم تركّز فوقها قطع الفحم. وعند نصب المدخنة يتصاعد صوت طقطقة مصحوب بانتشار شرارات صغيرة في الأنحاء. وعندما تحمرّ قطع الفحم وتتأجج النار، كانت تنسى كل شيء، من جلوس في المقاعد الخلفية وتناول وجبات الطعام الممنوحة من قبل الهلال الأحمر إلى حرمانها من إلقاء الشِّعر في المناسبات القومية، فتنتظر أمام باب البيت لحين ذبول زرقة اللهب لتحمل الموقد إلى الداخل ويتلاشى خوفها، ثم تجلس إلى طاولة الجوز القديمة التي كانت من جملة الأشياء العزيزة على أمها. كان منظر الموقد المتأجّج محبّباً إلى قلبها، لكنّ أمها أوصتها بضرورة طمر الجمرات بالرماد لتحتفظ بحرارتها حتى اليوم التالي. لذا كانت تدفن الجمرات البرّاقة الجميلة وتحتفظ بواحدة مكشوفة هي أكثرهن احمراراً وزرقة، لتتابع الموقد بنظراتها أثناء توقفها عن الدراسة بين الفينة والأخرى، فتأنس بتلك الجمرة الوحيدة تشاركها وحشة الغرفة.

شيء ما تغيّر، يوم عُيّنت أمها مستخدمة في المستشفى، إذ دخلت أمها وكانت بحال لم تره أو تعرفه من قبل، تتحدّث وتثرثر بلا انقطاع.

– تمت الموافقة على تعييني. سأباشر العمل خلال يوم أو يومين. قابلتُ رئيسة الممرضات. امرأة ضخمة. لقد سألت عن كل شيء. «هل سبق لكِ واشتغلت؟ متى توفى زوجك؟ هذا عمل شاق، لكنه لا يحتاج لخبرة طويلة، الالتزام واجب، ترتيب الأسرّة، تفريغ أوعية البلغم، مطلوب إجادة تنظيف البطّات(3). قد تجيدين مع الوقت قياس درجة حرارة المرضى. لديك يومي عطلة في الأسبوع، وتعودين مساء الأحد. هل عندك أطفال؟ هل من أحد تتركين عنده طفلتك؟ تقولين إنها قادرة على الاهتمام بشؤونها، لكنها ما زالت صغيرة. هل سبق ورسبت في المدرسة؟ مرحى لها. أنت امرأة شابة وجميلة. توقعي حدوث أي شيء هنا. كوني منضبطة. أريدك أن تخبريني بكل ما يجري. معروف مقولة «ما لم تهز الكلبة

* كاتب ومترجم أردني.

الشرسة ذيلها»(4). لا أسمح بالتزيّن. هل لون وجنتيك وشفتيك هذا، طبيعي؟ لست أدري. ممنوع التودد للأطباء ولا لأحد آخر. من يودّ الاستمرار في عمله عليه إطاعة رؤسائه. هل نومك خفيف؟»

فكّري، أخيراً وجدنا عملاً. سأشتري من راتبي الأول قنطاراً من الفحم وحذاءً مطاطياً لك. قد نذهب خلال عطلتي إلى السينما. كل شيء ممكن. سأؤدي عملي على أكمل وجه كي لا يجد أحد مبرراً للومي. عليّ إخبار صاحبة البيت. يجب أن لا تغلق الباب ليلاً بشدة أثناء أخذ اللبن. أنا امرأة عاملة... ونومي خفيف... لقد اعتدت منذ سنوات على النوم المتقطع!

ما إن باشرت الأم عملها حتى شرعت تردّد «عملنا في مستشفانا تلك». في الليلة التي سبقت مباشرتها العمل، اشترتا حلاوة طحينية من البقال. خلطتا الجبن بالدبس، وفرشتا الطاولة بالمفرش ذي الأزهار الزرقاء. هذا المفرش بقي من أيام حياة والدها، ذكرى من أيام السعادة والإحساس بالأمان. لماذا اعتقدتا أن والدها سيعيش للأبد؟ لم يبدُ أنه سيموت يوماً. كان رجلاً مستقيماً وحازماً، خطفته يد المنون دون سابق إنذار. المنزل من دون رجل تُنتظر عودته مساءً متأبطاً خبزاً، يبعث إحساساً بالوحدة وفراغ موحش يملأ أرجاء البيت. «لم يكن مسناً» قالت أمها. كيف لطفلة في الثامنة من عمرها أن تعيش من دون أب؟ مسحت الأم المفرش مرتين دون مبرّر. الدبس لم يخفِ صوت قطع الجبن في الصحن، وسكّر الحلاوة الطحينية تراخى وتبلور.

– تحدثتُ مع صاحبة البيت. لا تخافي مطلقاً. أغلقي ليلاً باب البيت بإحكام، ونامي. عندما تقوم لصلاة الفجر، ستطرق الباب لتوقظك. قلت لها «هي طفلة، ونوم الأطفال عميق. لا تستيقظ من تلقاء نفسها». كلي، كل صباح، خبزاً وحلاوة. أنت لا تحبين الشاي. تقولين تحترق أصابعي. عندما تعودين من المدرسة، أشعلي الموقد وتدفئي. غطّ النار ليلاً بغطاء الموقد. ها يا ابنتي، حذار! لا تنسي. لا تُقلقيني عليك. أنتِ بنت عاقلة. لا تخافي ليلاً. أنتِ لستِ وحدك، كما أنكِ لستِ خوّافة. ترقبي ما سأحضره لكِ. يقدمون طعاماً خاصاً لشديدي المرض. يفيض عنهم دجاج مسلوق. سأحتفظ به، ليس ذلك بممنوع ماداموا سيتخلصون منه. سنولم وليمة لأنفسنا.

– أنا، لا أريد من ذاك الطعام يا أمي. لكن حدثيني عن تلك السيدة التي قالت: «يجب إجادة تنظيف البطّ» وعن بطّاتها.

صمتت الأم. تراجعت عن قولٍ كاد يخرج من بين شفتيها.

عند دخولهما الفراش ليلاً، إذ كانتا تنامان في الفراش نفسه منذ أمد بعيد، كانت قد نسيت أنّ أحد دروس الغد هو درس التربية الرياضية. على أيّ حال، فهي لم تكن تشارك بدروس التربية الرياضية. كمثيلاتها غير المشاركات، كنّ ينتظرن في الممرات أو في الطابق الأرضي ذي الساحة السماوية، يستمعن لصوت صنابير المياه، أما في الشتاء، فكنّ يتابعن في الظلمة أبنية المدينة من خلف الزجاج.

– يلزمكنّ قميص كتاني أبيض وبنطال قصير وحذاءٌ رياضيٌ وجوربٌ أبيض. يستحسن توفر قطعتين اثنتين من لوازم الرياضة تلك، لاستبدالها عند التعرق. يجب أن تكنّ جميعكن كالزهرة النضرة، نظافة وأناقة، وذلك أثناء مسيرتَيّ 23 نيسان و29 تشرين الأول(5). لمَ لا نقدر، ما دمنا نريد، فالإرادة أساس النجاح. الجمعيات الخيرية تعنى بشؤون أطفالنا. لكنّ الأولوية للألبسة الأشد احتياجاً. سيشاركن بالمئزر. مئزر مكوي جيداً. الفتيات بأشرطة قماشية. يجب عليكنّ جميعاً أن تكنّ نظيفات جداً. النظافة الشخصية واجب

كل طفلة تركية. ماذا كنت أقول لكنّ؟ يجب تنظيف الأسنان يومياً. لا أريد رؤية أُفٍ أصفر يسيل من الآذان، كما لا أسمح بالتمارض، ستنلن عقوبة.

سبب عدم إغلاق صنابير المياه في الطابق الأرضي غير معروف. كانت الطالبات يتحلقن بين الحصص عند صنابير المياه. العطاش وغير العطاش كنّ يشربن متدافعات. وبينما كنّ يرشفن الماء بأكفهن، تسيل المياه داخل أردانهن. كما كان الصياح من ضرورات المرح في الحديقة.

احتضنت ظهر أمها. «سأفعل كل ما تقولين يا أمي، لاتبتئسي. كالعادة، فأنا أتناول طعام الغداء في المدرسة. لا تقلقي ولا تشغلي بالك بأمري». لم تحرّك أمها ساكناً. لكنه كان بادياً عدم نومها، فجسدها لم يكن مرتخياً. التصقت بظهر أمها لتشعر بدفء رائحتها. أصخت لهدوء الليل مدة طويلة. لم تشعر برغبة بالنوم. بدأت ولأول مرة تشعر بطول الليل.

استيقظت صباحاً على صوت قرع الباب. لم تكن أمها موجودة. كان مئزرها المدرسي ورداؤها الصوفي وجوربها السميك مرتبين فوق الكرسي. نهضت من فراشها بعدما أدركت أنّ قرع الباب كان لإيقاظها. «أنا خالدة يا خالة»، صاحت قائلة. كانت صاحبة البيت تصبّ الماء من الدلو في دورة المياه. كنّ يستخدمن دورة المياه نفسها. ارتدت ملابسها وجلست إلى الطاولة. كان ضوء الصباح الشتويّ يتسلل من طرف الستارة ناشراً الإحساس بالبرودة. حملت حقيبة المدرسة وهمّت بالخروج على الرغم من عدم تناولها الطعام هذا الصباح، لكنها رجعت وجلست على الكرسي، ثم شرعت دموعها بالانهمار بصمت.

– لقد أنهيتِ الدراسة بتقدير جيد جداً. ليس سهلاً أن ينهي الأطفال المعوزون المرحلة الابتدائية بتقدير جيد جداً. يتم إعفاؤكم من رسوم المنامة الداخلية في المدارس. هذا ما قيل لي. أثناء إخراجي لشهادة إثبات عوز لدى المختار، امرأة لا أعرفها قالت لي: «أنا أيضاً أريد تسجيل ابني في المدرسة العسكرية، لكن قيل لي إنّ الموافقة مشروطة بوجود كفيل أو تقديم وثيقة رهن عقار، وها أنا قد أُسقط في يدي يا سيدتي». من نحن؟ وعن أي عقار يتحدثون؟ لو كنا نملك عقاراً، ما كنا لنريق ماء وجهنا على عتبات الآخرين. لن يحصل هذا لنا. تلك المرأة تجهل الأنظمة. أخذتُ شهادة العوز وخرجت. لم أستفسر من أحد. المدارس العسكرية مكلفة. لا سلاح ولا ألبسة عسكرية، أليس كذلك؟ لم استفسر يا مهجتي. لا حاجة لذلك. يكفي أن تشاركي اليوم بالامتحان وستجيبين بكل طلاقة عن جميع الأسئلة. من المؤكد أنّ آلاف الطلبة سيشاركون اليوم، وقد يُقبل منهم من مئة إلى مئة وخمسين طالباً. لكنكِ ستنجحين، أنا واثقة من ابنتي العاقلة الذكية. إذا ما طُلب رهن أو أي شيء من هذا القبيل، سيكون ردّي أن لا حاجة لذلك، فابنتي لن ترسب في الصف، ولن تهدر مال الدولة سدى. سأوضح الأمور بالتفصيل لمدير المدرسة. من المؤكد أنه سيتفهّم وضعنا، فهو يا مهجتي إنسان يملك مشاعر مثلنا. «ابنتي تستيقظ كل صباح منذ سنوات وحدها». هذا ما سأقوله. «لم يصدف أن اشتكت أو تذمرت مطلقاً». كما سأقول أيضاً: «لم تتصرف كطفلة مطلقاً».

أثناء صعودهم المنحدر، بدأ المطر بالهطول على رزم الورق المحمولة على ظهور الحمالين. كان ذلك مطر حزيران الخفيف. انتظرت البنت وأمها أن يوقف رجل الشرطة حركة السير ريثما تعبران إلى الجهة المقابلة. ازداد هطول المطر. كانتا في أحسن هندام لديهما. الأم قد عقدت وشاحاً حريرياً حول عنقها، والفتاة قد عقصت شعرها بملقط شعر مرصّع بالخرز.

– هل أنتِ خائفة؟ لم تنبسي ببنت شفة منذ الصباح. لا

بأس عليكِ. سأشتري لكِ ملقط شعر آخر مرصّعاً بالخرز من سوق الثلاثاء(6). سيتم تعيينُنا عندما تنهين دراستك وتصبحين معلمة. سأتوقف عن العمل في المستشفى. سنخرج للنزهة معاً. سنشتري أرائك، وأخيط لها أغطية من قماش مزخرف بالزهور. عندما نُقبل، سأُعدّ، إن لم أكن قد نسيت، كعكاً بالأنيسون تكريماً للضيوف المهنئين. قد نشتري سجادة صغيرة. سأرتاح من تنظيف قاذورات المرضى ومسح الممرات، وسأتخلص من رائحة المعقمات الخانقة التي تزكم الأنوف. كما سأتحرر من التفكير الدائم بالموت. ليتنا نملك مكاناً عند سفح جبل يا ابنتي. الجميع يرغب بالبقاء في استانبول.

استفسرتُ واستعلمتُ جيداً من جميع أصحاب المعرفة. تعيينك أكيد. ماذا سنفعل في استانبول؟ نحتاج إلى بيت وفحم في الشتاء. وسيكون لنا مطبخنا الخاص، أليس كذلك؟ وإذا ما سُئلنا عن كفيل؟ وإن كنت أشك في ذلك، المرأة غير محقة في ما زعمت، كما أنها لا تثق بابنها. لم أستعلم سوى عن أنكِ ستصبحين معلمة. سنذهب حيثما مكان تعيينكِ، أليس كذلك؟

– هل جميع من سيُقبل في هذه المدرسة هم مثلي من الأطفال المعوزين يا أمي؟ هل تأكدتِ من ذلك؟

– هو هكذا، الامتحان فقط للأطفال المعوزين لتقديم منحة لهم وإعفائهم من رسوم المنامة الداخلية.

– إذن سأفوز بذلك. لا تبتئسي. سأتخرج بتقدير جيد جداً. كما سيكون لي أصدقاء هنا. أنتِ ستخرجين يومين في الأسبوع من المستشفى، وأنا من المدرسة، ونعود معاً إلى البيت. سأشتري لكِ، في أيام استقبال الضيوف، كعكاً من عند البقال.

وصلنا إلى الجهة المقابلة للمدرسة حيث سيعقد الامتحان.

اجتازتا بحذر الشارع الرئيس مرة أخرى، ثم سارتا في شارع جانبي، حتى توقفتا أمام بابٍ لسور مرتفع، هو باب جانبي لدخول الطلاب إلى المدرسة. صوت جلبة يصدر من الداخل. الأعشاب النامية بين حجارة السور تلمع بفعل المطر.

– يبدو أن هناك من سبقنا بالحضور مبكراً. أخشى أننا قد تأخرنا؟

تقدمت امرأة، ترتدي زي المستخدمين نحوهما عبر ممر حجري. بدت واهنة وأنظارها نحوهما شاردة.

سألت الأم باحترام:

– هل تأخرنا ياترى؟ يبدو أن معظم الأطفال قد وصلوا.

المرأة المستخدمة من دون اكتراث:

– دائماً يصل الأطفال المتقدمون لامتحان منح المدارس الداخلية مبكرين. لا يتأخرون أبداً.

انفصلت البنت مبتعدة عن أمها، ومضت تسير عبر ممر حجري محاذٍ للسور. خطت المرأة إلى ركنها وجلست على كرسي وشرعت بحياكة الصوف.

عند الانعطاف حول المبنى نظرت الفتاة خلفها. بدت الأم مبتسمة وهي تقف تحت المطر عند الباب الخارجي.

* * *

* ولدت في استانبول عام 1935. توفي والدها الحرفي وهي صغيرة السن. لم تنهِ سوى تعليمها الابتدائي لضيق حال اليد فحيل بينها وبين إكمال دراستها، لكنها ثقفت نفسها إذ كانت تهوى المطالعة منذ نعومة أظفارها، كما تعلمت اللغة الألمانية أثناء إقامتها في برلين وأجادتها وكتبت بها. عملت على خشبة المسرح لفترة قصيرة. بدأت مسيرتها الأدبية عام 1956 بنشر

قصص قصيرة في المجلات الأدبية التركية المختلفة. قدّمت أعمالاً عدة في مجال القصة القصيرة والرواية والمسرح والشعر والرحلات. كما أعادت بناء العديد من أعمالها لتعرض على خشبة المسرح والسينما والتلفزيون، وقد حصد فيلمها المأخوذ عن قصة لها بعنوان «حياتي فيلم سينمائي» جوائز عدة في مهرجان كان وطوكيو للسينما، وتُرجم العديد من أعمالها إلى لغات عدة. نالت عام 1972 جائزة «سعيد فائق للقصة القصيرة» عن أول كتاب نشر لها عام 1971 بعنوان «منحة لمدرسة داخلية». نالت عام 1974 جائزة «المجمع اللغوي التركي للرواية» عن روايتها «جيل السابعة والأربعين».

* * *

ملاحظات من المترجم:

1- بعد قيام الجمهورية، ونظراً لعدم توفر إمكانية فتح مدارس ثانوية في جميع البلدات لاتساع رقعة الدولة التركية، أنشأت الحكومة مدارس داخلية في مراكز المناطق، وتشجيعاً للأطفال المعوزين المبرزين، كانت تقدم منحاً لهؤلاء الأطفال للالتحاق بالتعليم الثانوي بالمنافسة من خلال امتحان يعقد سنوياً لهذه الغاية.

2- أوردت الكاتبة هنا كلمة ممرضة وليس مستخدمة وإن كان سياق القصة يظهر أنها لم تكن ممرضة، ربما أرادت الكاتبة أن ذلك كان من وحي الطفلة بطلة القصة.

3- كلمة ördek باللغة التركية تعني «بطة» كما تعني أيضاً الأصيص أو المبولة، وقد تطلبت ترجمة النص الاحتفاظ بالمعنى الأصلي لضرورة سياق القصة، إذ إنّ الأم لا تريد كشف عملها في المستشفى لابنتها.

4- هناك مثل تركي لم ترد الكاتبة أن تورده كاملاً بالنص، ولكن حتى يفهم القارئ العربي ما المقصود لا بد من ذكر مضمونه والذي يعني أن الرجل لا يمكنه الاقتراب من الكلبة الشرسة ما لم تهز ذيلها، أما الكلبة الشرسة بالعامية التركية فتعني البغي.

5- عيد السيادة الوطنية والطفولة وعيد إعلان الجمهورية التركية.

6- ساليتشارشي أو سوق الثلاثاء كان سوقاً مؤقتاً ينظم كل ثلاثاء، ثم أصبح سوقاً دائماً وحياً مشهوراً من أحياء مدينة استانبول القديمة.



لوحة للفنان التشكيلي د. راتب شعبان

بعد عشرين عاماً

تأليف: أو. هنري*

ترجمة: حسام حسني بدار

الطريقة التي كان يذرع بها رجل الشرطة الشارع جيئة وذهاباً أثناء نوبة حراسته كانت تدعو إلى الإعجاب. كان فعْله هذا اعتيادياً، ولم يكن بقصد الاستعراض أمام المتفرجين الذين لم يكن منهم في تلك الليلة الباردة سوى النزر اليسير. الوقت كاد أنْ يبلغ العاشرة، لكنّ عصفات الريح الباردة أفرغت الشوارع تقريباً من مرتاديها.

كان الشرطي ببنيته القوية، وبمسحة الكبرياء التي تعلو محياه -وبما يقوم به من حركات صعبة وبارعة بهراوته، وبنظراته اليقظة التي يلقيها باتجاه الطريق العام الهادئ- صورة رائعة لحارس الأمن. بين الحين والآخر كان يمكن لك أنْ ترى أضواء لمتجر يبيع السيجار أو لمطعم يعمل طوال الليل، لكن معظم المحلات التجارية في منطقته كانت تغلق أبوابها في وقت مبكر.

في منتصف إحدى الطرقات أبطأ الشرطيّ خطوه فجأة، ودنا من شخص يتكئ على مدخل متجر معتم لبيع الخردوات وبفمه سيجار غير مُشعَل.



الكاتب الأميركي أو. هنري

* كاتب ومترجم أردني.

«كلّ شيء على ما يرام أيها الضابط»، قال الرجل بلهجة يقصد بها طمأنة الشرطي. «كلّ ما هنالك أنني بانتظار صديق لي ضربتُ معه موعداً قبل عشرين عاماً. قد يبدو هذا غريباً بالنسبة لك، أليس كذلك؟»، وتابع: «إنْ أردتَ سأوضح الأمر حتى أبيّن لك أنه لا داعي للقلق. في ذلك الوقت كان مكان هذا المتجر بالذات مطعماً – مطعم (جو بريدي الكبير)».

«لقد أزيل منذ خمس سنوات مضت»، قال الشرطي.

أشعل الرجل الواقف بباب المتجر سيجاره، فكشف الضوء عن وجه شاحب وفكّين مربّعين وعينين حادّتين وندبة بيضاء صغيرة قرب حاجبه الأيمن. وكان يثبّت ربطة عنقه بطريقة غريبة بدبوس تعلوه جوهرة كبيرة.

«قبل عشرين عاماً بالتمام والكمال تعشّيتُ هنا في (جو الكبير) مع جيمي ويلز أفضل أصدقائي وألطف الفتيان على الإطلاق. لقد نشأنا هو وأنا هنا في نيويورك، كأخوين تماماً»، ثم تابع: «كنتُ في الثامنة عشرة وكان جيمي في العشرين عندما اعتزمتُ السفر إلى الغرب بحثاً عن الثروة والنجاح. أما جيمي فلم يكن ليبتعد عن نيويورك بأيّ حال، فقد كان يظنّ بأنها المكان الوحيد على وجه الأرض. واتفقنا أنْ نجتمع ثانية بعد عشرين عاماً من ذلك التاريخ وتلك الساعة، مهما كانت أحوالنا ومهما بعدت المسافة بيننا. وكنا نتوقع أنه بعد تلك الأعوام العشرين سيكون مصيرنا قد تحدّد وحظّنا قد تبلور، مهما كان ذلك المصير وذلك الحظ».

«تبدو قصتك مشوّقة»، قال الشرطي. «لكنّ المدّة بين اللقائين تبدو طويلة بالنسبة لي. ألم تتلقّ شيئاً من صديقك منذ أنْ رحلت؟».

«بلى! لقد تراسلنا لعام أو اثنين، لكننا بعدئذ فقدنا أثر بعضنا بعضاً. كما تعرف فإنّ الغرب مشروع كبير، وأنا هناك ظللتُ أشقّ طريقي طولاً وعرضاً بكل نشاط. لكنني أعرف بأنّ جيمي سيقابلني هنا إنْ كان حيّاً، لأنه كان دائماً أصدق الفتيان في هذه المعمورة. إنه لن ينسى أبداً. لقد قطعتُ آلاف الأميال لأقف بهذا الباب هذه الليلة، وهذا يستحق العناء لو ظهر صديقي القديم».

نظر الرجل المنتظِر إلى ساعته الأنيقة المرصّعة بجواهر صغيرة، وقال:

– العاشرة إلا ثلاث دقائق. لقد كانت العاشرة تماماً عندما افترقنا هنا، عند باب المطعم.

– لقد حققتَ نجاحاً طيباً في الغرب، أليس كذلك؟

– بإمكانك أنْ تراهن على ذلك. أتمنّى أنْ يكون جيمي قد حقّق نصف نجاحي. إنه فتى طيب. العمل في نيويورك يتسم بالروتينية، أما في الغرب فعليك أنْ تكون على قدْر المنافسة.

حرّك الشرطيّ هراوته بشكل دائريّ وخطا خطوة أو اثنتين، وقال:

– سأمضي في طريقي الآن. آمل أنْ يأتي صديقك إليك. هل ستعدّ عليه الوقت بالدقيقة؟

– لا، لن أفعل ذلك. سأعطيه نصف ساعة أخرى على الأقل. وإنْ كان جيمي حيّاً سيكون هنا قبل انتهاء هذه المهلة. وداعاً أيها الضابط.

«طابت ليلتك يا سيدي»، قالها الشرطي وهو يمضي لمتابعة نوبة حراسته.

أخذ الرذاذ البارد يتساقط، واشتدّ هبوب الريح، وأسرع المشاة خطوهم وقد رفعوا ياقات معاطفهم ووضعوا أيديهم في جيوبهم. أما الرجل الواقف بباب مخزن الخردوات –والذي قطع آلاف الأميال لملاقاة صديقه– فكان يدخّن سيجاره وينتظر.

بعد نحو عشرين دقيقة ظهر رجل طويل يرتدي معطفاً ويرفع ياقته حتى أذنيه. عبر الرجل من الجانب الآخر واتجه إلى الرجل المنتظِر.

«هل هذا أنت يا بوب؟»، سأله بتشكك.

«هل هذا أنت يا جيمي؟»، صاح الرجل الواقف بالباب.

«يا لسعادتي!»، قال الرجل الذي وصل توّاً، وهو يمسك بيديّ الرجل الآخر.

– عشرون عاماً لَوقت طويل، يا بوب. لقد اختفى المطعم القديم. ليته كان موجوداً حتى نتناول عشاء

آخر فيه. كيف كان الغرب معك أيها العجوز؟»

– في غاية العطاء. لقد تغيرتَ كثيراً يا جيمي. تبدو أطول مما أعرفك ببوصتين أو ثلاثاً.

– نعم، لقد نَمَوْتُ قليلاً بعد أنْ بلغت العشرين.

– هل نجحتَ في نيويورك يا جيمي؟

– إلى حدّ ما، إنني أشغل وظيفة في إحدى دوائر المدينة. هيا بنا يا بوب نذهب إلى مكان أعرفه لنتحدث عن الأيام الخوالي.

سار الرجلان، وقد تأبّط كل منهما ذراع الآخر. كان الرجل القادم من الغرب، وقد ازداد لديه الإحساس بذاته، بفعل ما حققه من نجاح، قد بدأ بالحديث عن إنجازاته. أما الرجل المختفي تحت معطفه فكان ينصتُ باهتمام.

عند منعطف الطريق كان هناك مخزن تشعّ منه الأضواء. ولمّا وصلا إليه التفت كل منهما إلى الآخر ليتأمل وجهه. وتوقف الرجل القادم من الغرب فجأة وأفلت ذراعه، وقال بتوتّر:

– أنت لست جيمي ويلز. إنّ عشرين عاماً لَمدّة طويلة، ولكنها ليست كافية لتغيّر أنف رجل من روماني إلى أفطس.

«إنها أحياناً كافية لتحوّل الرجل الطيب إلى رجل شرير. إنك قيد الاعتقال منذ عشر دقائق يا بوب». وتابع قائلاً: «شرطة شيكاغو يعتقدون أنك قد تقع في طريقنا، وأبرقوا لنا بأنهم يريدون تبادل حديث قصير معك. ستأتي معي بهدوء، أليس كذلك؟ عين العقل. والآن قبل أن نتوجه إلى مخفر الشرطة إليك هذه الرسالة التي طلب مني رجل الدورية جيمي ويلز أنْ أسلمها لك».

فضّ الرجل القادم من الغرب قطعة الورق التي سُلّمت إليه. كانت يده ثابته عندما بدأ قراءة الرسالة، ولكنها ارتجفت قليلاً قبيل انتهائه منها.

نصّ الرسالة، القصيرة نوعاً ما، كان يقول:

(يا بوب: لقد حضرت إلى المكان المحدّد في الوقت المحدّد. وعندما أشعلتَ سيجارك أدركتُ أنّ الوجه الذي أنظر إليه إنما هو لرجل مطلوب القبض عليه من قِبل شرطة شيكاغو. لكنني لسبب أو لآخر لم أستطع أنْ أقوم بذلك بنفسي، لذلك فقد تركتك وكلفتُ شرطياً بلباسٍ مدنيّ أنْ يقوم بذلك).

– عنوان هذه القصة بالإنجليزية « After Twenty Years»، وهي مأخوذة من موقع:

www.readbookonline.net

* أو. هنري هو الاسم المستعار للكاتب الأمريكي ويليام سدني بورتر، وهو من أبرز كتّاب القصة القصيرة.

مقدمة:

الشيخ المعلم عبد الكريم غرايبة: سلامٌ عليك..

تحتفي مجلة أفكار بالشيخ المعلم عبد الكريم غرايبة الذي فجعنا برحيله في الثاني والعشرين من شباط 2014، وهي بذلك تحتفي بشخصية فذّة ليس من السهل أن تتكرر، وعلّامة مُجدّ مُخلص، وطموح، ليس باتجاه المناصب الفانية، ولكن تجاه ما هو باقٍ وراسخ ومؤثّر. جُلّ طموحه أن يتكرّس له اللقب «الشيخ المعلّم»، وكان له ذلك.

ليس من السهل أن نختزل قامة علمية وفكرية في صفحات، لكننا في هذا الملف نسلّط الضوء على جوانب من حياة وفكر وشخصية الشيخ المعلم، عبر شهادات ومقالات بأقلام محبّيه ومريديه وطلابه وزملائه، تتفق جميعاً على ريادة غرايبة وصفاته ورؤاه.

في هذا الملف، شهادة بعنوان «أكثر من شقيق»، وفيها يحدّثنا د.فيصل غرايبة عن أبرز سمات الراحل: التواضع، الزهد في المناصب، السعي إلى المعلومة وتحرّي الحقيقة، والركون إلى المصادر الأساسية، حيث عُرف عن عبد الكريم كباحث أنه لا يركن في معلوماته وبياناته إلا إلى مصادرها الأساسية، وهو لا يستمدّها من المؤلفات والكتب المتوفرة، وكان ينصح طلبته بفعل ذلك. ويورد الدكتور فيصل مفارقات غريبة ومستهجنة، لها صلة بعمل الراحل في الجامعة الأردنية. كذلك، يبيّن لنا د. فيصل موقف الراحل من التعامل مع الإطار العشائري والأسري، ويسلّط الضوء على صفات شيخنا الشخصيّة وأساليب معيشتهِ الخاصة.

أما السيدة نانسي باكير، فتقدّم لنا رؤيتها للشيخ المعلم كما عرفَتْهُ، تقول: «كان معلّمنا إنساناً بسيطاً متواضعاً في موقف ما، وعنيداً وشجاعاً وصريحاً وبعيداً عن المجاملة في مواقف أخرى، وخاصة عندما تتعلق بمصير الأردن ومصالحه، والقضية الفلسطينية وشرعيتها، والعالم العربي وأمنه». وتضيف: «ذهب شيخ المؤرخين إلى دار الحق وترك لنا إرثاً حقيقياً خالداً، وبخاصة لطلبة العلم وللباحثين والجامعات، وكذلك منهجاً وطريقة مبتكرة، وأرشيفاً أصيلاً لمن سيحمل إرثه وعلمه المتمثل في مؤلفاته».

وفي الملف، أيضاً، شهادة للدكتور خالد الكركي، لا تخفى فيها مشاعر الحزن والفَخر؛ الحزن على حال الأمة ورحيل الشيخ المعلم، وفي الوقت نفسه يفتخر د. الكركي بشيخنا من حيث مُنجزه ورؤاه، ويذكّرنا باقتراح غرايبة أن يكون هناك شعارٌ للقدس يحمله كلّ مؤمن مسلم أو مسيحيّ حتى لا ننسى... ويظلّ معلّقاً على الصدور حتى تؤذّن مساجدها بالحرية من جديد. يقول د.خالد: «أسجّل هنا أنكَ خير من أدرك سلطة المعرفة وجعلها الأولى، وما من نضال من أجل التنوير، وحماية الوطن، يكون خارج إنجاز هذه السلطة لدى الناس، وهي معرفة مسكونة بالحريّة، ومعطّرة بالمساواة والعدل واحترام كرامة الإنسان».

أما د.رؤوف أبو جابر، وفي حديثه عن ذكرياته المديدة مع غرايبة، يجعلنا نشعر أننا أمام وثيقة هامّة تؤرّخ للأحداث السياسية ونمط الحياة الاجتماعية وصورة البلدات العربية عمّان، دمشق، بيروت، وتشعر أنك أمام شريط سينمائيّ بدأت أحداثه في 1942، بل وأقدم.

ينوّه د.أبو جابر بالطبيعة الريادية التي اكتنفت نشاط شيخنا، فقد كان أوّل من وجّه النظر إلى أهمية دراسة الوثائق العثمانية بالنسبة للتاريخ العربي، وأوّل من استخدم السجلات الشرعية في أطروحة الدكتوراه، وكان له شرف تأسيس مؤتمر بلاد الشام كمشروع علمي قومي تُشرف عليه الجامعة الأردنية بالاشتراك مع جامعة دمشق منذ نيسان في العام 1974، وغيرها.

ويقول د.علي محافظة: بين معلمي الذين علموني، يحتلّ عبد الكريم غرايبة مكانة خاصة. فهو فريد في طبعه وسلوكه مع الطلبة، وفي طريقة تدريسه، وفي مؤلفاته التاريخية، وفي أسلوب نقاشه وجدله... ذاكرته مخازن واسعة للأحداث والسنين والأيام والذكريات والمواقف، وهي قلّما تخونه. أما مؤلفاته في كتابة تاريخ العرب الحديث، فجاءت مختلفة في فحواها ومعالجتها للقضايا والأحداث عن المؤلفات العادية للمؤرخين المعاصرين له. وأما طرقه في التدريس فمتعددة ومتباينة، فيها إثارة وتشويق وحب استطلاع، يعلّم طلابه عملياً على نقد النصوص وتحليلها تحليلاً علمياً. كما يتناول د. محافظة علاقة عبد الكريم بتلاميذه وزملائه، وأداءه الإداريّ.

أما د. أحمد ماضي فيقول: كنا، أنا وآخرون من الأساتذة، نحرص أشد الحرص على أنْ نؤمّ المجلس الذي يكون فيه. كان إنساناً فريداً في شخصيته، يجذبك في آراءه، وفي فهمه الخاص للتاريخ.. كان الشيخ المعلم كبيراً في معاملة الدكاترة والموظفين، داخل الكلية، وخارج أسوار الجامعة، وحريصاً أشد الحرص على سمعة الكلية، وكأنها كليته، وليست إحدى كليات الجامعة. وفي ضوء هذه المعاملة لم يكن يتوانى عن إسداء المساعدة «لرعيته»، مهما تكن. لقد كان راعياً لهم، بحق وحقيق.

وتناول د.جورج فريد طريف في مقاله ميلاد ونشأة الراحل، وحياته العلمية والعملية، ورؤيته للتعليم الجامعي، ومواقف تتسم بالطرافة أطلق عليها نوادر و«نهفات» د. الغرايبة.. ويذكر د.طريف أنّ عبد الكريم غرايبة، أثناء دراسته العليا في بريطانيا، كان حريصاً على متابعة التطورات في الأردن، وتظهر شدة انتمائه ووطنيته من خلال الشكوى التي تقدَّم بها في فترة دراسته في لندن، وتحديداً في العام 1948، ضدّ كلوب باشا، حيث قام بإرسال رسالة إلى رئيس وزراء بريطانيا آنذاك «كليمنت أتلي» وطالبهُ فيها بإخراج كلوب باشا من الأردن.

د.عبد الله العساف؛ أحد تلاميذ الشيخ المعلم، وفي حديثه حول شخصية معلمه يقول: كان يملك طبيعة استثنائية وفريدة متناغمة مع نفسه.. صنعَتْ له حالة مستمرة من التصالح مع الذات ومع العالم.. وقَفَ حياته على شخصية لا تُجيد الكثير من البروتوكولات الرتيبة المعروفة، التي اعتاد عليها الكثيرون.. ويضيف: أكثر ما استيقن في أذهاننا من الشيخ المعلّم مسألتان تخصّان التاريخ قراءةً وكتابةً وتدريساً. الأولى أنْ لا نقف أمام المصادر والروايات والحوادث التاريخية نظرة مُستسلمة سلبية، متيقنة من أنّ ما نقرأه هو الحقيقة بتمامها.. وأمّا الثانية، حرصه أنْ نُمسك بمفاتيح الأسئلة الصحيحة، ونقبِض على الطرائق المنهجية السليمة في دراسة التاريخ، لأنها الأساس الموضوعي في تعلم التاريخ وكتابته.

الأديب هاشم غرايبة، قدّم شهادة عن الشيخ المعلم، تضمّنت أحاديث وأقوال تخلّلت الزيارات والجلسات التي جمعتهما، وفيها تفاصيل يُسجّل لهاشم توثيقه لها. يقول هاشم: «رغم أن الجسد يشي بالتسعين حولاً، فإنّ الروح بكامل زينتها». ويضيف: إنه الشيخ المعلم، يُحبّ استعمال هذه الصيغة المستمدّة من التراث، ويراها أكثر دلالة وأعمق أثراً من المسمّيات الأكاديمية الحديثة. وينقل لنا هاشم آراء الشيخ ووجهة نظره في مواضيع عديدة منها: دراسة التاريخ وتدريسه، شباب اليوم، وآرائه في الإرهاب والعولمة.

أما الأديبة سميحة خريس، فتقول في الشيخ المعلم: على الصعيد الإنساني كانت روحه خفيفة فيها ظُرف محبّب، وهمّته عالية، واستعداده غريب في تقبُّل اختلافات الناس وإشكالياتهم رغم تقدُّم سنّه، كما يصيبك بالدهشة لفرط إقباله على جيل يفصله عنه

عقود من الزمان، فقد حرص على إقامة علاقات اجتماعية يدعو فيها طلبته إلى الغداء أو العشاء، وواصل الشبان والشابات كما واصل الأساتذة الكهول محافظاً على علاقاته الطيبة مع أبناء جيله.

عن الجانب الرومانسي في حياة عبد الكريم، واحترامه للمرأة، كتبت سوسن غرايبة، عن علاقتها بعمّها عبد الكريم منذ كانت طفلة، حيث رسم لها صورة متطوّرة ومتحرّرة للتعامل مع المرأة؛ وخاصة علاقته بزوجته «بيهمان العنبري». تورد سوسن مواقف تشهد على احترام عبد الكريم للمرأة والتشارك الحقيقي معها، ومواقف تشي بمدى رقّة ووفاء وإنسانية ورقيّ الراحل، وعن حبّه للطبيعة والحديقة والزهور والشجر، ناهيك عن تسمية شوارع اللويبدة بأسماء الشعراء الأقرب إلى قلبه مثل المتبني وإبراهيم طوقان.

أما المخرج فيصل الزعبي، فيقول: أنجزتُ خمسين فيلماً عن سيَر مبدعين أردنيين.. لكني في فيلم هذا الرجل وقعتُ بين حيرتين: حيرة السيرة، وحيرة الأفكار، وارتبك السيناريو بين فوضاه على أرض شقّته.. وترتيب ذهنيّ متقد... لن أكون شارحاً لهذا الرجل.. البسيط الممتنع.. الطفل الشقي.. الحكيم الودود.. فما يجب أن يُقال صنعته بفيلمين عن صرح ينتظر التتويج..

عن الإرث العلمي والتاريخي الذي تركه الشيخ المعلّم، يخبرنا د.عبد المجيد الشنّاق أنّ غرايبة اهتمّ بتأسيس هيئة علمية بحثية تاريخية تُعنى بإصدار الوثائق والمعلومات التي تمكّنَ من جمعها منذ العام 1948، وهي تزيد على عشرات الآلاف من الوثائق والمتضمّنة معلومات في محاور كثيرة ومتعددة. ويضيف الشنّاق إنّ جامعة العلوم الإسلامية العالمية تبنّت مشروع عبد الكريم غرايبة، واهتمَّت اهتماماً كبيراً بالشيخ المُعلّم ومشروعه الثقافي الريادي والأول في الوطن العربي؛ مشروع «إنارات فريدة» تحت اسم وقفيّة عبد الكريم غرايبة. وهذا المشروع كما وضّح الدكتور الشناق، يقع في جزأين: الأول يتحدّث عن الأردن، والثاني عن الوطن العربي وباقي دول العالم. أصرَ عبد الكريم على أن توضع المعلومات نفسها التي يتضمنها الكتاب على موقع إلكتروني، وجعلها سهلة المنال للقاصدين من طلاب وباحثين.

وفي هذا الملف دراسة في فِكْرُ الشَّيخ المعلّم، يتناول فيها د. المهدي الرواضية شواهد دالّة على جوانب محدَّدة من فِكْر الشَّيخ المعلّم. من الشواهد التربوية الدالّة التي يوردها الرواضية أنّ معلّمنا ربَّى تلامذته على نمط مُغاير لِمَا أَلِفُوهُ في تناولهم للتّاريخ، يقومُ على روايةِ التَّاريخ كما حدث دونَ تدخُّل، لكن مع الشَّكّ والنّقد والتّحليل، وأنْ يقع التّناول بحياديّة وموضوعيّة... كما يوضّح لنا د.مهدي فهم الشيخ المعلم لـ«التَّسلُّطُ والقُيود... الحُريّة والعَدَالة والمساوَاة». ويضيف: برغم كل ما أبرزهُ الشَّيخ المعلّم من شوائب التَّاريخ لبيانِ خطره وما علقَ بالأذهان من المآسي الّتي ارتكبها البشرُ بحقّ أنفسهم، فقد تعاملَ مع التَّاريخ من مُنطلقِ المتفائلِ بالمستقبل، الآمِل بأنْ يكون مُشرقاً.

وفي ختام الملف، يقدّم د.أمجد الزعبي قراءة في كتاب عبدالكريم غرايبة «تاريخ العرب الحديث»، حيث كتب الشيخ المعلم عن حقبة هامّة في التاريخ العربي من الممكن اعتبارها أساساً لقراءة التاريخ العربي الحديث في إطارها النظري والزمني. ويوضّح د.أمجد الزعبي منهج الغرايبة في كتابة التاريخ. ويَذكُر أنّ غرايبة، في تناوله للتاريخ، زاوج ما بين السياسي والإداري والاقتصادي والاجتماعي في تناغم قلّ مثيله، فيه وصف دقيق لبعض الجوانب الحياتية لبعض المدن، فيه الوثيقة تدخل كمقدّمة، وفي أحيان أخرى خاتمة قول. فيه دعوى إصلاحية وتشخيص للواقع تكاد تكون مقاربة لما عاشه في شبابه وما نعيشه اليوم.

مجدولين أبو الرب

عبد الكريم غرايبة: أكثر من شقيق

الدكتور فيصل غرايبة

احتل عبد الكريم المرتبة الأولى بين أخوته الثمانية بنيناً وبناتاً، بينما احتللتُ أنا المرتبة الثامنة والأخيرة، ويفصلني عنه أكثر من عشرين عاماً من السنوات، وكان يحظى بفعل مشاعر هذه المرتبة بخصوصية نظرة والديه إليه والتي تقوم على الودّ والتقدير والرضا، وخاصة أنه قد أصيب بمرض مفاجئ وغامض في طفولته الأولى، وفي فترة جهل وقصور في الطب والخدمات الصحية، أوائل العشرينيات. وقد اقتضت متطلبات تعليمه أن ينفصل عن أهله في وقت مبكر، فكان دائماً في موقع الزائر لأهله والغريب عن أخوته، وخاصة لواحد مثلي، لم أعش معه تحت سقف واحد ضمن أسرة واحدة في أيّ يوم من الأيام، وقد علمت عند بلوغي سن الوعي أنه هو الذي اختار اسمي «فيصل» تيمناً باسم القائد العربي الفذ الأمير فيصل ابن شريف مكة وصاحب النهضة العربية الكبرى الحسين بن علي، الذي استحوذ على الحب والإعجاب، والتفّ أهل الشام والعراق حوله منذ إطلاق الرصاصة الأولى. لكنني كنت أتغلب على غيابه وانقطاعه عني وعن كل أهلي بالقيام بزيارته في دمشق، عندما كان أستاذاً للتاريخ في جامعتها، وكنت أملأ تلك الزيارات بالأسئلة والاستيضاحات حول روايات كنا ندرسها في مادة التاريخ أو حول الوضع العربي العام والمدّ القومي في نهاية الخمسينيات، وكنت حينها في المرحلة الإعدادية من تعليمي.

استمرت العلاقة على هذا المنوال، لا تُزال فيها الحواجز تماماً، كما تُزال داخل أبناء الأسرة الواحدة، ولا تتناول الأحاديث فيها إلا الشأن العام غالباً، وربما أكتفي خلالها بالاستئناس برأي عبد الكريم حول أمور تخصني وهي على العموم تتعلق بطموحاتي وأهدافي بالحياة، وأطلب منه على مضض أن يكلّم أحد معارفه بموضوع يخصني، ولا يقابل هو ذلك الطلب بالترحاب أو التجاوب وإنما بالغضب أو التوتر، إلا أنه مع التقدم بالعمر أصبح يستمع ويَعِدُ بالاتصال الذي أرجوه فيه، ولكنه يجد الأعذار لكي لا يلبي الطلب المرغوب.

وهكذا كانت علاقتي مع عبد الكريم، ومحادثتي وحواري معه، لم يكن بين أشقاء، بل تعدى ذلك إلى تعاملي معه؛ محادثة ومحاورة ومجالسة، كعالم ومفكر وخبير ومرجع، وكان في كل أحاديثه يضيف لي شيئاً جديداً سواء من حيث الحصول على المعلومة، أو إشغال الذهن، أو تغيير الانطباع، أو تصويب الاتجاه، رغم ما يصاحب ذلك من خيبة الأمل أو كسر الخاطر أو غصة القلب.

باحث أردني، شقيق الشيخ المعلم عبدالكريم غرايبة.

مفتاح شخصية عبد الكريم

لا أجد ما أبدأ به الحديث عن عبد الكريم غرايبة غير تلك الصفة البارزة التي يتصف بها هذا الإنسان ألا وهي صفة التواضع، إذ تُلحظ عليه باستمرار وفي مختلف مواقفه وتعاملاته وأحاديثه، وكان طوال حياته وانطلاقاً من هذه الصفة يبتعد عن الأضواء، ولا يسعى إلى أن تتحدث عنه أو معه أية وسيلة من وسائل الإعلام المكتوبة أو المسموعة أو المرئية، ولكن هذا لا يمنعني أن أذكر أنّه ذات مرة، وعندما كان ما يزال في لندن يقترب من مناقشة رسالة الدكتوراه عام 1950، أنه قد قدّم حديثاً صوتياً من إذاعة لندن عن الحالة العربية في أعقاب حرب فلسطين عام 1948، وأتذكر ذلك اليوم وأنا ما زلت دون سن الوعي، وقد تنادى الأقارب والأصدقاء إلى التجمع في بيوت محدودة في إربد، وهي البيوت التي كان يتوفر فيها أجهزة الراديو الخشبية الضخمة وتعمل على البطارية، ليتسنى لهؤلاء الاستماع إلى عبد الكريم في حديثه ذاك، وأن أذكر كذلك، استطراداً لتلك المناسبة، أنّ هؤلاء الأقارب والأصدقاء قد احتشدوا في نقطة الحدود بالرمثا بانتظار عبد الكريم العائد من رحلته إلى إنجلترا، قادماً من بيروت التي أتاها على سفينة للركاب رست في مينائها بعد رحلة طويلة مضنية، حاصلاً على درجة الدكتوراه، والتي كان أول أردني يحصل على مثلها حتى ذلك اليوم.

أستتبع صفة التواضع تلك بما عُرف عنه من زهدٍ بالمناصب، وتفضيله العمل الأكاديمي على العمل الإداري، وتركه الوظيفة الحكومية في الأردن عدة مرات، مفتشاً للآثار أو رئيساً للتشريع والرأي عند بداية تأسيس ديوان الموظفين برئاسة محمد أديب العامري، أو مديراً عاماً لدائرة الآثار خلفاً لمديرها البريطاني هاردنج، ولذلك لم يعد للإقامة في الأردن والعمل فيه الا بعد الإعلان عن تأسيس الجامعة الأردنية في أوائل الستينيات، حيث لم يلاقِ طلبه للعمل الأكاديمي فيها ترحيباً من ذوي العلاقة، لولا تدخل الملك الحسين بن طلال طيب الله ثراه من أجل تعيينه. وحدث بعد تعيينه في الجامعة الأردنية أن أقدم عدة مرات على الاستقالة من وظائفه الإدارية فيها كرئيس لقسم التاريخ أو عميد لكلية الآداب أو نائب لرئيس الجامعة.

كان عبد الكريم يحظى بتقدير الملك الراحل الحسين، وكان يسأل عنه عند قدومه إلى الجامعة في زياراته المختلفة، وحدث أن اصطحب جلالته كريمته سمو الأميرة عالية عند أول يوم دوام لها في الجامعة لدراسة التاريخ، وتوجّه إلى مكتب عميد كلية الآداب، وكان عبد الكريم نفسه هو العميد، تمهيداً للتوجُّه إلى قاعة المحاضرة والتي كانت للمحاضِر الشاب عوض خليفات، فما كان من عبد الكريم الا أن استأذن الملك بأن لا يبقى بمعيته لدخول القاعة، لأنه ليس من تقاليده الأكاديمية حضور محاضرات زملائه في القسم أو الكلية، فأذن له جلالته وبقي عبد الكريم في مكتبه بانتظار عودة الملك ومن بمعيته من قاعة المحاضرة.

السعي إلى المعلومة وتحرّي الحقيقة

لقد كان عبد الكريم ساعياً للحصول على المعلومة ومتحرياً للحقيقة، حتى وإن لم تكن في حدود اختصاصه، لذلك كنت تراه مثلاً مدققاً في قانون السير العام، وباحثاً فيه عن مصلحة المواطن وكرامة الإنسان والمصلحة الوطنية العليا، أو ناقداً لقانون رخص المهن، ومعيناً مدى تحقيقه لمصلحة الوطن، وتوفيقها مع مصلحة المواطن الحقة والمشروعة، مبدياً ملاحظاته وانتقاداته، ومرسلاً بها إلى ذوي العلاقة في السلطات الثلاث التشريعية والتنفيذية والقضائية. وفي هذا السياق كان له ملاحظات حساسة حول ترجمة عبارة ذكرى الاعتلاء على العرش إلى الإنجليزية بصورة خاطئة وكأنها كلمة الصعود، عندما وُضعت على الطوابع التذكارية التي صدرت بهذه المناسبة، وكذلك في صيغة اسم المملكة الأردنية الهاشمية باللغة الإنجليزية وإدخال أل التعريف عليها خطأ عند نقشها على العملة بوحداتها المعدنية من فئة الخمسة

فلوس -التعريفة- في إحدى إصداراتها القديمة، وقد صُحّح الخطأن في الإصدارات التالية لكل من الطابع والتعريفة.

لقد بدا ذلك واضحاً بصورة أكبر، وفاعلاً بصورة أفضل، عندما حظي باختيار جلالة الملك عبد الله الثاني له لعضوية مجلس الأعيان، حيث كان باستمرار يُبرز نقاطاً خافية عن الأنظار وبعيدة عن الأذهان، ومنها ما هو هام ولكنه يبدو تافهاً، وخاصة في صياغة القوانين، والتي قد تودي بالمعنى المقصود أو تفقد التعميم معناه، ومنها مثلاً حدود شمولية الموازنة العامة للدولة، ووجوب تجاوزها المؤسسات الرسمية إلى المؤسسات شبه الرسمية، أو خلوّ ديوان التشريع من موظفين يتقنون الصياغة الوافية والواضحة.

الركون إلى المصادر الأساسية

عُرف عن عبد الكريم كباحث أنه لا يركن في معلوماته وبياناته إلا إلى مصادرها الأساسية، وهو لا يستمدها من المؤلفات والكتب المتوفرة، وكان ينصح طلبته بفعل ذلك، وكذلك أن لا يأخذوا من المؤلفات التي تصدر فيما بعد، إلا ما ينطوي على التحليل، وبلورة رأي ما حول تلك المعلومات والبيانات، وأن تُرد لأصحابها فحسب. كذلك، كان كثير الرجوع إلى المعاجم والقواميس للكشف عن أصول المفاهيم المستخدمة واشتقاقاتها، ويستهويه أن يخضعها للمقارنة بين ما وردت بالعربية وما وردت عليه بالإنجليزية. وقد يتصل بأحد الزملاء الذي يتقن لغة أخرى كالفرنسية أو الألمانية للتوسع في ما يهدف إليه من هضم للمفهوم وتفكيك عباراته.

ذات مرة، طرحت عليه تساؤلاً استنكارياً مؤداه: هل بقي شيء في التاريخ العربي لم تقرأ عنه، ما دامت المعلومات عن الماضي التي دخلت التاريخ لا تجديد فيها ولا إضافة؟ فأجاب أنه لا يفعل ذلك إلا من قبيل القراءة المتعمقة المتجددة، لعله يخرج منها باستنتاجات جديدة لم تكن تتوفر سابقاً، وأخذ يحدثني عن بعض تلك النماذج، وكان فيها غرابة تخرج عما اعتدنا عليه وعرفناه من روايات أو خلفيات للأحداث في التاريخ العربي القديم منه والحديث.

وقد جعل الاطلاع على خفايا الأحداث وخلفياتها لديه عدم تصديق الروايات للوقائع والأحداث للوهلة الأولى، ويصير يبحث وينقب ويسأل ويتساءل حتى يخرج بمعلومة إضافية أو انطباع عنها أو موقف منها، ومن هنا لا ينساق وراء الروايات السياسية والتصريحات الرسمية والأصوات الإعلامية الصادرة، ولا ينبهر بشخصيات ذات شعبية واسعة، أو ذات صيت وسمعة، وكثيراً ما كان يطلع على مواقف متخاذلة أو متواطئة مع أطراف خارجية، لشخصيات وصفت بأنها وطنية وأنها مناهضة للتدخل الأجنبي، مع أنها تقبض أموالاً وتموّل حركتها الاجتماعية وتنسّق مواقفها السياسية بشكل خفي ومكتوم مع ذاك الأجنبي أو سواه.

وهو لا يميل إلى وضع هوامش لمتون ما يكتب، ويعتمد على فنية خاصة به لإرجاع القارئ إلى المظان الأساسية، لا سيما أنه يصيغ تحليلاً ولا يكتفي بإيراد اقتباسات متعلقة بموضوع بحثه.

مفهوم التفرغ العلمي وممارسته

لم يكن عبد الكريم يتعاقد مع جامعة أخرى ليدرّس فيها، سواء داخل الأردن أو خارجه، عند حصوله على سنة التفرغ العلمي، التي يستحقها الأستاذ كل ست سنوات، وإنما كان يشغلها فعلياً في البحث العلمي البحت، فقد ذهب في إحداها مثلاً إلى تركيا للاطلاع على الوثائق العثمانية، وذهب في أخرى إلى لندن للاطلاع على الوثائق البريطانية المتعلقة بفترة الاستعمار في الوطن العربي.

مبادرات وطنية فريدة

كان عبد الكريم غريباً في طرحه وفريداً في أفكاره، وكان دائم التقدم بمبادرات تسعى إلى تحقيق الصالح العام سواء

أردنياً أو فلسطينياً أو عربياً، ومنها اقتراح إنشاء المتحف الفلسطيني الإنساني، ليعكس صورة النضال والتضحيات التي قدمها الشعب الفلسطيني لصدّ الهجمة الصهيونية على أرضه ووجوده عليها، وذلك لحمل رسالة متجددة إلى العالم عن الحق الفلسطيني والثقافة الفلسطينية، ولترسيخ ذلك في أذهان الأجيال بعيداً عن السياسة وبعيداً عن الدبلوماسية من جهة، وبعيداً عن لغة العنف والإرهاب من جهة ثانية. وقد حظيت الفكرة بتشجيع ومباركة جلالة الملكة رانية العبد الله، وخصصت أمانة عمان الكبرى قطعة أرض مناسبة لبناء المتحف عليها، ولكن الروتين وشح الموارد وقوى الشد العكسي حالت دون تنفيذ المشروع.

وكذلك تنفيذ مشروعه البحثي التوثيقي، استناداً إلى الجذاذات والبطاقات والقصاصات والوثائق النادرة التي قام بتدوينها أو تصويرها أو الاحتفاظ بها بما يخص الحياة العربية سياسياً واقتصادياً وثقافياً، وما زالت لديه منذ ستين عاماً أو أكثر، ونقلها بالطباعة أو بالتصوير على الكمبوتر وعمل على تبويبها وتصنيفها، وتركها للأجيال من الباحثين والدارسين والطلبة. وقد وافقت إدارة الجامعة على تخصيص قاعة صغيرة في مبنى كلية الآداب لهذا المشروع، على أن لا تتحمل أية نفقات في سبيله.

مفارقات غريبة مستهجنة

تعود صلة عبد الكريم بالجامعة الأردنية إلى ما قبل بزوغ فجرها (1962)، وكان موقعها بالجبيهة ما يزال مدرسة زراعية ومركزاً حقلياً للبحوث الزراعية ، اذ كان من أوائل الذين عينوا فيها من أكاديميين وإداريين، وبرتبة أستاذ كرسي التاريخ، ومضى يعمل بها دون انقطاع حتى تقاعد منها، واعتبر أستاذ شرف، وظل يحاضر فيها بعد التقاعد حتى العام 2012.

ذات يوم، بعد تقاعده، ذهب إلى مكتبة الجامعة لاستعارة كتاب منها، فما كان من الموظف المعني إلا أن اعتذر منه، كونه لم يعد ضمن كادر الجامعة، وأنّ بطاقة المكتبة التي في حوزته لم تعد سارية المفعول، علماً بأن عبد الكريم كان أول مشرف على تأسيس هذه المكتبة عند تأسيس الجامعة، بالإضافة إلى عمله الأكاديمي. كما حدث أنّ مسؤول العلاقات العامة قد وضع أمام رئيس الجامعة قائمة بالمدعوين لحفل تكريم أحد الزوار الأجانب للجامعة، ولما وقعت عينه على اسم عبد الكريم غرايبة تساءل الرئيس لماذا يرد هذا الاسم ضمن قائمة المدعوين مع أنه ليس ذا منصب إداري معيَّن في الجامعة؟ فردَّ مسؤول العلاقات العامة موضحاً بأن هذا الاسم مدرج على قائمة المدعوين منذ تأسيس الجامعة -أي أربعين عاماً آنذاك- باعتباره من الجيل المؤسِّس للجامعة، ولكن رئيس الجامعة لم يعجبه هذا الجواب، وطلب من الموظف شطب الاسم من قائمة المدعوين نهائياً، وعدم دعوة عبد الكريم إلى الحفل المذكور. وحدث في الفترة نفسها أن أمضى عبد الكريم فترة جديدة، من حقه أن يحصل فيها على إجازة التفرغ العلمي، فتقدم بالطلب ومر بمراحل التنسيب بالموافقة عبر مجلسي قسم التاريخ وكلية الآداب، وما إن عُرضت على الرئيس حتى اعترض عليها بحجة أن مدة خدمة عبد الكريم ستشارف على الانتهاء قبل حلول موعد إجازة التفرغ القادمة؛ أي ست سنوات.

وفوجئ عبد الكريم ذات يوم بعميد الكلية يطلب منه إخلاء القاعة التي يشغلها مشروعه التوثيقي للمعلومات التاريخية المنوه عنه سابقاً، على اعتباره ليس مشروعاً خاصاً بالجامعة الأردنية، ونظراً لحاجة الكلية للمكان ذاته لأغراض إدارية أخرى. وهنا عرض عبد الكريم مشروعه التوثيقي على رئيس جامعة العلوم الإسلامية الذي رحب بالفكرة ووافق على احتضانه بالجامعة، وبموجب وقفية باسم عبد الكريم غرايبة، وهكذا نقل عبد الكريم مشروعه إلى هذه الجامعة، وعُيِّن مستشاراً بموجب عقد وبراتب مقداره ديناراً واحداً في السنة بناء على طلبه.

وقد لاحظ المتابعون لصفحات النعي بالصحف الأردنية، خلوّ إعلانات النعي للفقيد عبد الكريم الغرايبة ثاني أيام وفاته، من نعي ومواساة باسم الجامعة الأردنية!!

التعامل مع الإطار العشائري والأسري

لم يكن عبد الكريم متعصباً لإطاره العشائري، فقد كان ينبذ هذا النوع من التعصب، وينتقد من يضبطون علاقاتهم عليه، ولذلك كان دائماً ضد المحسوبية وينتقد ممارسيها بشدة، ويرفض الواسطة، سواء من الآخرين لديه، أو منه لدى الآخرين، وكثيراً ما كنت أو أحد من إخوتي نطلب مساعدته لدى مسؤوله، للحصول على فرصة أو لرفع مظلمة، فكان يرفض أن يلبي الطلب، ويدّعي بأنه لا يعرف ذلك المسؤول، أو يتظاهر بالتجاوب ثم يتباطأ بالسعي المطلوب، وكأنه يبحث عن مبرر لاعفائه من هذا التكليف.

ولم يكن كذلك لصيقاً بالإطار العشائري، حتى أنه كان يتغيب عن المناسبات العائلية، كالأعياد وحفلات الزواج وتقديم التهاني بالمناسبات ذات الصلة بالعائلة، وكان لا يتجاوب مع طموحات أخوته في الحياة، فلا يشجعهم على تحقيقها ولا ينصحهم بشأنها، وربما يبدي ملاحظاته السلبية بشأنها، عندما يطلب منه رأيه فيها، وكثيراً ما كنا نرجع إليه لأخذ المشورة في موضوعات تخصنا ولدينا الحماسة للعمل من أجل تحقيقها، ولكنه عادة ما ينظر اليها بسلبية شديدة، تودي بنا إلى الشعور بالإحباط.

أما بالنسبة لي شخصياً، فإنه لم يتجاوب معي في الالتحاق بالجامعة الأردنية كمعيد بعد تخرجي من جامعة دمشق في العام 1967 في تخصص كان نادراً آنذاك وهو -العمل الاجتماعي- ولم يستجب لطلب رئيس قسم الاجتماع عام 1977 لتعييني مساعد بحث وتدريس بعد حصولي على ماجستير في التخطيط الاجتماعي، ولم يوافق على إعطائي توصية كعميد لكلية الآداب في الجامعة الأردنية إلى الوكالة الألمانية للتنمية، عندما اعطتني فرصة لدراسة الدكتوراه في ألمانيا، وكانت مبرراته في جميع تلك المواقف تنطوي على ضرورة توجهي إلى الوظيفة الحكومية، وكسب التقاعد، وتجنب الانخراط بالوظيفة الأكاديمية. ولم يكن شقيقي عبد الكريم راضياً عن التحاقي بجامعة الدول العربية التي عملت في مقرها في تونس وأقمت هناك سبع سنوات جميلة، حصلت خلالها على دكتوراه الدولة في التنمية الاجتماعية، وكان مبرره أن مستقبلي سيتأثر سلبياً بسبب غيابي عن عمان، أما حصولي على درجة الدكتوراه فلا داعي لها لموظف بالإدارة الحكومية ولا تستحق ذاك التعب والقلق. كما لم يرق له أن أذهب إلى البحرين لأدرّس في جامعتها 1997، على اعتبار أنّ الإقامة في منطقة الخليج ليست مغنماً، وزاد من تعكير مزاجه أنني حضرت إلى عمان بعد مضي سنتي الإعارة إلى جامعة البحرين، وتقدمتُ بطلب إحالتي إلى التقاعد من وظيفتي في ملاك وزارة التنمية الاجتماعية 1999، فذلك من وجهة نظر عبد الكريم إمعاناً بالابتعاد عن البلاد واستمراراً للإقامة في منطقة الخليج غير المرغوبة لديه.

إلا أن عبد الكريم كان ينظر إلى والده بمهابة، ولا يعارضه بالقول أو الفعل وجهاً لوجه، ولا يرفض له طلباً بسيطاً إذا كان في نطاقه شخصياً، ولكنه كان يداري ولا يقول لا عند عدم استساغته لطلب والده، إذا كان توسطاً للعمل في الجامعة الأردنية أو سعياً لإنجاز عمل بدائرة حكومية تتطلب اتصالاً بمسؤول يمكن لعبد الكريم أن يتصل به لهذا الشأن، فكان يواري ويتهرب ويتظاهر بنسيان الموضوع. كما أن عبد الكريم كان يود أمه وداً كبيراً، ويخصها في عيد الأم بهدية أو بزيارة في إربد، وكان يستأنس برأيها في موضوعات تخصه، وينفرد إليها ليسألها في عدد من المواقف، كما كنت أشاهد.

وكان عبد الكريم متعلقاً بزوجته بشكل ملموس، ويؤيدها في آرائها ومواقفها دون نقاش أو تردد، ويعطي لارتباطاته معها والعودة إلى البيت للجلوس معها الأولوية والأهمية، وحدث أنني

كنت أجلس إلى جانبه وهو يقود السيارة، ومررنا من أمام أحد البنوك، فطرحتُ عليه فكرة أن ندخل لزيارة مدير عام هذا البنك، وهو صديق قديم وقريب منه دائماً، لنطلب إليه توظيف ابنتي لديه، فرفض الفكرة بحجة أن الساعة قاربت على الحادية عشرة قبل الظهر، وهو الوقت الذي اعتاد فيه أن يكون في البيت، يشرب القهوة إلى جانب أم رائد. كما حدث أن زارته مجموعة من أبناء عشيرته وكانت الانتخابات النيابية على الأبواب، ودار حديث عن ترشح أحد أبناء العشيرة فيها، وعرض عليه هؤلاء أن يترشح، فوافق من حيث المبدأ، وعلى اعتبار أن الدورين الرقابي والتشريعي يستهويانه كما تستهويه مناكفة المسؤولين الرسميين، وما إن انصرف هؤلاء وعادت أم رائد إلى البيت وعلمت منه عن هذا الموضوع، حتى أثنته عن عزمه، مبدية الأسباب الصحية لديه، وضرورة المكوث في إربد والتواصل مع الناس فيها لمدة طويلة وبصورة مرهقة، فما كان منه إلا أن عدل عن الترشح والاعتذار للأقارب عن ذلك. ولما اختير عضواً في مجلس الأعيان قال لي لو أن أم رائد ما تزال موجودة على قيد الحياة لدفعته إلى عدم قبول ذلك، لأنها كانت دائماً تصر على بقائه في الاطار الأكاديمي فحسب.

صفاته الشخصية وأساليب معيشته الخاصة

لقد كان عبد الكريم متفائلاً دائماً ومرتاحاً نفسياً على الدوام، وكان دائم الابتسام وهاشاً باشاً عند السلام على الآخرين أو مكالمتهم هاتفياً أو استقبالهم في البيت أو المكتب، إلا أنه كان يتوتر ويغضب عند طرح آراء لا يراها صائبة، أو عند الخوض في أحاديث يراها ليس لها طعم. كان معتداً برأيه إلى حد العناد، وكان مواظباً على الاتصال بأصدقائه وخاصة زملاؤه في الجامعة الأميركية في بيروت، ومحافظاً على صداقاته مع زملائه في جامعة لندن من العرب والأجانب. ولكنه كان يميل إلى مقاطعة أصدقائه وزملائه الذين يتقلدون مناصب رسمية -وزراء مثلاً- طوال تقلدهم لتلك المناصب وما يلبث أن يعود إلى التواصل معهم، حين خروجهم منها.

لقد عاش عبد الكريم بعيداً عن أهله في سن مبكرة تبعاً لوجود مدرسة تحتوي الصف الذي وصل اليه، بينما كان والده موظفاً حكومياً في أماكن أخرى لا يوجد في مدرستها مثل هذا الصف. فقد سكن في المرحلة الإعدادية في إربد ليدرس في مدرستها، وسكن في السلط في المرحلة الثانوية ليدرس في مدرستها أيضاً، الأمر الذي أنشا لديه عاداته المعيشية الخاصة التي درج عليها وتمسك بها طوال حياته، كالنوم مبكراً والاستيقاظ مبكراً وإعداد طعامه بنفسه وقيامه إلى حاجاته بنفسه والميل إلى خدمة نفسه بنفسه، والرغبة بارتداء ملابسه القديمة لا الجديدة وعدم حلاقة ذقنه يوم الجمعة من كل أسبوع. والقدرة على المكوث طويلاً لوحده، حتى إنه لم يكن يرحّب بزيارات الآخرين في كل الأوقات، وكان يملأ ساعاته بالكتابة أكثر من القراءة، وكان لا يقوم بقراءة كتاب جديد اقتناه لوقت طويل أو لأيام متتالية، حتى ينهيه من الغلاف إلى الغلاف، كما يفعل معظم المطالعين للكتب، وإنما يحتفظ به ليلقي نظرة عليه عند الحاجة التي تتمثل بإعداد دراسة أو مقال وبحدود ما يخدم الموضوع. ورغم ضرورة الجلوس الطويل من أجل الكتابة، فإنه كان يميل إلى الوقوف بين الفينة والأخرى سواء في مكتبه أو في أثناء زياراته لبعض الأهل أو الأصدقاء، وقد يضيف إلى ذلك بعض المشي البطيء وهو يناقش فكرة معينة، ولم يكن يميل إلى الجلوس داخل قاعة الدرس دائماً حتى بعد أن تقدم به العمر.

موقفه من الدراسة في الخارج

كان بودّ عبد الكريم أن يلتحق ابنه الوحيد رائد بالجامعة الأميركية في بيروت، وفي تخصص إدارة الأعمال بالذات، على اعتبار أن دراسة الطب طويلة وتتطلب دراسة لساعات كثيرة ولا تنضج إلا بالتخصص الدقيق، وعلى اعتبار أن إدارة الأعمال أصبحت لغة العصر ومفتاح الدخول إلى القطاع الخاص، كما أن رائد يتقن اللغة الإنجليزية، إذ درس في المدرسة الأرثوذكسية الوطنية حتى حصوله على شهادة

الدراسة الثانوية. هذا علاوة على أن بيروت قريبة من عمان وتتوسط دمشق المسافة بينهما، وكان أبا رائد، وأكثر منه أم رائد، كثير التردد على دمشق وتجاوزها إلى بيروت في العديد من المرات. ولكن رائد أصر على دراسة الطب، وكان نصيبه منها أن كانت في جامعة موسكو، وقد ذهب أبوه وأمه لزيارته هناك في إحدى السنوات، مثلما ذهبا لزيارته في أستراليا فيما بعد حيث ذهب رائد للتخصص فيها، وعاد ليعمل في كلية الطب في الجامعة الأردنية، المكان الذي سُرّ عبد الكريم به ليكون موقعاً لعمل ابنه رائد، إلى أن فضّل ترك العمل في الجامعة ومستشفاها وفتح عيادة خاصة للجراحة النسائية والتوليد.

ولما أتمّت حفيدته رانية دراستها الثانوية، كان الجد يرى أن تدرس في الجامعة الأم: الجامعة الأردنية بالذات، نظراً لعراقتها، ولما يتوفر فيها من محيط اجتماعي ثقافي واسع، ولقربها من البيت -الذي يقع في ضاحية إسكان أساتذة الجامعة ولا يفصلها عنها إلا الشارع، عدا عن الودّ الذي يكنه الجد لهذا المكان ولهذه الجامعة، ولكن مع رغبة الأب، وشيء من رغبة الحفيدة، التحقت بالجامعة الأردنية الألمانية، وفي تخصص التصميم الداخلي، وتطبيقاً لمنهج هذه الجامعة أمضت رانية السنة الثالثة من دراستها في جامعة راين مان في مدينة ريشباردن في ألمانيا، فكانت فرصة لها لتمضية ذاك العام في جامعة ومجتمع متقدمين، وفرصة لتطوير لغتها الألمانية، وفرصة لزيارة بلد الأصل لجدتها لأمها كذلك.

أما حفيده كريم فقد التحق بالأكاديمية الدولية في عمان التي تستقطب المتفوقين في المدارس الثانوية الأردنية، ولما أنهى دراسته الثانوية، ونظراً لتفوقه، فقد حصل على منحة وقبول في إمبريال كولج البريطانية قرب لندن، وما زال يواصل دراسته فيها حتى الآن. وفي الشتاء الماضي ولما كنت جالساً مع عبد الكريم ومرّ كريم علينا وانصرف، فتساءل عبد الكريم أمامي قائلاً: أما كان من الأفضل أن يبقى كريم في عمان مع أهله ومعارفه ويكمل دراسته الجامعية في الجامعة الأردنية؟ فرددت عليه بالنفي، لاسيما وأنه قد أتيحت لكريم هذه الفرصة في لندن، فان منافعها العلمية أفضل ومستقبلها المهني أفضل كذلك.

وفعلاً فقد رحل عبد الكريم عنا، قبل أربعين يوماً من وصول حفيده الذي يحمل اسمه كريم رائد عبد الكريم إلى المرتبة الأولى في مسابقة الاختراعات الجديدة على مستوى المملكة المتحدة، وكان اختراعه هو -مروحة مولدة للطاقة يمكن حملها باليد- تلك المسابقة التي تختار الأفكار القابلة للتطبيق، والتي يدعمها قطاع الصناعة البريطاني، وقد اختير كريم الحفيد من مجموع مائتين من المتقدمين، ثم من بين خمسة وعشرين من المختارين، ثم الأول من بين سبعة في التصفية النهائية، عند عرض الاختراعات المعروضة، في حقل الهندسة الميكانيكية التي أوفد إلى بريطانيا للتخصص فيها.

ويمضي قطار العمر بعبد الكريم غرايبة لمدة تزيد قليلاً عن التسعين عاماً، كانت مليئة بالأحداث مفعمة بالحيوية كثيرة بالعطاء ممتدة بالتواصل والاتصال، ولذلك صارت ذخيرة تسر الناظرين وتفيد الباحثين، وتجيب عن أسئلة المستفسرين، وتفسر ما غمض على ذهن المتأملين، وكاشفة عن ما يخفى عن العارفين. لقد ترك عبد الكريم الأفكار والآراء والأطروحات التي لا تفيد واحداً بعينه ولا قضية دون غيرها، ولكنها تشكل حزمة متوهجة من الضوء تساعد الجيل العربي الجديد على سبر ماضي أمته ومنجزاتها بحلوها ومرها، وتعينه على استكناه آفاق المستقبل بالأمل المتين والتفاؤل الكبير.

الشيخ المعلم عبد الكريم الغرايبة: هكذا عرفته!

نانسي باكير

علاقة النسب وحدها غير كافية لتدفعني إلى الكتابة عن الشيخ المعلم عبد الكريم الغرايبة، فعلى الرغم من أنه الأخ الأكبر لزوجي وائل، والعمّ المحبب لابنتي سوسن وابني فارس، فإنّ سبب استجابتي الفورية ودون تردُّد للكتابة عنه في مجلة أفكار -العزيزة على قلبي ومنذ السبعينيات- يكمن في أنّ الكتابة هي عن شخصية فذة تتمتع بخصائص كثيرة، لعلّ المستوى العلمي الرفيع، وشموخ القامة التوثيقية النوعية، والزهد في المناصب والسلطة، ودعم من يستحق الدعم، والغوص البحثي العميق في كنوز المعرفة والمعلومات، هي بعضها.

لم يكن الشيخ المعلم من الملائكة أو الأنبياء، لكنه كان عالماً جليلاً، وباحثاً حقيقياً ومعلماً أكاديمياً فريداً من نوعه، متميزاً عن غيره. كان نبعاً صافياً رقراقاً في موضوع، وبحراً ثائراً صاخباً متصدياً لتشويهات تاريخية لعالمنا العربي في موضوع آخر، ومحيطاً عميقاً يبدو هادئاً وديعاً وفي أعماقه بركان حقائق نسبية مرعبة لا يراها أو يدرك معانيها إلا من لديه مهارة الغوص في أعماق العلم وتجلياته.

كان معلّمنا إنساناً بسيطاً متواضعاً في موقف ما، وعنيداً وشجاعاً وصريحاً وبعيداً عن المجاملة في مواقف أخرى، وخاصة عندما تتعلق بمصير الأردن ومصالحه، والقضية الفلسطينية وشرعيتها، والعالم العربي وأمنه. كانت استنتاجات شيخ المؤرخين غريبة وغير مسبوقة لا تسمعها إلا منه، ولا تقرأها إلا في كتاباته، كان ماهراً في فك شيفرة أحداث المؤامرات الدولية وتحليلها بدقة تاريخية متناهية تصل في دقتها إلى اليوم والشهر والسنة، وقد يصل الأمر إلى ذكر ساعة الحدث، وكذلك توصيف المكان، وأسماء أبطال الحدث، وألقاب هزيلة تعبّر تعبيراً دقيقاً عن شخصياتها، مثال على ذلك أنه أطلق لقب خزندار (من يدير خزانة المال) على شخص من أفراد عائلته، أودع لديه نقوده في آخر أيامه ليدفع ما يستحق عليه من مطالبات!

حذّر من سقوط العراق، واعتبرها البداية في تقسيم العالم العربي وإضعافه وشرذمته، واعتبر إضعاف السودان هي الحلقة الثانية في اختراق العالم العربي. كانت تحليلاته تصدمني لأنّ متابعاتي المتواصلة للأوضاع السياسية عبر

زوجة شقيق الدكتور عبدالكريم غرايبة، وزيرة سابقة.

تقارير دولية قد أوصلتني إلى مراكز قوى عربية أخرى تعتبر مصدّاً للانهيارات وتختلف عن استنتاجاته التي ثبت صدقها مع الأيام.

* * *

على هرم مقياس الثقافة، فإنّ الشيخ المعلم يتربَّع في قمته، فإذا كانت الثقافة هي كمية المعرفة مضافاً إليها التجارب العملية، فإننا نجد في المعلم الشيخ قامة وقمّة ثقافية، موسوعة متنقلة، لديه الإجابات عن كل شيء. كان المصباح المعرفي السحري لكل إشكالية معلوماتية تواجهني أو تواجه أحد أفراد أسرتي، ويتجاوز الأمر إلى الأصدقاء ممن كان يبحث عن إجابة لقضية أو مسألة أعيته، كان المعلم هو ملاذه الأخير، هل يمكن أن تتصور إنساناً جاوز التسعين عاماً يخرج من عملية جراحية في الدماغ، وفي غرفة الإنعاش يصحّح معلومات لابنتي وردت في بحثها!!!!

قبل عقود من الزمن كانت زيارتنا إلى بيته، وبوجود زوجته آنذاك السيدة الفاضلة بيهمان العنبري أو كما كان يضيف إلى اسمها شارحاً لمعناه «بناظير» أي بلا نظير ومعناهما فريدة -وقد كانت فريدة فعلاً رحمها الله، خلّدها في كتاباته ومؤلفاته جميعها- كانت الزيارة إلى محراب علم وعلماء، لم تكن زيارة عائلية نمطية كما هو الدارج من استعراض لمصائب الناس ومشاكلهم والتندر والسخرية والاستغابة والعياذ بالله، بل كانت محطات فكر تناقش كتباً ومراجعاً وقواميس، بحثاً عن أصل كلمة أو عبارة أو مصطلح أو جذر. وكان يقدّم لنا في كل زيارة هدية فكرية على شكل مقالة ستنشر أو رسالة لمسؤول عن وضع سياسي عام يستوجب حلاً حاسماً ومفصلياً، أو كشفاً لمخطوطة مهمة، أو وثيقة مطموسة.

وكان الشيخ عبد الكريم الغرايبة فريداً ومتفرداً وزاهداً، فلم يطلب في حياته شيئاً لنفسه، لم يسعَ لمنصب أو سلطة أو امتياز! ولكنه في المقابل لم ينجُ من أي من أفراد أسرته وعشيرته من الإلحاح عليه بطلب لوساطة قد تتراوح بين البسيط والممكن إلى الخيالي والمستحيل. فكانت المحصّلة أنه غمرنا جميعاً بفضله علينا، وأنا شخصياً طوّقني بفضل سأحمله في عنقي مدى الحياة، لقد وقف إلى جانبي في محنة وظيفية استطاع من خلالها أن يرفع عني ظلماً مبيتاً، أثناء مسيرتي الوظيفية، كان لها الأثر فيما وصلت إليه بعد ذلك.

عوَّدنا الشيخ المعلم على هاتفه الصباحي الذي حمل دوماً بشائر الخير والمحبة والعطاء. وكانت أغلب مكالماته دعوتنا إلى غداء يضم أصدقاءه ومحبيه وطلابه أو أحفاده! تعرَّفنا من خلالها على نماذج وشخصيات فكرية عظيمة تسمو معها وترتقي إلى فضاءات واسعة رحبة، فتقضي وقتاً ثميناً مفرحاً يضيف إليك معاني وجدانية نادرة. أصبح أكثرهم أصدقاء لنا ومن خيرة الأصدقاء.

* * *

كانت عبارة «تواضُع العلماء» تشعّ بوضوح في خُلُق وشخصية الشيخ المعلم حيث يستمع إلى كلامك ويصغي إلى سؤالك بكل حواسه، ويستحضر المعلومات بكبسة زرّ في ذاكرة قلّ نظيرها للإجابة بتسلسل منطقي مبهر، فيشعرك أنّ العلم والمعرفة رضخت له وتأتمر بإشارته، حيث سخّر المعرفة والمعلومات في خدمة طلاب العلم والباحثين والسائلين ممن ضلوا في إيجادها. أحب شيخنا الناس وأجزل لهم العطاء فأحبوه بالمقابل، فمن مسلَّماته أن المعلم يجب أن يكون كريماً معطاءً ليتقن عمله، وهكذا كان، فأحبه طلابه، وأعجبوا بمنهجه العلمي الرصين، وساروا على دربه، وتفوّق كثيرون منهم وأصبحوا أعلاماً مرموقين وحافظوا على صداقته التي تجاوزت الصداقة إلى الأخوّة، وبعضهم استشعر منه أبوّة حانية.



الشيخ المعلم عبدالكريم غرايبة مع السيدة نانسي باكير

وإذ أزعم أن ليس للمعلم الجليل أعداء أو منافسون، لأنه وببساطة اختط لمسيرة حياته طريقاً متخصصاً علمياً شاقاً لا يجذب الكثيرين باعتباره جهد وعطاء متواصلين، وإيثار وتضحية، ومردوده معنوي وليس مادي، فإنني وللأمانة لا بدّ من أن أتطرق إلى الحادثة اليتيمة التي أغضبتي من الشيخ المعلم خلال سبعة وثلاثين عاماً من معرفتي به. فقد نقل على لساني معلومة مهمة أحبطت موضوعاً فاسداً وذلك أثناء تزاملنا في مجلس يتبع إحدى الوزارات، فأتى الشخص المعني إلى مكتبي غاضباً متوعداً، ولولا أنني سيدة لكان من الممكن أن يوسعني ضرباً... تضايقت منه آنذاك، ولكني في المحصلة شكرته، فقد وازن الشيخ الجليل بين المصلحة العامة وغضبي الآني مع أنني من المقربين منه، وممن حظي منه بشرف الاحترام والمحبة. أدرج هذا الموقف فعسى أن يكون قد حدث ما يماثله مع غيري. فهو لم يقصد الإساءة أو هدف إليها، ولكنها كانت ارتداداً طبيعياً لحالة حرجة أو لمسألة أو أمر أكثر أهمية في نظره.

* * *

كانت قدرة معلمنا على التحمل أسطورية، وعندما يصل الحوار معه إلى طريق يبدو أنه مسدود، كان يبادرك بجملته

التي عكست شخصيته ومشاعره « الله يخليك» ويسترسل شارحاً.. فتُحدث هذه العبارة سحراً خاصاً يعيدك إلى صوابك. المعلم لم يتذمر أبداً ولم يعاتب مطلقاً، بل كان موضوعياً يواجهك بالحقائق ويتركك في حيرة من أمرك تقلب ما سمعت يميناً ويساراً ومن أعلى إلى الأسفل وبالعكس، موجهاً إياك إلى التفكر والتدبر، فهو الشيخ المعلم باقتدار، حجته العلم وهاجسه الحقيقة وخلقه العطاء والتفاني فيه.

بقي المعلم تسعين عاماً ونيّف محارباً متأهباً أمام الجهل والتجهيل، وكان يحسب عمره قمرياً، وبذلك يكون سنّه أكبر من عمره الميلادي. وكان تارة أخرى يحسب سنوات عمره بالأيام، وكأنّه يذكّرنا بأن كل يوم لديه مهمّ وحافل بالعمل والعلم.

لم يجلس معلمنا أو يترجّل إلا في الأيام القليلة قبل انتقاله إلى دار الحق. كان يتألم بصمت، وعندما سألته عن شدة ألمه قال بصوت خافت: «كثير». تحدّث في آخر أيامه بصعوبة وبصوت خافت، ثم تحوّل حديثه إلى إيماءات، ومع كل ذلك كان مرحّباً بي وبكثيرين ممن طلب مني الاتصال بهم، وأبدى رغبته في رؤيتهم. فلا يمكن أن تحب إنساناً وتحترمه إلى هذا المستوى إلا ويشعر بك، فكيف إذا كان هذا الإنسان هو الشيخ المعلم الذي يفهمك ويقدرك ويقرأ أفكارك دون أن تتكلم.

كلّ نفس ذائقة الموت، والموت حق، نترحم على كل من يُسلم الروح لخالقها، ولكن عندما تنطفئ شعلة معرفية، وعندما يدفن مولد للأفكار، وتغلق موسوعة تاريخية، وتودّع إنساناً عظيماً، فإن الخسارة فادحة والمصاب جلل.

ذهب شيخ المؤرخين إلى دار الحق وترك لنا إرثاً حقيقياً خالداً، وبخاصة لطلبة العلم وللباحثين والجامعات، وكذلك منهجاً وطريقة مبتكرة، وأرشيفاً أصيلاً لمن سيحمل إرثه وعلمه المتمثل في مؤلفاته. العظماء لا يموتون، العظماء يسطرون بأحرف من نور عِلْماً يُنتفع به، فتبقى صدقة جارية لا تنقطع أو ينتهي أثرها بوداعه.

الحديث عن الشيخ المعلم عبد الكريم الغرايبة يستوجب إضاءة جوانب عديدة من حياته، يستوجب الوقوف أمام محطات حافلة من تاريخ شيخ التاريخ؛ فكره، وفلسفته، ومنهاجه، وكتبه، ومقالاته وهنالك الكثير... إلا أنني آثرتُ أن أوجّه له كلمة وفاء وشكر وامتنان وإعجاب واعتذار على تقصيري أمام عطاياه، وغصة عتاب... فقد وعدني أن نكمل معاً كتاباً عن مصر أنهى ثلثيه: أنهى الثلث الأول في الخمسينيات وهو في لندن، والثلث الثاني في الثمانينيات، وقد أضاعهما بين أوراقه، ووجدهما أثناء نقله لبعض من مكتبته وأرشيفه إلى جامعة العلوم الإسلامية العالمية، وعدني أن نكمله بعد شهر من علاجه، وأن أحظى بشرف سكرتارية طباعة الجزء الثالث، ولكنّ المرض اشتد عليه، فلم يفِ بوعده لي، وهذه هي المرة الأولى والأخيرة التي خذلني بها. أدعو له بالرحمة والمغفرة، وأن يتبوأ منزلة العلماء التي يستحقها بجدارة.

وأنهي بكلماته التي كان يزهو بتردادها... (على لسان السيدة أم كلثوم، رحمها الله)، كلامها الجميل الإنساني: «فتعلم كيف تنسى وتعلم كيف تمحو»، وأن نحاول أن ننسى أو نتناسى جراحنا «كي لا يجدَّ بالتذكار جرح»، حتى لا نصبح أسرى ذكريات تتحوَّل إلى أحقاد وأعباء علينا وعلى أبنائنا وأحفادنا...

كان الأمل يصاحبه دائماً على الرغم من قتامة الكثير من الأحداث التاريخية التي شهدها أو تدارسها أو أثناء تأريخه لها...

إلى عبد الكريم غرايبة
الشّيخ والمعلم

أ.د.خالد الكركي

تظلّ الكتابة عنك بعد غيابك كتابة إليك، فمثلك لا يُنسى، ومثلك يظلّ باهر الحضور في حياتنا نحن الذين جئنا إلى الجامعة الأردنية ذات زمان بعيد، وقرأنا عليك دروساً في التاريخ العربي الحديث وعرفناك بعد ذلك عميداً وأكاديميّاً ومعلّماً، وشيخاً نسعى إليه من أطراف القرى والعاصمة نلتمس عندك الحقيقة يوم اشتدّ العتم من حولنا، خاصّة في بلاد الشام، ويوم أدركنا من المعرفة ما هو معقول، لكنّنا خسرنا حقولاً من الحريّة، وبساتين من الاعتزال، ويوم تشظّت الأمّة على عتبات القرن الحادي والعشرين، وتحكّم في مسيرها تطرّف وتعصّب وانغلاق، ودخلت السياسة في متاهات لم يكن السّير في الغبار الذي غطّى دروبها ممكناً حتى لأحدّنا بصراً وأفضلنا بصيرة.

ذاك أنتَ ونحن لا نتوقف عن الأسئلة، عن دور الفقيه، وواجب الداعية، ومسؤولية المُثقف، وكيف تحوّلوا عند السلطة إلى أتباع، مع أنّك كنت تعلّم تلاميذك الجرأة على السّلطة الظالمة والفاسدة، ولم تكن من دعاة أنّ السياسة فنّ الممكن، بل كنت ترى التاريخ استراتيجيّة بعيدة المدى، وفي ظلّها يكون الحكم على حركة المجتمعات إيجاباً أو سلباً، حكماً على النتائج المعرفيّة والحضاريّة القائمة على الحريّة والعدْل.

أَبا الرائد،

نفتقدك... وتلك هي الجامعة التي كنت تخشى عليها من الارتجال وصراع المواقع، وكنت تطمئنّ إلى الأجيال الجديدة من الباحثين، وتهدّئ نفسك بين طلاّبك، وكنت تخشى هوس التّغير الذي يسكن بعضاً منّا لأن العِلم كما تُعلّم – لا ينضج إلا في أوانه، وهو عميق في العقل والوجدان والزمان... وكنت تخشى أيضاً من أسئلة المجتمع التي تدبّ فجأة في أحاديث أهل السياسة حول «الهويّة» و«المواطنة» و«الحقوق»... كنت تدرك ما وراء هذا وذاك، وتسند ظهرك إلى جدارٍ قَوْميٍّ صلب أضيق حدوده بلاد الشام كلّها حتى لا يقع ارتطام في المشهد الوطني الذي تحرص عليه، وتمتحنه بعمق الفكرة ونبل الموقف وبما تشهد لك به أجيال ارتحلت وأخرى تطلّ على المشهد من قريب.

كانت أسئلتي محصورة أبداً في العلاقة بين ثلاثة: المعرفة، والناس، والسّلطة، وكنت تدرك أني أسأل لأنّني في ورطة بين هذه، كنت تجعل المعيار وطنيّاً، وإن كنت لا تحتفظ للسياسي بموقع مقبول في هذا كلّه، لذلك ما رحّبت بك مرّة في موقعي بصحيفة الرأي في أواخر القرن الماضي إلاّ ومعك صفحات

كاتب وأكاديمي أردني.



الشيخ المعلم عبدالكريم غرايبة

من كتاب جديد، لعلّ بعضها كان كتابك الذي حمل مفاجأة متميّزة: «نوازل التاريخ والمستقبل»، أمّا السّياسة فلم يكن لك رغبة في الحديث عنها حتى والدنيا من حولنا مثل بقايا الأرض اليباب.

كيف لنا أن نملك الحسّ النّقدي المرهف الذي ملكت!!

وأنّى لنا أن نستطيع اكتشاف العلاقات بين الحوادث الصغيرة وتلك الجامعة في التاريخ وحركة الإنسان!!

بل هل تمكّن أيّ منّا أن يخبئ في أوراقه أخباراً بسيطة ليكتشف بعد خمسين سنة أنها صارت وثائق على زمانٍ مرّ وخلّف وراءه أسئلة وحيرة....

لقد جئتَ إلينا والأمة تخرج من ظلام الاستعمار لتستقر تحت عتمة الاستبداد، جئت والإحباط يتنامى والتّشظّي والفقر والبطالة تنتشر، ومن بين دولنا ما يتعرض للحذف وأخرى للإزاحة، والامبراطوريات ترحل مع الحرب العالمية الثانية لتأخذ مكانها إمبراطوريات جديدة تتجسّد في وحشيّة في الرأسمالية وتجارة السلاح، وذبح الضعفاء... ثم تدّعي كلّها الحرص على حقوق الإنسان، ولا تعتذر أيّ منها عن مذابحها وشرورها، وآثامها من الجزائر إلى فيتنام...

كنتَ تقول: هذه دورة عبثية كلّما انتهت عادت من جديد إلى أن تنهضوا... وقد جعلتَ القدس غاية للأمة واقترحت أن يكون هناك شعارٌ للقدس يحمله كلّ مؤمن مسلم أو

مسيحي حتى لا ننسى... ويظلّ معلّقاً على الصدور حتى تؤذّن مساجدها بالحرية من جديد.

أسجّل هنا أنك خير من أدرك سلطة المعرفة وجعلها الأولى، وما من نضال من أجل التنوير، وحماية الوطن، يكون خارج إنجاز هذه السلطة لدى الناس، وهي معرفة مسكونة بالحريّة، ومعطّرة بالمساواة والعدل واحترام كرامة الإنسان، فالمعركة في المعرفة لا في الأيديولوجيا، والمؤرّخ (والمثقّف) لابد أن يكون جذريّاً في مواقفه خاصة في مواجهة السّلطة التي تنطوي على قدرٍ كبير من المناورة والحذر وعدم الالتزام بشروط «المعرفي» و«الثقافي» و«التاريخي» على الوجه الذي يجب أن تكون عليه الحضارات ذات الرؤى العميقة في التقدم والحياة.

ايّها الشّيخ المعلّم،

ذاك أنت، وكم يجرحني أن أمرّ في الجامعة أو عند بيتك الكريم وأنا «أفتّش في مكانك لا أراك»، فقد عوّدتنا أن تسأل عنّا، وأن تمرّ مثل طيفٍ جميلٍ، تلقي التحية وتطمئن على أبنائنا وتذهب... وكم سعينا إلى مجالسك في الجامعة كي نسأل عن كتابك «العرب والولايات المتحدة»، وقد أضفت عنواناً فرعيّاً: (من القدم إلى الخامس من تشرين الثاني سنة 2008م)، بل جعلت صفحته الأولى من قول لسفيان الثوري يخاف فيه القرّاء والعلماء، بل ويرى أنّ المؤرخين على شفا جرفٍ هاوٍ لأنهم يستطيلون على أعراض الناس...!!

كنت مؤرخاً عالي القدر... هذا أمر بديهي،

لكنك كنت حكيماً، وهذه هي الذروة التي رأيناك فيها وأنت تصدّ الشيخوخة عنك، وتعلّمنا في كتابك الذي أشرت إليه:

(... وزرعت أميركا في وطننا دولة من المستحاثات البشرية التي تعيش عاطفيّاً في القرن العاشر قبل الميلاد، ولم يستطع العرب التّحرّك بقوة لمنع ذلك «لأنّ البحر يمدّهم، وما دام البحر يمدّهم والبرّ لا يصدّهم فالبلاء دائم...»).

هذه واحدة من رؤاك التي لا يخلو كتاب من واحدة بالعمق نفسه حول الصراع على فلسطين، وحول الوحدة العربية، وحول الأمة التي ضيعتها السياسة والنفط... كان هذا، وما يزال، يجري، ونحن نرى ابتسامتك الهادئة لأن التاريخ لا يتوقف عن الحركة، وإذا تمكن العرب من جعل البرّ قادراً على الصّمود والصّد ومنع التّوسع، آنذاك تتغير حتمية الاحتلال ووجود الاستعمار والاستيطان في بلادنا، ويبدأ التحرير.

ستظلّ حاضراً،

وستظلّ الجامعة والحيّ والوطن كلّه تحفظ اسمك وكتاباتك، وروحك العذبة، وسوف نقرأ معك على اختلافٍ في التأويل:

وإذا ما التأم جرحٌ — جدّ بالتذكار جرحُ
فتعلّم كيف تنسى — وتعلّم كيف تمحو

فمثلك عصيّ على النّسيان، وما دوّنتَ لا يُمحى، ولكننا نقول لك إنّ الوطن على عهدك به:

«كُلّما دَاويْتَ جَرْحاً سَالَ جَرحُ»

وقد كان رحيلك أغلى جراحه وأكثرها نزفاً بين أهلك، ومحبيك وتلاميذك لأننا جميعاً محتاجون إليك ومشتاقون،

فسلام عليك،

على روحك العذبة،

وحضورك الذي لا يمنعه غياب،

وعلى سيرتك الطيّبة في كتاب الأمة الكبير،

ذكريات صداقة عمر
مع الشيخ الجليل والمؤرخ الكبير عبدالكريم غرايبة

◄ الدكتور رؤوف أبوجابر

بدايات الصداقة بيني وبين الراحل الكريم كانت في شهر تشرين الأول عام 1942 عندما التحقت تلميذاً في صف الفرشمن بالجامعة الأميركية ببيروت، بعد أنهيت الصف التاسع في مدرسة المطران بعمان، ولا أخفي أنني وإن كنت حديث العهد بالسفر والاغتراب عن منازل العائلة في عمان واليادودة، فقد كانت معرفتي بالحياة في غير مدن الأردن أفضل من الطلاب الآخرين عموماً لأنني كنت تعرفت إلى أنحاء الأردن من الرمثا إلى البتراء والعقبة في رحلات المدرسة، وسافرت إلى أماكن خارج الأردن حيث اشتملت رحلاتي على زيارتي مرتين إلى الناصرة وحيفا وعكا في ضيافة أخوالي، وزيارة إلى القدس وبيت لحم ورام الله مع فريق كرة القدم في مدرسة المطران، وقضاء شهر مع الوالد والوالدة في ظهور الشوير أثناء الصيفية عام 1939 للاطمئنان على صحة خالي بعد أن أصيب بطلقة نارية في صدره أثناء حوادث الثورة الفلسطينية، وكان يتخلل الرحلات إلى بيروت المرور بدمشق وقضاء يوم أو أكثر فيها.

لذا فإنني لم أكن في اليوم التالي لوصولي إلى بيروت في حاجة إلى معونة للتأقلم مع متطلبات الوضع الجديد، خصوصاً وأن شقيقي الأكبر فرحان كان قد سبقني للدراسة في الجامعة نفسها، وكان قد أسس الكثير من الصداقات في أوساط الطلاب والعاملين في الجامعة والمقاهي المحيطة بالمدخل الرئيس حيث يجتمع الطلاب. ومع ذلك، سررت عندما وجدت عبدالكريم بجانبي متطوعاً لمساعدتي وأنا أقوم بالإجراءات للتسجيل التي كان يشرف عليها المسجّل فريد فليحان، فسهل علي بذلك أموراً متعددة مما دعاني إلى شكره بحرارة ودعوته لشرب فنجان قهوة في مقهى فيصل مقابل الباب الرئيس للجامعة في شارع بلس، وعندها سمعت منه تفصيلات عن حياته في الجامعة خلال السنة الأولى من دراسته فيها.

علمت أنه ينوي دراسة العلوم الحياتية في صف الـ(P.C.B.) وهي المختصر للكلمات Physics, chemistry and biology وكان ذلك عنوان سنة دراسية شاقة يكلف فيها الطالب الذي ينوي دراسة الطب إتمام دراسة معمقة لهذه العلوم، فيوفر على نفسه بذلك سنة دراسية كاملة فيما إذا التحق بالمنهاج العادي في كلية العلوم.

ومرت السنة الدراسية التي التقينا في بدايتها وتوثقت صداقتنا، وأنهى عبدالكريم دراسته بنجاح، فقد كان مخلصاً في الدراسة، وتغلّب بالجد والمثابرة على الصعوبات التي كانت

◄ مؤرخ أردني.

تواجهه في دراسة العلوم الحياتية نتيجة لضعف التدريس لها في الصفوف الثانوية بمدرسة السلط الثانوية التي تخرج منها، بينما واجهتني الصعوبات في دراسة العلوم وخصوصاً الفيزياء للسبب نفسه، ولم أنجح في صف الفرشمان في نهاية العام إلا بصعوبة.

وعدنا في حزيران 1943 إلى إربد وعمان وكانت الحرب العظمى الثانية قد اشتدت، وأصبح التموين في لبنان عملية صعبة، مما اضطر الدوائر الحربية إلى تقنين الخبز، واللجوء إلى توزيع الطحين من النوعية دون المستوى، مما كان يؤدي إلى استهلاك الناس للخبز الأسود الذي تعافه النفس، فكان الأهل في عمان يشفقون علينا ويبعثون إلينا كل حين وآخر بكرتونة مملوءة بخبز القمح والكعك مع السائق الأرمني ابن الحلال ستراك إبراهيميان الذي كان يحب الأردنيين ويقدرهم لحسن استقبالهم لأهله عندما جاؤوا لاجئين، ويحاول جهده رد الجميل عن طريق تقديم الخدمة الجيدة لهم أثناء عمله في قيادة سيارة سبع ركاب على خط عمان– دمشق- بيروت كان يمتلكها كراج أديب الصباغ بشارع فيصل في عمان.

وهنا لا بد من الحديث عن رحلاتنا إلى بيروت والعودة منها في بداية كل سنة، وخلال عطل عيد الميلاد وعيد الفصح، فقد كنا في البداية نسافر بالقطار، من محطة عمان لأهل لوائي البلقاء والكرك، ومحطات المفرق أو درعا لأهل لواء إربد، وخصوصاً في أيام الشتاء عندما كانت السيارات تتعطل لعدة أيام عن السفر إلى دمشق بسبب ارتفاع منسوب المياه في نهر الزرقاء على مقطع جرش، وكانت الرحلة في القطار متعة ولكنها تتطلب يوماً كاملاً للوصول إلى دمشق، إذ إنّ القطار لا يصل إلى محطة القَدم بدمشق إلا حوالي الساعة الخامسة بعد الظهر، وعندها كانت مجموعة الطلاب تحاول العثور على سيارة جاهزة للسفر إلى بيروت، ولكن في أحيان كثيرة كنا نضطر إلى المبيت في دمشق لأن الطريق في المساء لم تكن سالكة في منطقة ظهر البيدر والمديرج؛ وهي المرتفعات الجبلية المطلة على بيروت، وكانت سلطات الأشغال اللبنانية عادة نشيطة في فتح الطريق وتباشر جرافاتها العمل في الصباح الباكر، إلا أنه في إحدى الرحلات –كانون الأول 1943– كان الثلج كثيفاً لدرجة لم تفلح الجرافات في إزاحته، وكانت الطريق ستظل مغلقة لعدة أيام، فنصحنا بعض الأصدقاء في دمشق بأن نسافر بالقطار المتوجه في الصباح إلى معلقة زحلة، وكانت تلك تجربة العمر فقد كان أبطأ قطار في ذلك الزمن ولم نصل معلقة زحلة إلا في الساعة السابعة مساء وقد أظلمت الدنيا، وانقطعت السيارات نتيجة لاستمرار سقوط الثلج بغزارة غير معتادة، وكنا سبعة طلاب فلم ينقذنا من هذا الموقف سوى مرور سيارة «بكب» فيها مع السائق صبيتان من آل حيدر، العائلة المعروفة في بعلبك، وقد لاحظتا لحسن الحظ مسيرنا على الطريق ونحن نحمل أمتعتنا لقطع ستة أو سبعة كيلومترات مشياً على الأقدام في هذا الجو القاسي الذي صاحبه نزول الثلج بدون انقطاع، فطلبتا من السائق التوقف والعودة إلى الوراء وعرضتا علينا الركوب في الـ«بكب» المكشوف لإيصالنا إلى أقرب فندق في زحلة، فشكرناهما على بادرتهما الكريمة وصعدنا إلى الـ«بكب» بكل همة ونشاط للتخلص من ورطة شتوية صعبة، ونزلنا في فندق جراند بزحلة لقضاء تلك الليلة واستئجار سيارة في صباح اليوم التالي لإيصالنا إلى بيروت، وكان مرح عبدالكريم وتعليقاته الساخرة مما هون علينا متاعب هذه الرحلة السندبادية.

في هذه الفترة لم يكن عدد الطلاب الأردنيين في الجامعات كبيراً، وأنا أذكر أن الطالب الأردني الوحيد في بريطانيا كان نعيم عودة القسوس الذي درس الهندسة، أما في بيروت فقد كنا حوالي الأربعين وبيننا طالبتان الدكتورة المرحومة بثينة ملحس والدكتورة هيلدا شعبان أطال الله عمرها، أما في دمشق فقد كان العدد أيضاً في حدود الأربعين يدرسون في الجامعة، وكنا نرى دائماً أعداداً منهم في المطعم المشهور

في ساحة المرجة ولا أذكر أنه كان بينهم أي طالبات، إلا أنني أتذكر من الطلاب المرحومين عبدالوهاب المجالي وعيسى قبعين، والدكتور عبدالسلام المجالي والدكتور فريد عكشه أطال الله عمرهما.

وهنا تحضرني قصة عبدالكريم مع والده المرحوم محمود باشا الخالد الغرايبة(1) الذي كان يحلم بكل إصرار بأن يصبح ابنه طبيباً، وكان عبدالكريم لا يرتاح لدراسة الطب ولكنه تجاوباً مع هذه الرغبة العارمة قام بتسجيل نفسه في تشرين الأول 1944 للدراسة في كلية الطب بعد أن أنهى صف الـP.C.B. بنجاح، وصرنا نخاطبه بلقب الدكتور على أساس أنها دراسة لخمس سنوات يصبح في نهايتها صاحبنا الدكتور الطبيب، فيكون بذلك قد حقق إنجازاً كبيراً وأرضى والده الباشا الذي كان يتحرق شوقاً لرؤية أكبر أبنائه طبيباً يشار إليه بالبنان.

بدأت الدراسة الجدية في أوائل تشرين الثاني من ذلك العام، وشعر صاحبنا بنفور من علم التشريح عندما بدأ هو وزملاؤه في التدرب عملياً في هذه المادة، وفوجئ بأن أعصابه لم تحتمل هذه التجربة، فأصيب بالغثيان مما اضطر الأستاذ إلى السماح له بمغادرة قاعة المشرحة، فقد كانت هذه ظاهرة اعتياديه كثيراً ما ظهرت أعراضها على التلامذة الجدد، ولكنهم بعد جولة أو جولتين كانوا يتغلبون عليها ويعودون إلى دراسة المنهاج بكل عزم وتصميم، وكانت هذه آمال صاحبنا وتطلعاته عندما ذهب بعد عدة أيام إلى الدرس الثاني في مستشفى الجامعة الأميركية وقد ارتدى الروب الأبيض ودخل القاعة متحفزاً لمعالجة الأطراف البشرية المحنطة جزئياً، والتي كانت توضع بتصرف الطلبة لإجراء التجارب عليها، فما شعر إلا والحمّى قد دبّت في جميع أجزاء جسمه بحيث لم يستطع الاستمرار في الوقوف، فحاول الجلوس على مقعد قريب ولكنه انهار وسقط على الأرض، فأسرع الأساتذة والطلبة إلى مساعدته وحملوه رأساً إلى غرفة الإنعاش الفوري، حيث صدر قرار الأطباء بأنه مصاب بالحمى الوافدة التي انتشرت أثناء الحرب العالمية الثانية واسمها حمى الدنجي Dingy Fever، ففرض عليه الحجر الصحي خوف انتشار الحمى وعدم معرفة الأطباء عندها بتفاصيل معالجتها، ومُنعنا عن زيارته مما سبب لنا ألماً وزاد في قلق مريضنا ومعاناته النفسية، واستمرت الحمى الكريهة تهاجم جسده الناحل خمسة عشر يوماً طويلة، فأنهكته وأحوجت صاحبه إلى فترة نقاهة طويلة، فلما عاودته صحته وجد أنّ زملاءه في الصف كانوا قد سبقوه بمراحل في الدراسات الطبية المختلفة، وأنّ ما من سبيل لديه إلى اللحاق بهم تلك السنة، فعافت نفسه الطب ودراسته، واتخذ بنفسه قراره المصيري الصعب وانسحب من كلية الطب في صورة نهائية لا رجعة بعدها، وهو الذي كان قد غادرها نفسياً منذ أشهر خلت رغم ما في ذلك من ألم وحسرة.

سُمح لنا نحن أصدقاؤه وزملاؤه بزيارته أثناء فترة النقاهة، وكنا نشعر معه بكل جوارحنا ونتفهم محنته القاسية، خصوصاً وأنه كان وحيداً لمدة تجاوزت عشرين يوماً، فلما زرناه عصر ذلك اليوم سررنا كثيراً لرؤيته وقد أشرقت تقاسيم وجهه وعادت إليه نضارة كنا نعهدها فيه، فاستبشرنا خيراً وأقبلنا عليه نهنئه على صبره في مقاومة المرض وثباته المعنوي، فابتسم ابتسامة لا تصدر إلا عند انتهاء الشدة وانفراج الأزمة وقال لنا ببساطة متناهية إنه قرر ترك دراسة الطب والالتحاق بقسم التاريخ في كلية الآداب، فأخذتنا المفاجأة على حين غرة واختلف لون بعضنا، فقد كنا نعرف مدى أهمية الطب في حياة عبدالكريم وأهله جميعاً، وحاول اثنان منا سبر غور جديته في هذا الحديث الهام بعد أن ظننا أنها إحدى مزحاته المعروفة، وكان قد أصبح صاحب دعابات ونكات، إلا أن نبرة صوته وتأكيده الجازم بأنه اتخذ قراره بعد تفكير عميق، وبكل جدية وتصميم، جعلتنا

نصدّق هذا الذي نسمع، وفي تلك الساعة شعرنا أن الأحداث أضافت إلى شخصية صديقنا تحولاً أساسياً واضحاً، فقد أصبح عبدالكريم بين عشية وضحاها حازماً بالنسبة للأمور الأساسية لا يساير فيها أحداً، وإنما يسير تجاهها بوحي من وجدانه وعقله كائناً ما تكون النتيجة.

إلا أننا نحن الأصدقاء لم نكن مرتاحين على الإطلاق لهذا التحول الجديد في برنامج دراسة صديقنا وحياته المستقبلية، فقد كنا نعرف مدى تعلق والده الباشا بفكرة الطب والدكتوراه، وكنا على يقين بأن هذه الدراسة سوف تتبعها صعوبات ولن تمر بعفوية، وقد صدق حسّنا، فما هي إلا أيام ثلاثة، حتى وصل بعدها والد صديقنا إلى بيروت تحيط به موجة من الغضب الشديد، بعد أن تناهى إلى علمه أن ابنه الذي كان معقد الرجاء ومحط الآمال قد ترك دراسة الطب إلى الأبد، هذا التطور الذي كان منتظراً فرض على أصدقاء عبدالكريم في الجامعة عبئاً ثقيلاً لم يكونوا مؤهلين لحمله، إلا أنهم انتخوا لمواجهته دون تأخير، فقام وفد منا بزيارة الضيف في فندق ناسيونال بساحة الشهداء، وبعد سلام مقتضب من قبل الباشا بدأنا، وكنا على ما أذكر هاجم التل وفؤاد قاقيش وزهير المفتي وجريس هلسة وفرحان أبوجابر والداعي، في مسايرة غضبه وإقناعه بأن ابنه لم يخلق ليكون طبيباً فقط، وإنما مؤهله العلمي الجيد يسمح له باختيار أي موضوع هام آخر، وأقسمنا له بأغلظ الأيمان أنّ صديقنا، وهو فلذة كبده، لا يرغب في شيء أكثر من رضا الوالدين، وأنه لذلك مصمم العزم على أن يحصل على درجة الدكتوراه في التاريخ، وهو العلم الذي تهواه نفسه ويشعر بأنه سينجح في مضماره على أعلى مستوى. ولم يقتنع الباشا بهذا الكلام، وثار غضبه مجدداً بعد هدوء نسبي، فقد شعر بالخذلان وخيبة الأمل، وأقسم على عودة عبدالكريم إلى البلدة، إلا أنّ رجاء زائريه وتأكيدهم له رغبة ابنه الصادقة في إرضائه رغم المرض والصعوبات مسّت وتر الحنان الأبوي في نفسه، فوافق على مضض وقبل بما قسمت له الأقدار.

هذه الأحداث المؤثرة في حياة صاحبنا كانت باعثاً للإنجاز وإنني اذ أتأمل الآن بعد سبعين سنة في هذا الذي حصل لصديقي أقول بكل صدق وثقة إنّ القول المأثور هو خير وصف لهذه الحالة الغريبة فـ«رُبّ ضارة نافعة».

دامت الصداقة قوية بيننا بعد تخرجنا والتحاق عبدالكريم بالدراسة في جامعة لندن عام 1947 بينما باشرت أنا عملي في حقول التأمين والصناعة بعمان، وبدأ عمله عند عودته من لندن مفتشاً لدائرة الآثار. وفي أحد الأيام من خريف عام 1956 عندما كان مديراً للآثار بعد إنهاء خدمات لانكستر هاردنج، فوجئت به يدخل إلى مكتبي في عمارة ملحس بساحة فيصل وهو يحمل حقيبة متوسطة الحجم، وقال لي: «هذه تحتوي على مجموعة من مخطوطات قمران تمكنت من استخلاصها من بين أيادي تجار العاديات السريان في القدس، وأريدك أن تحتفظ بها أمانة لديك لحين ما أتمكن من إعداد المكان المناسب لوضعها فيه والمحافظة عليها من العبث والسرقة». فأخذتها منه دون أي سؤال، وحملتها إلى منزل الوالد وكان في طلعة الحايك بجبل عمان الجديد، وأدخلتها خلسة إلى غرفة نومي حيث أخفيتها تحت سرير النوم بحيث لا يراها أحد، وبعد يومين جاء عبدالكريم إلى المنزل واستلم الحقيبة وأعادها إلى الغرفة التي كان قد جهزها لحفظ هذه الآثار القيّمة في المتحف الأردني بعمان.

فترة الخمسينات كانت فترة عدم استقرار في حياة صديقي، فقد تنقل أثناءها بين عمان ودمشق وبيروت عدة مرات، كما أنه درّس بعدها في جامعة الملك سعود بالرياض حيث قمت بزيارته في مطلع العام 1962، ولذا فإنه لم يستقر إلا في أواخر ذلك العام عندما صدرت الإرادة الملكية في 1962/9/18 بتعيينه أستاذاً في قسم التاريخ، بحيث كان أول



صورة لحضور الحفل الذي أقامه الدكتور عبدالكريم غرايبة في متحف الجامعة الأردنية حسب عادته في التواصل مع الطلاب

عضو هيئة تدريس يعيّن في الجامعة الأردنية بعد أن كانت الارادة الملكية السامية قد صدرت بتأسيسها في 1962/9/2، وقد كُتب الكثير عن إنجازاته في حقول التعليم والإدارة، وخصوصاً عندما كان يعيَّن عميداً لكلية الآداب أو نائباً لرئيس الجامعة، إلا أنني يجب أن أنوّه بالطبيعة الريادية التي اكتنفت نشاطه هذا، فقد كان أول من وجه النظر إلى أهمية دراسة الوثائق العثمانية بالنسبة للتاريخ العربي بعد أن استمر الحكم العثماني عندنا لأكثر من أربعمائة سنة، وكان أول من استخدم السجلات الشرعية في أطروحة الدكتوراه من جامعة لندن عام 1950، كما وجّه النظر إلى أهمية الدور الأميركي في سياسات الشرق الأوسط بدءاً من القرن التاسع عشر، ولذا قام بزيارة مطولة إلى مكتبة الكونجرس بعد سنة دراسة كاملة قضاها في تركيا، وكان له شرف تأسيس مؤتمر بلاد الشام كمشروع علمي قومي تشرف عليه الجامعة الأردنية بالاشتراك مع جامعة دمشق منذ نيسان في العام 1974، وكذلك تأسيس مركز الوثائق والمخطوطات في مكتبة الجامعة، وتأسيس متحف الآثار ومتحف التراث الشعبي الأردني في الجامعة. وقد أكد الرئيس الثاني للجامعة الأردنية دولة الدكتور عبدالسلام المجالي هذا الدور عندما قال: «أقول في منتهى الصدق إنّ الكثير من الأفكار التي تدور في الجامعة هي بنات أفكار الأستاذ عبدالكريم غرايبة.»(2)

وهنا سأتكلم عن دوره في تقوية عوامل التواصل بين الأساتذة من جهة، وبينهم وبين الطلبة من جهة أخرى، فقد كان رحمه الله الرائد في هذا الحقل، وكان يقيم في المناسبات وفي نهاية كل عام دراسي حفلات في بيته أو في مطعم الجامعة يدعو إليها عدداً من الأساتذة وتلاميذه، وكان يدعوني إليها مما سمح لي بالاطلاع على الأحاسيس الكريمة التي كانت تدفعه إلى بذل هذا الجهد الكبير للتعرف على شخصيات تلاميذه، وسبر أغوارهم، وإعطائهم الفرصة للكشف عما يعتمل في نفوسهم من عوامل إيجابية كان يبذل جهده لتنميتها، وعوامل سلبية كان أيضاً يبذل جهده لإزالتها.

وأنا أعرف عن حالات عديدة كان يسعى فيها لمساعدة طالب أو طالبة للتغلب على ظرف طارئ، وفي اعتقادي أنّ هذه الخصلة المميزة قد تعلمها من رئيسنا الفذ في الجامعة الأميركية المرحوم الأستاذ بيارد دودج الذي كان يقوم بهذه

الواجبات، ويستلم في نهاية كل عام أتعابه من مجلس الجامعة في احتفالٍ خاص يقام في أكبر قاعة، ثم يسير مشياً على الأقدام لإيصال هذه الأتعاب، وهي عبارة عن جنيه ذهبي في علبة خاصة، ليقدّمها هدية منه إلى «أبو معروف» أقدم البوابين على الباب الشرقي للجامعة الذي كنا نسميه الـ Medical Gate مؤكداً بهذا العمل أنه لا يتقاضى أجراً.

كان أخي أبو الرائد العربي الأصيل بكل ما في الكلمة من معنى وطنياً، مؤمناً، واثقاً من نفسه ومن عظمة أمته وحتمية اصطلاح أمورها، وقد أجاد المرحوم الدكتور عبدالعزيز الدوري عندما قال في مقدمة الكتاب الذي ضم كل ما قيل عنه في ندوة مؤسسة شومان عام 2006:(3)

«ويبدو للقارئ من ثنايا كتاباته أنه عربيّ الهوية، وطنيّ الوجهة، إنسانيّ النزعة، فقد ألقى محاضرة عام 1959 عن تطور مفهوم النضال العربي في نصف قرن تناول فيها الكفاح العربي في سبيل الحرية والتحرر من الاستعمار البريطاني والفرنسي، وكتاب عن تاريخ سوريا في القرن التاسع عشر وفيه بواكير الوعي العربي وبدايات النهضة، وكتب عن أفريقية العربية في النصف الأول من القرن العشرين، وللعنوان دلالته إذ هي فترة التنبه والصراع في سبيل التحرر والاستقلال، وكتب عن تاريخ العرب الحديث؛ وهنا تناول المشرق والمغرب معاً ليبحث تاريخ العرب الحديث متكافلاً، وفي ذلك نبرة عربية، هذا إلى اهتمامه بالقضية الفلسطينية والإشارة إليها في أكثر من موقع».

رغم هذا التوجه الوطني أجد من المناسب الإشارة إلى أن المؤرخ الكبير لم يقم طيلة حياته بالانضمام إلى حزب ما، مع أنه واكب تطوُّر حركة القوميين العرب في الجامعة الأميركية بقيادة الدكتور قسطنطين زريق، وفيما بعد كانت هنالك فرص كثيرة لاتصاله بقيادات حزب البعث مثل الأستاذ ميشيل عفلق والأستاذ صلاح البيطار في دمشق والأستاذ أنطون سعادة رئيس الحزب السوري القومي في بيروت، أثناء قيامه بالتدريس في الجامعة السورية، ناهيك عن اتصالات الحزب الشيوعي والحزب القومي السوري وحركة الإخوان المسلمين وحزب التحرير الأردني، وفي تقديري أنّ هذا الموقف كان ينبع من رغبته في الاستقلالية وعدم الالتزام بمتطلبات شروط العضوية التي قد تؤدي إلى حجز الحرية الفكرية بشكل أو بآخر، إلا أنّ هذا الموقف لم يمنعه من المشاركة بحماسة كبيرة في المظاهرات التي قمنا بها نحن طلاب الجامعة الأميركية أثناء اشتعال الحركة الوطنية اللبنانية في تشرين الثاني 1943، ولن أنسى محاولتنا نحن الاثنين تسلُّق حائط ارتفاعه ثلاثة أمتار للهرب من رصاص بنادق السنغاليين المرتزقة أمام مكاتب الجنرال سبيرز ببيروت.



الدكتور عبدالكريم الغرايبة في حفل تقديم وسام جوقة الشرف الفرنسي للآداب والفنون للدكتور رؤوف أبوجابر في السفارة الفرنسية.

أما النزعة الإنسانية لدى الصديق الوفي، فإنني أشهد أنه خلال سبعين سنة كاملة لم يظهر منه قط أي تعصُّب، فقد كان دائماً كريم النفس منفتحاً واسع الأفق متسامحاً، يتقبل سماع وجهة النظر الأخرى بكل اهتمام، ثم يبدي وجهة نظره الشخصية مؤكداً بذلك حق كل إنسان في حرية الرأي، وقد أكد الدكتور الدوري هذا الاتجاه عندما قال عنه:(4) (وهو في نقاش مع طلابه يؤكد هذا المعنى، إذ يقول: «وحاولتُ جاهداً



الدكتور عبدالكريم الغرايبة مع أمين عمّان معالي السيد عقل بلتاجي

أن أوضّح لهم أن رسالة الإسلام والعروبة هي رسالة تسامح ومحبة وسلام، لا رسالة تعصُّب وحقد وانتقام، وأنّ عليهم أن يدركوا أن الحرية، بما فيها حرية الرأي، حق للجميع، ولذا لا يصح اتهام من خالفهم الرأي بالخيانة والرجعية، وأن مثل هذا التوجه ليس وطنية ولا تقدمية»).

ولا يفوتنا، ونحن نتحدث عن هذه الشخصية النادرة، أن نذكر الجانب المرِح في حياته، وقد كان رحمه الله خفيف الظل وصاحب «نكتة»، يلمح المُضحِك في أمور كثيرة، وكانت له «نهفات» وقولات مأثورات كنا نحن أصدقاؤه نتلذذ بسماعها، مما دعا صديقه توفيق مرار الذي تزامل وإياه أثناء دراستهما في لندن إلى أن أطلق عليه لقب «الدكتور عبدالكريم عجايبه» عنواناً لهذه المعلومات الغريبة التي يلاحظها ويطرحها للبحث والتداول، وكانت قصة الوطني المجاهد رمضان شلاش إحدى القصص المحببة إلى نفسه، وأذكر أنه في آذار 1943 دعاني لمرافقته في زيارة إلى منزل رمضان ومعنا المرحوم غازي هاشم خير، الطالب معنا في الجامعة، فزرناه واستمعنا إليه أكثر من ساعة وهو يتحدث عن الهاشميين ووجوب الإخلاص لهم، ونصيحته لنا نحن الطلاب في عدم التمادي في انتقاد الأوضاع، وأنه شكانا إلى رئيس الجامعة بيارد دودج(5) من إطلاق العنان للحرية بين الطلاب حفاظاً على سلامتهم، مما دعا بالرئيس إلى توجيه كتاب إلى الطلاب حذرهم فيه من التمادي الذي قد يعرض أهاليهم في الأردن للأذى، وكانت لهذه القضية ذيول عندما تمت المقابلة مع رمضان شلاش مصادفة أثناء لقاء عبدالكريم للدكتور صبحي أبو غنيمة في مقهى الطاحونة الحمراء بدمشق، وما تبين له أثناء إجراء أبحاثه الدراسية في لندن عن ذكر لهذا المجاهد من قبل الزعيم البريطاني ونستون تشرشل وعلاقاته المزعومة مع لينين ومصطفى كمال.

إلا أنّ مواجهاته الجدية في سبيل الوطن العربي كانت تتجاوز هذا المجال، وخصوصاً بعد النشاط الذي قام به أثناء دراسته الجامعية في لندن 1947-1950، فقد كتب إلى رئيس الوزراء الاشتراكي الماجور كلمنت اتلي مطالباً بسحب كلوب باشا ودياً وبهدوء بعد أن أورد ملاحظات على تصرفاته، وكان قد ابتهج عندما عجّل قرار المغفور له جلالة الملك الحسين بإنهاء خدمات كلوب على تحقيق خطبته وزواجه، وكان قد أوصل لجلالة الملك الحسين معلومات عن نشرة ضد الحكم وزعها كلوب قبل أربعة أشهر، وفي الأربعينيات كانت له مواجهة مع رئيس الوزراء توفيق أبو الهدى عندما كان الحديث عن غور الحرامية والرشوات في الأغوار، وكان مؤرخاً صريحاً عند ذكر قضايا حسّاسة كالخاوة التي كانت تفرضها قبيلة بني صخر على قرايا الشمال، والحرابة بين الرعية والفلاحين، وبعدها القتال بين بني صخر وحلف أهالي الرمثا والشمال بعد مقتل صالح الصالح الخريشة، وعن علاقة المغفور له الملك عبدالله الأول ببني صخر، وأقرّ أنه تورط بأجوبة غير لائقة لكل من جلالة الملك عبدالله الأول وجلالة الملك الحسين، وفي السنين الأخيرة اتصالاته مع توني بلير رئيس الوزراء البريطاني. أما عن خدماته من خلال عضويته في اللجنة القانونية بمجلس الأعيان عام 2006 فتتحدث عن نفسها، وهذه جميعاً موثقة في كتاباته، ناهيك عن العلاقة الوديّة التي كانت تربطه مع الشخصية الهامة في الأردن لفترة طويلة المرحوم بهجت التلهوني رئيس الوزراء.

صديقي العزيز كان معجباً باصطلاح استحدثه للأغلبية الصامتة في مجتمعنا العربي، حيث أسماها «العفش»، كما أنه استحدث لي وصفاً حيث أطلق عليّ لقب «الصديق العتيق»، وقد كانت لي متعة الدراسة معه وبإشرافه، فقد كان رئيساً لقسم التاريخ في العام 1982 عندما التحقت لدراسة الماجستير في التاريخ الحديث في الجامعة، وكان له فضل إسداء النصائح بالنسبة للمواد وكيفية إجراء البحوث، والأهم من ذلك كله التوجه نحو الأستاذ الكبير الدكتور عبدالعزيز الدوري كي يشرف جزئياً على الدراسة، مما كان له أكبر الأثر في نفسي امتناناً لكليهما. ولا أنسى أنّ الدكتور عبدالعزيز رحمه الله أعجبه نشاطي ومثابرتي في ملاحقة شؤون الدراسة، فقال عفوياً: «أريدك أن تتذكر دائماً أن الطلاب في عمر مثل عمرك (وكنت عندها في الستين) يكتبون أبحاثهم بشكل أفضل نظراً لما اكتسبوه من خبرة وما أتيح لهم من معرفة وأخبار، فسر على بركة الله». أما الصديق العتيق أبو الرائد فقد شجعني على متابعة الدراسة، وسُرّ كثيراً عندما أبلغته أنني التحقت بجامعة أكسفورد لدراسة الدكتوراه، ولم يكن منه سوى أن قال: «مبروك الله يوفقك، لكن كيف سيدنا ندير أمورنا معك بعد أكسفورد».

رحم الله فقيدنا الكبير، فقد خسرنا كثيراً بفقده، وكلي أمل أن تستفيد أجيالنا القادمة من عمله ودراساته ومن الأرشيف الذي تركه في رعاية جامعة العلوم الإسلامية العالمية وفقها الله.

الهوامش:

1- كنت قد بدأت الكتابة عن هذا الموضوع عندما عثرت على ورقة كتبتها في الخمسينيات، ففضلت لذلك العودة إليها ونشرها كاملة لأن كتابتها كانت أقرب إلى الحدث وتعطي صورة أوضح عن الأحاسيس والانفعالات في تلك الأثناء.

2- عبدالمجيد زيد الشناق، ذاكرة وطن – عبدالكريم غرايبة – مؤرخاً عربياً، جامعة العلوم الإسلامية العالمية، عمان 2014، ص (8).

3- الشيخ عبدالكريم غرايبة – مؤرخاً ومعلماً وإنساناً

- مراجعة وتقديم د. عبدالعزيز الدوري

- مؤسسة عبدالحميد شومان، عمان 2006، ص(7).

4- المرجع السابق، ص (9).

5- ذاكرة وطن، ص (113).

الدكتور عبد الكريم غرايبة: المعلم المتميز والإداري الفريـد

د. علي محافظة

عرفت الدكتور عبد الكريم محمود الخالد الغرايبة، لأول مرة، في خريف سنة 1958، في مطلع السنة الدراسية في قسم التاريخ بكلية الآداب في جامعة دمشق. كنت في السنة الأخيرة من دراستي الجامعية لنيل الإجازة في الآداب- تخصص التاريخ. كانت سنوات الدراسة في قسم التاريخ في الجامعة السورية التي اتخذت اسم «جامعة دمشق» بعد قيام الجمهورية العربية المتحدة التي ضمّت مصر وسوريا في مطلع سنة 1958، شهادة الثقافة العامة، وشهادة التاريخ القديم، وشهادة تاريخ العرب والإسلام وأوروبا في العصور الوسطى، وشهادة التاريخ الحديث. كنا نحو عشرين طالباً وطالبة في تلك السنة. وكان الدكتور غرايبة يدرّسنا مادتي: تاريخ العرب الحديث، وتاريخ شمال أفريقيا في القرن العشرين.

ما أزال أذكر دخول الدكتور غرايبة إلى قاعة التدريس في مبنى الجامعة السورية القديم في حي البرامكة بدمشق، لأول مرة. رجل قصير القامة، أبيض البشرة، تعلو أنفه الصغير نظارة طبية كبيرة تحتل مساحة واسعة من وجهه، يمشي خبباً، حاملاً حقيبة جلدية بنية اللون على شكل مروحة مليئة بالكتب والأوراق وقصاصات الصحف. كان من عادته أن ينثر بعض ما فيها أمامه على المنضدة المخصصة للمحاضر، ويبدأ بقراءة ما تحتويه من نصوص ومعلومات، ويسألنا عدة أسئلة حول ما جاء في هذه النصوص، فيثير اهتمامنا ويشيد انتباهنا إليه. ويبدأ معنا نقاشاً من أول الحصة الدراسية حتى نهايتها. وقلما كنا نتوصل إلى حقيقة تاريخية من هذا النقاش. كان يثير شكوكنا في كثير من المعلومات التاريخية التي كنا نعتقد أنها حقائق ثابتة. قضيت عاماً ممتعاً حتماً مع أستاذنا الغرايبة، انتهى بدعوته لجميع طلبته إلى منزله بدمشق، حيث تناولنا الحلويات والشاي، وتعرّفنا على زوجته بهيمان وولده رائد.

بين معلمي الذين علموني في الكتّاب والمدرسة الابتدائية والمدرسة الثانوية وفي جامعة دمشق وجامعة بون وجامعة السوربون بباريس، يحتل عبد الكريم غرايبة مكانة خاصة. فهو فريد في طبعه وسلوكه مع الطلبة، وفي طريقة تدريسه، وفي مؤلفاته التاريخية، وفي أسلوب نقاشه وجدله. والواقع أن مظهره لا يوحي بهذه الفرادة. فهو، كمعظم الأردنيين، تتسم

مؤرخ وأكاديمي أردني.

ملامح وجهه بالجدية الصارمة، لا يبتسم إلا عند الضرورة، ولا يضحك إلا لنكتة لاذعة أو لمفارقة مثيرة أو لمنظر أو موقف هزلي. وهو متحفظ في الإدلاء برأيه أمام من لا يعرفهم، ومنفتح على معارفه وأصدقائه. يهوى الطرائف والملح، يرويها بطريقته الخاصة التي تشنف الآذان وتوقظ الأذهان. له ولع بجمع الطرائف والملح والأخبار عن الدول والأمم والأفراد، يعرضها بطرق فنية مختلفة تثير اهتمام المستمعين وشوقهم لاستماع المزيد منها.

ذاكرته مخازن واسعة للأحداث والسنين والأيام والذكريات والمواقف، وهي قلّما تخونه. وقد اعتاد تقويتها برواية الأحداث والذكريات مراراً دون زيادة أو نقصان. لم تتمكن السنون من إضعافها أو تشويشها، فبقيت صافية نقية وحاضرة دوماً.

قراءته للنصوص والروايات التاريخية والقصائد والمؤلفات الأدبية تختلف عن قراءة غيره من المؤرخين، باعتبارها مصادر أولية أو رئيسية لكتابة التاريخ. يستنبط منها أفكاراً ومواقف واتجاهات لا تخطر ببال غيره من المؤرخين. لذلك جاءت مؤلفاته في كتابة تاريخ العرب الحديث مختلفة في فحواها وفي معالجتها للقضايا والأحداث عن المؤلفات العادية للمؤرخين المعاصرين له. سعى عبد الكريم غرايبة في دراساته للتاريخ العربي الإسلامي إلى ربط الحاضر بالماضي، وكشف التشابه في المواقف عند تشابه الظروف والأحوال. ويبرز الأحداث والمواقف التي فيها دروس وعبر للناس حكاماً ومحكومين. وهو وإن كان يعتبر كتابة التاريخ وتدريسه في المدارس والجامعات خطراً على البشرية باعتبار أن كتابته وتدريسه يثيران الأحقاد والكراهية بين الأمم والشعوب، فقد جعل من كتابه في «تاريخ العرب والأتراك» تطبيقاً لاقتناعه بضرورة التفاهم بين الأمتين العربية والتركية. ونال رضى المؤرخين الأتراك المعاصرين وإعجابهم.



الشيخ المعلم عبدالكريم غرايبة

كان معلمنا يتمتع بحس قوي للسخرية، وقدرة على عرضها تثير الإمتاع والإعجاب. وهو، فوق ذلك، جريء في طرح أفكاره وإصدار أحكامه، لا يتردد في البوح بالأسرار والحقائق بطريقته الخاصة. فهو لا يحب الكتابة المباشرة في هذا الصدد، وإنما يلجأ إلى الرموز أو الأشعار أو الأمثال أو التلميح للتعبير عما يريد.

أما طرقه في التدريس فمتعددة ومتباينة، فيها إثارة وتشويق وحب استطلاع. فقد يأتي بقصاصات من الورق تحتوي على رواية تاريخية، أو بضعة أبيات من الشعر، أو قطعة من النثر الأدبي، أو خطبة لزعيم أو قائد أو مفكر، أو تصريح لسياسي أو ملك أو أمير، يقرأها على تلامذته، ويبدأ بطرح الأسئلة حولها، ويدفع الطلبة إلى الدخول في النقاش والجدل.

شــهـادة

أ. د. أحمد ماضي

مَنْ مِنَ العاملين في الجامعة الأردنية، أساتذة وموظفين، لم يعرف الراحل الشيخ المعلم عبد الكريم غرايبة، أبا الرائد، في العام 1970، العام الذي تعيّنت فيه بقسم الفلسفة وعلم الاجتماع؟ كان، منذ ذاك التاريخ، وأظن قبله، إذ تعيّن في العام 1962، العام الذي تأسست فيه الجامعة الأردنية، لافتاً للنظر بحضوره في أي مكان، يتواجد فيه. وكان قبل تأسيسها قد عمل بجامعة دمشق؛ وهناك تزوج امرأة فاضلة تنتمي إلى إحدى الأسر الشامية البارزة، لم ينجب منها سوى ولد واحد درس الطب بموسكو، ثم تخصص في الأمراض النسائية والتوليد في إنجلترا، وعاد ليتعين في مستشفى الجامعة الأردنية. كان د. رائد ابناً مدللاً عند والديه، لدرجة أن الوالد سجّل ملكية عمارة مشغولة من قبل السفارة الرومانية باسمه، أمّا أم الرائد فقد كانت ذات تأثير كبير جداً في شخصية الشيخ المعلم، لذلك، وجّهت وفاتها ضربة قاصمة لنفسيته بخاصة، وحياته بعامة. لقد تيتّم من ناحيتين، تيتّم كزوج، من جهة، وتيتم بفقدها كمستشارة له، من جهة أخرى، إذ كان رحيلها ذا أثر سلبيّ كبير جداً. في ذلك العام، عام 1970، والأعوام التي تلته، كنا، أنا وآخرون من الأساتذة، نحرص أشد الحرص على أن نؤم المجلس الذي يكون فيه. كان إنساناً فريداً في شخصيته، يجذبك في آراءه، وفي فهمه الخاص للتاريخ. وكانت أغلب اللقاءات تتم في نادي أعضاء الهيئة التدريسية، قبل أن يتوحد هذا النادي مع نادي الموظفين، ويصبح نادياً واحداً مشتركاً. ومنذ ظهور النادي المشترك ندرت اللقاءات، لأن النادي الأكاديمي فقد خصوصيته. كنا في هذا النادي نتحدث ونتحاور ونمزح.. و.. و.. بحرية، ولا سيما أن عدداً من الأساتذة كان ينتمي إلى اتجاهات أيديولوجية مختلفة. أذكر على سبيل المثال بعض الأسماء د. محمد صقر (من جماعة الإخوان المسلمين)، الراحل د. منذر عنبتاوي (من حركة القوميين العرب)، د. إسماعيل عبد الرحمن وأنا (من الشيوعيين السابقين)، د. سعيد التل (مستقل ذو ميل ديني معتدل ومنفتح). بيد أن النادي المشترك صار يحول دون هذه اللقاءات والحوارات، الأمر الذي أدى إلى أن يقتصر النادي على الموظفين، من دون قصد من أحد، من الفئتين.

ازدادت صلتي بالشيخ المعلم وقويت، عندما كان عميداً. فاجأني وأنا في مكتبي، أقوم بعملي بوصفي رئيساً لقسم الفلسفة، قائلاً لي: «خيّو، (يعني يا أخي) - وهي الكلمة التي كانت مفضلة لديه - أريد أن تكون نائباً لي، فوافقت، في حينه، على مضض، لأن العرف الجامعي يفضل رئاسة القسم على نيابة العميد، حيث إنّ رئيس القسم منصب يعدّ أكاديمياً، أما نيابة العميد، فهي منصب إداري؛ وما هو أكاديمي في نظر الحريص على الأكاديمية يعلو على الإداري. ومع أنني قبلت، على مضض، إلاّ أن الوقت أثبت لي أن العمل معه بصورة مباشرة، ويومية، مفيد، لباعه الطويل في المجالين الأكاديمي والإداري، من ناحية، ومن ناحية أخرى، لأنه وثّق علاقتي به، وبتُّ أعرفه عن كثب.

وفي الوقت الذي كنت فيه نائباً للعميد، كنت رئيساً للجنة البحث العلمي والشؤون الثقافية في الكلية.

كاتب ومفكر أردني.



الشيخ المعلم عبدالكريم غرايبة

كان المعلم الشيخ يثق في ثقة لا يساوره أدنى شك فيها؛ وبصراحة لا أعلم من أين له هذه الثقة. وكنت وفياً لهذه الثقة، ولم أخيّب ظنه فيّ. لقد فوّض بتوجيه كتاب رسمي ونسخة منه إلى رئاسة الجامعة جلّ صلاحياته لي. وفي الحق أنه عاملني باحترام وتقدير كبيرين، وكنت، بدوري أعامله بوصفه معلماً كبيراً، وأخاً أكبر. كنا نختلف، أحياناً، لأنني كنت معتداً بآرائي التي اتبناها، في العادة، بعد تمحيص وتقليب لها على عدة وجوه. وكان الاختلاف لا يُفسد للود بيننا قضية، إذ كان «يراضيني»، عندما يقع الاختلاف.

كان الشيخ المعلم كبيراً في معاملة الدكاترة والموظفين، داخل الكلية، وخارج أسوار الجامعة، وحريصاً أشد الحرص على سمعة الكلية، وكأنها كليته، وليست إحدى كليات الجامعة. وفي ضوء هذه المعاملة لم يكن يتوانى عن إسداء المساعدة «لرعيته»، مهما تكن. لقد كان راعياً لهم، بحق وحقيق.

كان أحق من غيره أن يكون رئيساً للجامعة الأردنية، أو لإحدى الجامعات التي تعد حكومية، مع أنها ليست كذلك، بيد أن «الحظ» ! لم يحالفه. وفي اعتقادي أن سبباً من الأسباب التي حالت دون ذلك يكمن في أنه كان حريصاً كل الحرص على الاستقلالية في آرائه وسلوكه.

إن الحديث عن الشيخ المعلم ذو شجون، لذلك أكتفي بذلك، مؤملاً أن تنظم أقسام التاريخ في الجامعات الأردنية ندوة تفرد لأعماله العلمية، في المقام الأول.

وأختم قائلاً إن الشيخ المعلم غاب عنا بجسده، ولكنه لم يغب بروحه، لأنه سيبقى في ذاكرتنا ما حيينا.

الأستاذ الدكتور عبد الكريم الغرايبة... المعلم الإنسان

الدكتور جورج فريد طريف

شاءت الظروف أن أتتلمذ على يدي أستاذنا الشيخ المعلم عبدالكريم الغرايبة رحمه الله خلال مراحل دراستي الجامعية كلها، ابتداءً من مرحلة البكالوريوس ومروراً بمرحلة الماجستير وانتهاءً بمرحلة الدكتوراه، وقد كان مشرفي على رسالة الماجستير، إلا أن انشغاله بالأعمال الإدارية عندما أصبح عميداً للآداب حال دون إكمالي الرسالة معه، وتحولت إلى الأستاذ المرحوم نيقولا زيادة، وفي مرحلة الدكتوراه كان أحد الذين ناقشوا رسالتي، وشاركه الأستاذ الكبير عبد العزيز الدوري رحمه الله، والأستاذ الدكتور الفاضل علي محافظة، وأستاذنا الجليل محمد عدنان البخيت الذي أشرف على الرسالة، وكان ذلك في العام 1993، ولا أنسى لحظة منحي شهادة الدكتوراه عندما وقف الدكتور الغرايبة في نهاية المناقشة وقال: «مبروك يا دكتور جورج».. كم كان فرحي كبيراً في تلك اللحظة.. وهي المرة الأولى التي أسمع فيها لقبي على لسان شيخ المؤرخين الأردنيين.

الولادة والنشأة

ولد عبد الكريم الغرايبة في العشرين من حزيران من عام 1923 في قرية المغير شمال محافظة إربد، وهو الابن الأكبر لشيخ عشيرة الغرايبة المرحوم محمود باشا الخالد الذي كان يعمل مديراً لناحية عجلون، ثم أصبح قائمقام في عدة مناطق منها جرش ومأدبا، وفي فترة الأربعينيات شغل منصب رئيس بلدية إربد، وخلاصة القول إنّ الدكتور عبد الكريم الغرايبة وُلد لعائلة معروفة ومرموقة، وتقدر العلم والمتعلمين.

وحول ولادته تحدّث الدكتور عبد الكريم الغرايبة قائلاً: ولدتُ في قرية المغير بالقرب من إربد وكان عدد سكان القرية لا يزيد عن 200 نسمة، وأُطلق عليّ اسم عبد الكريم كغيري من الأطفال الذين ولدوا في تلك الفترة نسبة إلى عبد الكريم الخطابي؛ المغربي الذي قاد ثورة ضد الاسبان وهزم جيشهم وأسس جمهورية الريف وذاع صيته في الوطن العربي كبطل بارز حارب المستعمر، وتم طرده بعدها واعتقاله ونفيه إلى جزيرة في المحيط الهندي إلى أن قام المصريون بتهريبه وعاش في مصر إلى حين وفاته.

واستناداً لأقوال الدكتور عبد الكريم الغرايبة فقد تلقى تعليمه الأولي (القرآن الكريم ومبادئ الحساب والقراءة والكتابة) في كتّاب القرية على يد الشيخ علي الخليل الحوراني، ودرس الصفوف الأول والثاني والثالث في عدة مدن أردنية بحكم تنقل والده في عمله من مكان لآخر وتعدد مواقع إقامته، أما الصفوف من الرابع إلى الثامن فقد أتمها في إربد، وبعد اجتياز الصف الثامن انتقل إلى مدينة السلط وذلك عام 1939 حيث التحق بمدرستها الثانوية العتيدة والتي تخرج منها معظم رجالات الرعيل الأول في الدولة الأردنية.

وأتم الصفين التاسع والعاشر في السلط، وتخرج منها حاصلاً على شهادة الدراسة الثانوية عام 1941، وكان أحد الطلاب العشر الأوائل في دفعته، وقد زامل كلا من أحمد الهنداوي وجميل زريقات وفؤاد قاقيش ويعقوب الزيادين، بعد ذلك انتقل لمتابعة دراسته الجامعية في بيروت، فقد كان أحد

مؤرخ وأكاديمي أردني.

طلاب الجامعة الأميركية المرموقة، وملأت والده رغبة شديدة بأن يدرس نجله الطب ليصبح طبيباً معروفاً في مدينة إربد، وليزداد فخر ذويه وعائلته به، وبالفعل فقد التحق عبد الكريم الغرايبة عام 1944 بكلية الطب استجابة لرغبة والده، وخلال أحد دروس التشريح شعر الدكتور الغرايبة بحمى شديدة تجتاح جسده، فما كان منه إلا أن انهار وسقط على الأرض، فتم إرساله إلى غرفة الإنعاش الفوري ليتبين أنه مصاب بمرض الحمى الوافدة والتي انتشرت أثناء الحرب العالمية الثانية، وهي (حمى الدنجي) فتم فرض الحجر الصحي عليه، وبعد أن استرد صحته وعافيته، عاد لمتابعة دراسته، واكتشف أنه قد فاته الشيء الكثير من الدروس والمحاضرات وليس لديه أي فرصة للحاق بزملائه، حين ذاك اتخذ قراراً مصيرياً صعباً، وهو الانسحاب من كلية الطب والالتحاق بكلية الآداب لدراسة التاريخ.

الحياة العلمية والعملية

كان اهتمام الطالب الجامعي عبد الكريم الغرايبة أثناء دراسته التاريخ في الجامعة الأميركية بمتابعة أخبار الأردن وأخبار التطورات السياسية، وخاصة أحداث الحرب الكونية الثانية وتأثيراتها على الأردن والوطن العربي، وكان هذا الشاب الوسيم القصير والأشقر، كما يقول عنه أصدقاؤه، ملفتاً لنظر زملائه الأردنيين الذين درسوا معه في الجامعة الأميركية في بيروت، ومن بينهم الدكتور رؤوف أبو جابر وأحمد الهنداوي وجميل زريقات وفؤاد قاقيش ويعقوب الزيادين، ولم يزد عددهم عن 30 طالباً، كان شاباً نشيطاً مثقفاً ومرحاً، حاد الذاكرة، يضفي على الجلسات الشبابية أجواء من المرح من خلال سرده للأحداث بدقة متناهية وبأسلوب ساخر.

حصل عبد الكريم الغرايبة على درجة البكالوريوس في التاريخ عام 1947، وعاد إلى أهله واستقبلوه بحفاوة بالغة، بعدها قام بمراسلة جامعة لندن ليقوم بدراسة الدكتوراه فيها، وبالفعل فقد قوبل طلبه بالموافقة بعد أن نجح في اجتياز امتحان الكفاءة لخريجي الماجستير؛ حيث أنه لم يكن حاصلاً إلا على درجة البكالوريوس، وقد قامت الحكومة بابتعاثه بمنحة حكومية خلال سنوات دراسة الدكتوراه مقابل الحصول على تعهد منه بالعمل لدى الحكومة بعد إكمال الدراسة، وقد تتلمذ في جامعة لندن على يد أساتذة معروفين منهم البروفسور ماكس مالوان والدكتور برنالد لويس والدكتور جوردون ستايلد.

كان حريصاً على متابعة التطورات في الأردن، وتظهر شدة انتمائه ووطنيته من خلال الشكوى التي تقدم بها في فترة دراسته في لندن، وتحديداً في العام 1948، ضد كلوب باشا، حيث قام بإرسال رسالة إلى رئيس وزراء بريطانيا آنذاك كليمنت أتلي وطالبهُ فيها بإخراج كلوب باشا من الأردن، ولكن أتلي أجاب بأن الأردن بلد مستقل ولا يمكننا التدخل في ذلك، وأن كلوب باشا متعاقد مع الدولة الأردنية.

تناولت رسالة الدكتوراه لأستاذنا العلاقات التجارية بين إنجلترا والدولة العثمانية في أواخر القرن الثامن عشر الميلادي، وكان من الطلاب القلائل الذين استخدموا مراسلات التجار المحفوظة في المتحف البريطاني، كما استفاد من المصادر العربية المتعلقة بالموضوع، عاد الدكتور عبد الكريم الغرايبة إلى وطنه ليكون أول أردني يحمل شهادة دكتوراه عام 1951 وليعمل مفتشاً في دائرة الآثار الأردنية التي كان يرأسها المرحوم لانكستر هاردنج.

وخلال هذه الفترة كانت الجامعة الأميركية تطرح برنامجاً للقيام بأبحاث تاريخية جغرافية لمنطقة بلاد الشام لمدة ستة أشهر، وبالفعل فقد التحق بالجامعة الأميركية في نيسان عام 1953، واتصلت جامعة دمشق وعرضت عليه التدريس فيها بلقب أستاذ زائر في تاريخ العرب الحديث لمدة سنتين، ليعود بعد ذلك إلى وطنه الأردن للعمل بمنصب رئيس لقسم التشريع في ديوان الموظفين، لم يبقَ في هذه الوظيفة التي لم يقتنع فيها طويلاً، وبعد شهرين جاء طلب إلى الحكومة الأردنية من الحكومة السورية ليقوم الدكتور الغرايبة بالتدريس في جامعة دمشق نظراً لحاجة الجامعة لجهده العلمي.

وفي العام 1956 عاد الدكتور الغرايبة إلى عمان ليتم تعيينه مديراً عاماً لدائرة الآثار، وأثناء وجوده في سوريا نشر الدكتور الغرايبة مجموعة من المؤلفات العامة منها:

- تطور مفهوم النضال العربي ضد الاستعمار، 1959.
- مقدمة تاريخ العرب الحديث، 1960.
- الجزيرة العربية والعراق، 1960.
- أفريقيا العربية في القرن العشرين، 1960.
- العرب والأتراك في التاريخ، 1960.
- سوريا في القرن التاسع عشر، 1971.

انتقل في بداية عام 1962 للعمل في جامعة الرياض، وهناك استطاع التعرف على تاريخ الدولة السعودية وقيامها، وبعد البحث واستيفاء المعلومات الهامة تمكن من إعداد كتاب يحمل مسمى (قيام الدولة السعودية الأولى)، وبعد أن أمضى سنة دراسية في السعودية عاد إلى الأردن في الفترة التي يتم فيها إنشاء الجامعة الأردنية، ولأنه أول من حصل على شهادة الدكتوراه في التاريخ فقد كان من الطبيعي أن يتم تعيينه في الجامعة الأردنية منذ نشأتها، فعمل فيها أستاذاً مساعداً ثم مشاركاً ثم أستاذ شرف حتى تقاعده من العمل عام 1997.

صدر للدكتور الغرايبة كتاب عام 1984 يعتبر مرجعاً مهماً لكل باحث ومهتم، وهو «تاريخ العرب الحديث 1200-1350هـ»، كما صدر له كتاب موسوم بـ (العرب وأميركا، 2009).

تنقل الدكتور الغرايبة في العديد من المواقع الأكاديمية خلال عمله في الجامعة الأردنية، فمن رئيس لقسم التاريخ إلى عميد لكلية الآداب لأربع مرات إلى نائب رئيس الجامعة لشؤون التخطيط والعلاقة مع المجتمع، ومشهود للدكتور الغرايبة أنه كان يمضي سنة التفرغ العلمي في البحث والدراسة والتأليف وتعلم اللغات الأخرى. واختير عضواً في مجلس الأعيان الأردني خلال الفترة 2005-2007.

رؤيته للتعليم الجامعي

للدكتور الغرايبة فلسفته الخاصة في التعليم والجامعات والكليات والمعاهد والمراكز البحثية، وعن رأيه في الجامعات ونظرته لمستقبل التعليم في الأردن يرى الدكتور غرايبة أن الجامعة أكثر من مركز تدريس وتعليم وتدريب وبحث، ولو كانت هذه أهدافها لفضلنا عدم تأسيس جامعات والاكتفاء بالمعاهد والمدارس العليا، فالجامعة عالم صغير مصغر غير مستقر هش ومرن يصلح نفسه بنفسه ولكن بصعوبة وبشكل بطيء، هي مؤسسة ديمقراطية محافظة ليس فيها سلطة قوية إلا إذا تمرد الرئيس، وتتحول بسهولة إلى ملجأ للمرتزقين تحصل على المعرفة وتكتشفها وتنقلها للآخرين، وتتركز فيها الكثير من الكفاءات مما يفرض عليها واجبات ويعرضها لأخطار، وتتعرض في العالم الثالث لهبوط مستمر في المستوى كلما زاد استعمالها للغة أجنبية في التدريس، واستعمال اللغة القومية ليس ضرورة قومية ووطنية بل ضرورة علمية، والطالب يستوعب أكثر وأسرع بلغته القومية مما يوفر عليه الوقت الضائع بين القواميس، ويمكنه من التعبير الصحيح السليم وهذا لا ينفي الحاجة إلى معرفة لغة أجنبية أو أكثر. ويقول أيضاً: إنّ الجامعة مؤسسة محافظة عالية التكاليف... فما الذي يتوجَّب عليها أن تقدِّمه لتبرِّر كل هذا الإنفاق والنقاش والدلال؟ ولو كان هدفها تزويد المجتمع والسوق بمتخصصين وخبراء في مجالات المعرفة والعمل، فالجامعة ليست المكان الأنسب والأكفأ والأقل تكلفة، والمعاهد والمدارس العليا أكفأ في التعليم والتدريب، الجامعة ليست المكان الأنسب للبحث عن المجهول والمساعدة على فهم ظواهر الطبيعة وضبط قواها وتسخيرها لخدمة الإنسان، ومراكز البحث هي الأفضل والأكفأ، والجامعة لا تتقدم وتتطور بسهولة وسرعة، وهي ستقاوم كل تطور يفرض عليها ويمس استقلالها. ويضيف قائلاً: ليس من عمل الجامعة أن تنجز ما يمكن أن يفعله سواها وأحياناً أفضل، ولكنها وحدها التي تربي العقل تربية حرة، وتفتح آفاق الفكر وتطلق سراحه، وتصقل العقل

المتجرد المنصف البعيد عن الهوى، وتغرس فضائل النفس واحترام القانون وحب العمل وتقديم الصالح العام على المصلحة الشخصية، هي مؤسسة عطاء غير محدود، تخرّج أحراراً ليس في قلوبهم إلا الحب، لا مرارة ولا حقد ولا خوف ولا دسائس ولا مؤامرات ولا إخفاء، وهي مركز لتطوير الإنسان والفكر الإنساني، وتسعى لجعل الطالب إنساناً جديداً لا يتعصب إلا للحق، وقد يكون طالب الجامعة عند تخرجه أقل معرفة بتخصصه من طالب المعهد، ولكنه يفكر ويتصرف بطريقة تمكنه من إقامة توازن دقيق بين المعرفة المتاحة والسعي للكشف عن المجهول، طالب الجامعة يتلقى المعرفة بالشك ويحقق قبل الإيمان بصحة بعض ما نلقاه، وهو يؤمن بالاحترام والإتقان، ويردّد أنّ الجيد لا يكفي لأنّ الأصل هو التميز، وإذا لم يكن هدفه التميز فالجامعة ليست المكان الصحيح له، الجامعة لا تغرس الإيمان في نفوس طلابها بل تريدهم أن يصلوا إلى الإيمان عبر الشك والتفكير والبحث ليتوصلوا إلى إيمان صحيح راسخ، مثل هؤلاء هم قادة المستقبل وزعماء الأمة.

ويقول، أيضاً، عن رؤيته لأهمية المعلم ودوره في بناء مستقبل الأمة: المعلم والأستاذ والأسطة هو مَن أتقن عملاً، مهما كان نوع العمل، وأحبه وأخلص له وأعطى من نتاجه بسخاء ليستفيد الناس، كل الناس، من ثمرات الإتقان بدون حدود.. المعلم إنسان يعطي وقته وجهده وراحته وطاقاته للغير بسخاء وكرم غير محدودين بدون تحميل جميل ولا ميل للتفاخر، وهدفه أن ينعم الآخرون ويسعدوا، لا يشابه المعلم في ضميره المسلكي إلاّ الجندي النفر بدون شرائط أو حدائد، المعلم والجندي هما الأحق بالاحترام والتكريم على أن لا يطلبا ذلك.

ويضيف: ربما يكون المعلم مغروراً ينظر إلى الناس والمجتمع من برجه العاجي ولا يتفاعل مع المجتمع ولا يتجاوب مع حاجاته، ولكنّ المعلم لا يطمع بالباطل، ويرنو فقط إلى إظهار الحق، ومن حقه أن يزدهي ويتباهى لولا أن تواضعه يمنعه من ذلك، ينظر المعلم من برجه العاجي إلى الخلق فيحنو ويتمنى التوفيق والسعادة للجميع.

والمعرفة التي يكتنزها المعلم أمانة من الحق سبحانه، لا يجوز له حملها وحجبها عن الآخرين، أو تقييد الأخذ منها باسم حقوق الملكية الفكرية لأنّ الفكر ليس ملكاً لأحد.

ويختلف الباحث والبحث العلمي والتعليم اختلافات جوهرية، والمبحوث هو دوماً المجهول الذي نسعى لتوضيح أمره وجعله حقيقة معلومة، على الباحث أن يبحث عن الحقيقة ومعرفة خفاياها وتمكين الإنسانية منها لخير البشر ورفاهيتهم، ولا فائدة من الحقيقة إذا لم يعرف الباحث نفسه، ولم يعرف الخير والحب، ولم يسعَ إلى إبراز الأحسن والأعمق أصالة والأكثر شمولاً... وعلى الباحث أن يتحلى بروح المبادرة ليتمكن من الربط بين أوجه الشبه والكشف عن الاختلافات الدقيقة والتمييز بينها، ويتصف الباحث بالصبر والرغبة والشك والحذر والاستعداد لإعادة النظر، الباحث لا يُؤخذ بما هو جديد ولا يعشق ما هو قديم ويعيش في صراع عقلي دائم، ولكنه خلافاً للمعلم يبقى كتوماً لعمل نوع من السرية كي لا يسبقه أحد إلى ما يسعى للكشف عنه، إنه بخيل إلى أن ينجح في اكتشاف ما يسعى إليه، وإذا نجح في عمله طار صيته ونال ما يصبو إليه من التكريم أكثر من المعلم بكثير.

ولكننا -كما يقول الغرايبة- لا نستطيع أن نعيِّن باحثاً فيه كل الصفات اللازمة ونزوده بالمال والأدوات ونقول له: ابحث. البحث الجيد يحتاج إلى نوعين من البشر: عالم كبير في السن له خبرة ولكنّ عمره خفف من نشاطه، ويساعده شاب متميز نشيط صبور يستطيع أن يعمل ساعات طويلة، فيكتشف نتيجة بحثه، أو بالصدفة، أموراً قد لا يفهم قدرها، فيتدخل العالم الكهل ليوضح الأمور، أي أنّ البحث الجيد هو نتيجة جهد اثنين مختلفين بالعمر والنشاط والخبرة، وينال الشاب عادة شهادة عالية على إنجازه وقد يُمنح الكهل تقديراً أو جائزة.

نوادر و«نهفات» الدكتور الغرايبة

تختزن الذاكرة الكثير مما تعلمناه كتلاميذ من أستاذنا الكبير عبد الكريم الغرايبة والعبر والدروس المستفادة، لقد تميز أستاذنا بحرصه التام على مصلحة أبنائه الطلبة حتى

إنه لم يكن يضيّع فرصة فيها مصلحة لهم دون الاستفادة منها، كما أنه لم يألُ جهداً في الأخذ بأيديهم وإنارة الطريق أمامهم نحو المعرفة وغرس مبادئ المنهج العلمي القويم في الدراسة والبحث والتنقيب، ولم يبخل علينا يوماً بمعلومة أو إجابة عن أي استفسار أو سؤال بأسلوب جادّ لا يخلو من المرح المبني على الودّ والاحترام، وبعيداً عن الدراسة والبحث لم تكن تخلو محاضرة من محاضراته بما يمكن تسميته «نهفات» الدكتور الغرايبة التي تبعث برسائل إلى أصحاب القرار والتي تجسّد حالة المجتمع ومشكلاته، خلال مسيرته العملية والعلمية، يمكن استخلاص الدروس والعبر من خلالها:

– من القصص التي شاعت عن أستاذنا رحمه الله وعاصرناها عندما كنا طلاباً في الجامعة أنه لما كان يشغل وظائف نائب الرئيس، وعميد كلية الآداب، ورئيساً للجامعة بالوكالة.. نسَّب من موقع العميد تنسيباً بفصل عضو هيئة تدريس... ليعدّل التنسيب من موقعه كنائب للرئيس... وليتخذ قراراً مغايراً عندما استقبل تنسيبيه الأول والثاني، وقد فسَّر أستاذنا ذلك بقوله إنه في التنسيب الأول نظر الحالة بعين العميد، وفي الثاني بعين النائب، وفي القرار تصرَّف كمتخذ قرار ضارباً مثالاً في العدالة والرقابة الذاتية انطلاقاً من حرصه على المصلحة العامة.

– كان للغرايبة طريقة خاصة في تدريبنا، ونحن طلاب دكتوراه، على الكتابة، حيث كان يكره الكلام الفضفاض ويريد التعبير المباشر، وهو بالتأكيد ما لم يتوافر عادة لطلبة التاريخ، حتى إنه خصص إحدى محاضراته لتعليمنا كيفية الكتابة التي تبدأ بذكر الفكرة الرئيسية في الفقرة الأولى، وتفسّر الفقرة الثانية الفكرة الواردة في الفقرة الأولى قليلاً، والفقرة الثالثة تفسّر أكثر، ولم يكتفِ بذلك وإنما أملى علينا إملاءً (وهو ما لا يفعله عادة) شروطه للكتابة في امتحاناتنا وفي أوراقنا البحثية، وهي شروط يجب أن نعمّمها على طلبة الدكتوراه الذين لا يحسنون التعبير بلغة واضحة وخالية من الأخطاء القاتلة.

– كان الدكتور الغرايبة وما زال يفاخر الدنيا بأنه يعمل معلماً، ويعتبر هذه المهنة من أقدس المهن وما زال، وقد غرس فينا حب المهنة واحترامها بغض النظر عن مدخولاتها المتدنية، وكان دوماً يقول: البخيل لا يمكن أن يكون معلماً لأن المعلم دائماً معطاء ولا يبخل على أحد.

– كان وما زال متيماً بحب التاريخ ودراسته دراسة نقدية، وحب البحث عن المعلومة النادرة والتنقيب عنها في سائر دروب المعرفة، وقد غرس فينا حب البحث والتنقيب والدراسة العلمية المنهجة. وكثيراً ما كان يحضر نصاً علمياً أو رواية ويستنبط منه أسئلة يطرحها علينا، ثم يعطينا الإجابة، علمنا الشك في المعلومة إلى أن يثبت العكس، علمنا نقد النصوص ومناقشتها، وكان دوماً يربط أحداث الماضي بالحاضر..

– كان دوماً يدعو إلى إعادة كتابة التاريخ بعيداً عن تاريخ الحكام، والتركيز على تاريخ الشعوب من منظور إنساني يخدم الحاضر والمستقبل بمحبة وإخاء.

– كان يحدثنا عن تجاربه السابقة ورحلاته ولقاءاته بالمسؤولين. أذكر من قصصه لقاء مع توفيق أبو الهدى في لندن عندما كان رئيساً لوزراء الأردن عام 1948، حيث التقاه في لندن أثناء المفاوضات على تعديل المعاهدة الأردنية البريطانية بعد استقلال المملكة، ومعه فوزي الملقي الذي قال وقتها إنّ مشكلتنا في الأردن كانت الفساد؛ بمعنى أن مشكلة الفساد والرشوة والمحسوبية ليست حديثة.

– ولأنه قريب من قلوبنا كنا نشرح له مشاكلنا، وكان همنا أنّ خريج الجامعة ماذا يمكن أن يعمل في ظل الأعداد المتزايدة من الخريجين، وهل يمكن أن يجد الواحد منا وظيفة في بلد محدود الموارد والإمكانات؟ كان جوابه: «اتكلوا على الله، عندما تخرجنا من السلط كان عددنا 60 طالباً، وكنا نقول شو بدها تسوي فيهم البلد...». كنا نعتبره الأب والأخ الكبير الناصح الأمين.. ولم يبخل علينا بشيء.. لقد أحبّنا، وكان يستقبلنا في بيته، ويستضيف القسم كله في بيته بعد انتهاء

دوام الجامعة، ويتيح لنا فرصة تبادل الحديث مع أساتذتنا حول مشاكلنا الدراسية وقضايا الشأن المحلي.

– زار أستاذنا الأردن برفقة عدد من الشخصيات السورية عندما كان يدرس في جامعة دمشق لتهنئة الملك الحسين طيب الله ثراه بتعريب قيادة الجيش، وتذكّره الملك الراحل، فقد سبق للدكتور غرايبة أن طلب مقابلة جلالته، لكنّ الحاشية أخطأوا وأدخلوه على أنه السفير الهولندي..! وكانت تلك المفارقة مدعاة لتندر الحسين منه.

– كان الدكتور غرايبة أول دكتور دخل علينا بعد أحداث أيلول عام 1970، ومن الطبيعي أن تكون الأحداث في صلب المحاضرة، وصلنا إلى نتيجة مفادها أنّ الإعلام الأردني والإعلام العربي في تلك الفترة كان يجافي الحقيقة... وأبسط الأمثلة التي طرحها أستاذنا ما كنا نسمعه عن تدمير أحياء في عمان ولما انتهى القتال... وخرجنا إلى الشوارع لم نرَ شيئاً من ذلك، ما يعني المبالغة والتهويل في الصورة التي كان ينقلها الإعلام....

– من أقواله: إذا أرادت الحكومة تثبيت سعر سلعة، فاعلم أنها تريد رفع سعرها، ولا تحلم بتخفيض سعر سلعة.

– الأستاذ الدكتور الغرايبة قامة علمية كبيرة ويُعدّ واحداً من جيل العمالقة، مؤرخاً موسوعياً جريئاً، ورجلاً أصيلاً ووفياً محباً للعلم والعلماء، فذكاؤه الوقاد وأخلاقه العالية وإخلاصه المطلق ووطنيتهُ الصادقة جعلت منه نموذجاً يجدر بالجميع السير على خطاه.

عُرف الدكتور الغرايبة بأنه عربيّ الهوى وأردنيّ الانتماء، فأصبح موضع الاقتداء والتقدير، ومحط احترام آلاف مؤلّفة من الأفراد والأشخاص الذين عرفوه عن كثب، فأصبح لقب (الشيخ المعلم) قريناً له.

وتحدث العلامة الدكتور محمد عدنان البخيت حول شخصية الدكتور عبد الكريم الغرايبة قائلاً: «يدرك من يعرف الدكتور الغرايبة أنه لا يستسلم إطلاقاً للمسلّمات، بل يبحث ويكشف المستور، وليس هناك حدود في شغفه للبحث عن الحقيقة، حتى عن معاني أسماء الأفراد والأمكنة والأزمنة، ومن هنا جاءت صلته الكبيرة مع القواميس والمعجم، ولا تنطلي عليه المعاني المشتركة، فيمكن بكل يسر، في إطار علم التاريخ أن يشار إليه على أنه (ديكارت) الدراسات التاريخية في البلاد العربية بامتياز».

ولأنه المعلم ومربي الأجيال، فقد قام عدد من زملائه في العمل وطلابه الذين نهلوا من معين خلقه ومعرفته وعلمه بإعداد كتاب تكريمي له عام 1988 حمل مسمى «بحوث ودراسات مهداة إلى عبد الكريم غرايبة بمناسبة بلوغه الخامسة والستين».

كما قامت بلدية إربد الكبرى بتكريم المؤرخ الدكتور عبد الكريم الغرايبة كونه أبرز المؤرخين الأردنيين وأهم ركائز الحركة الثقافية الأردنية.

وأصدرت مؤسسة عبد الحميد شومان كتاباً بعنوان الشيخ عبد الكريم غرايبة مؤرخاً ومعلماً وإنساناً، ضمّ أعمال ندوة موسّعة عقدت في منتدى عبدالحميد شومان الثقافي، بتاريخ 2005/10/1، تكريماً له بمناسبة بلوغه ألف شهر.

وفي تقديمه للكتاب، يقول الأستاذ الدكتور عبدالعزيز الدوري رحمه الله: «عرفت الدكتور عبدالكريم غرايبة لعقود، أستاذاً وإدارياً، كرّس حياته وجهده للتعليم الجامعي، عرفته حريصاً على زملائه، راعياً لهم في غيابهم أكثر منه بحضورهم، مستعداً للمساعدة حين يرى مجالاً لها، وهو يعطي كل موقع يكون فيه من الإدارة متطلباته من المسؤولية المقرونة بالمرونة.. ويبقى في كل ذلك صريحاً بلطف».

رحم الله أستاذنا شيخ المؤرخين الأردنيين الدكتور عبد الكريم الغرايبة (أبو الرائد) وستبقى ذكراه حية، وأقواله خالدة في أذهان زملائه وطلابه، ومجتمعه على مر الزمان لتكون عبرة للأجيال القادمة.

الشيخ المعلم عبد الكريم غرايبة
«صورة من قرب»

د.عبد الله العساف

في يوم السبت الموافق 22 شباط 2014، غادر العلّامة والشيخ المعلّم عبد الكريم الغرايبة حياته الدّنيا في أرض وطنه الأردن، وكان قد أبصر النور فيها في العشرين من حزيران من العام 1923، وتحديداً في قريته الصغيرة الوادعة في سهل حوران، قرية «المغيّر»، وكان عمره قد ناهز بعد حياة مفعمة بالحيوية وحافلة بالعطاء الفكري والثقافي والأكاديمي تعليماً وتعلماً، الواحد وتسعين عاماً. ولمّا كان الراحل يحب أن يحسب عمره بالحساب القمري، فإن عمره حينئذ يكون أربعة وتسعين عاماً. ولا شك أن هذه رحلة طويلة، في حياة شيخنا المعلم، تخللتها محطات عديدة، وخالطتها سنوات عجاف وأخرى سعيدة، ومثلها سنين من الصبر والجهد والعطاء. فقد تقلبت به الأيام في مرابع ومواقع كثيرة صقلت فيه شخصيته الكبيرة، وأغنت حساسية الإنسان لديه، مثلما أنضجت وعيه الوطني والقومي، فكان من هذا الجانب على دراية تامة بما أحاق ويحيق بعالمه الوطني والقومي من تحديات ومخاطر، تحدّد مصائر هذين العالمين. ولكنّ يقينه الراسخ لم يتزعزع يوماً بأن الأمة العربية الغائرة بالتاريخ التليد والغنى الحضاري والثقافي تحمل في أحشائها دائماً بذور ولادتها الجديدة مهما كانت الظروف والأحوال والنكبات.

كان أستاذنا الشيخ المعلم -رحمه الله- يملك طبيعة استثنائية وفريدة متناغمة مع نفسه، ومنسجمة مع وجدانه، صنعت له حالة مستمرة من التصالح مع الذات ومع العالم، ومن هنا يمكن القول بأن شخصيته فيها من التفاؤل والتسامح الشيء الكثير، وقف حياته على شخصية لا تجيد الكثير من البروتوكولات الرتيبة المعروفة، التي اعتاد عليها الكثيرون، ولا تتقن الدوران في الأدوار والمواقع، صريحاً إلى حدّ أن أفكاره في كثير من الأحيان تتجاوز خطوط الجرأة والنقد إلى درجة أنها تكون صادمة للوعي الراكد في الطمأنينة الكاذبة. فعندما يلهج لسانه بالقول الصادر عن عالم وخبير بالأحداث والمواقف، فإمّا أن تستسلم للإقناع الذي يَقْذفه في وعيك، وإمّا أن يصدمك قوله أو يدهشك، وإمّا أن يحرّض فكرك نحو البحث في الأشياء والأفكار وأصولها ومغازيها. وهو في كل الأحوال ركب مواقف النقد والجرأة والفضول، وسلك طرائق في الإفصاح عن مكنونه وأفكاره قد لا يتنكبها الكثيرون ممن يؤثرون السلامة في الأبدان والمكاسب والمغانم المادية والمعنوية.

لقد اعتدنا على شخصية أستاذنا وأسلوبه في التعليم، لكن ودادته في الدرس كانت أكثر شيء تجعلنا نُقبل عليه لنتلمذ على يديه، وهو العالم العارف بالتاريخ، كما في علوم أخرى. ولم يكن يخلو الأمر في قاعة الدرس من الأسلوب التهكمي اللاذع، دون سقوط أو إسفاف أو مجافاة، بل في حدود العارف بأوزان الأمور، العالم بمداخلها ومخارجها.

كاتب وباحث أردني.

كان يرغب، دون شك، أن يعلّمنا شجاعة الجهر بما نراه الحقيقة، مهما كانت قاسية أو صادمة للوعي، فبالحقيقة ينجلي التاريخ ولا يعود عبئاً علينا إذا أحسنّا التعلم منه في حاضرنا ومستقبلنا. ولا بُدّ للطلاب في التاريخ وغيره أن يتدربوا على هذه الحقيقة ويجهروا بها، بلا مواربة أو تحايل فكري وتذاكي على الناس.

لطالما احتفظ لنفسه بنظرة خاصة في شأن كتابة التاريخ وتدريسه للطلاب، نظرة مثلما تحمل المعرفة والعلم العميق، فإنها تنطوي على خطورة ومحاذير كبيرة، فقد تغذي الأحقاد وتوقظ الضغائن، وتذكي الصراع بين الأمم والشعوب، لكن لا بُدّ مع ذلك من أن يعرف الناس التاريخ، ويقفوا على جزء من الحقيقة، وإلّا ضاعت العبرة من التاريخ. فالتاريخ وتدريسه ليس جميعه مدعاة لهذا الشر المحتمل أو المفروض، بل قد يكون مدعاة للتفاهم بين الشعوب، ورفعاً للضغائن والأحقاد، ومجلبة للتسامح والتفاهم والتعاون.

عرفت أستاذي الراحل، ذا طبع استثنائي وفريد في سلوكه وتعامله مع الطلبة، فضلاً عن أسلوبه المحبب في تدريس التاريخ بطريقة تنم عن خبرة عالية في تناول النصوص والروايات التاريخية، تختلف عن تناول غيره من المؤرخين، يستنبط منها أفكاراً ويُكسبها مغازي واتجاهات ومواقف قد لا تخطر على بال غيره من المؤرخين، لكن أكثر ما استيقن في أذهاننا من الشيخ المعلم مسألتان تخصان التاريخ قراءةً وكتابة وتدريساً. الأولى أن لا نقف أمام المصادر والروايات والحوادث التاريخية نظرة مُستسلمة سلبية، متيقنة من أن ما نقرأه هو الحقيقة بتمامها، بل إن علينا أن لا نلغي وعينا النقدي، ومحاكماتنا العقلية لكل ما نقرأ. فالتاريخ ليس صفحات بريئة بالتمام. وأمّا الثانية، فقد كانت تخص شديد حرصه أن نُمسك بمفاتيح الأسئلة الصحيحة ونقبض على الطرائق المنهجية السليمة في دراسة التاريخ، لأنها الأساس الموضوعي في تعلم التاريخ وكتابته.

وفي طرائق نقاشه وجدله الشائك، كان يمتلك ذاكرة ويسلك مذهباً خاصاً في جمعه للطرائف والمُلح والأخبار والنوادر عن الدول والأمم والأفراد، يتقصّاها من منابعها، يلتقطها بعين البصير، ويقدمها لنا بطريقة تثير اهتمامنا وتزيد شوقنا إلى سماع الكثير منها، فقد كانت هذه الطرائف تضفي على المحاضرات لوناً خاصاً محبباً، فضلاً عن إعجابنا بهذه الذاكرة الاستقصائية الدقيقة التي كان عليها، وقلما تخونه حتى في سنوات شيخوخته.

لقد ذكر لنا أستاذنا الراحل في إحدى محاضراته، فكرة عظيمة عن قراءَتنا لتاريخنا، وكيفية هذه القراءَة. وكان يقول إنّ المرء عندما ينظر إلى تاريخه بالميكروسكوب، يراه مكبّراً، يرى شرائح مكبرة من التاريخ. فنتألم من بعض حوادثه، ويصيبنا اليأس، فنهرب أحياناً لاجئين إلى حيث الاغتراب، إلى البلاد التي نعتقد أن فيها الحرية، ولكنها الحرية الفردية، وعندئذ نُقدم بأنانية هذه الحرية الفردية على حرية الأوطان، وتصبح قضايانا شخصية وليست وطنية أو قومية، وهذا ما يسعى الغرب إلى نشره حول حرية الإنسان وحقوقه.

كأن شيخنا المعلم أراد أن يقول إنّ الداء كل الداء الذي تُصاب به الأمم والأوطان هو البحث عن الخلاص الفردي، حيث الكل يسعى إلى هذا الخلاص، أما خلاص الأوطان والأُمم فلا يعار إليه اهتمام، وأنّى للخلاص الفردي أو الشخصي أن يتحقق إذا لم يتحقق خلاص الأوطان.

وقف أستاذنا الراحل بخبرته على أسرار ودقائق لعبة الأُمم، ولهذا كان إصراره على الحصول على مخطوطات البحر الميت عام 1956م عندما كان مديراً لدائرة الآثار، لتكون في حيازة الحكومة الأردنية. وعندما خرجت الأمور من يديه، أفصح أنه كان سيحرقها وكأنها غير موجودة، «لأنني أريد أن أنهي أي وجود لليهود في المنطقة». بل إنه ذهب إلى أبعد من هذا، وصرّح أنه لو كان يمتلك السلطة لقام بجرف جبل نبو

عن بكرة أبيه ومحوه من الوجود. كان هذا الموقف يُعبِّر عن استنارة المؤرخ وعين البصير، بخفايا ومقاصد لعبة الأمم، لأن التحدي الذي يمثله الأعداء، هو تحدّي يطال التاريخ والأرض والإنسان، وسرعان ما يطال الوعي والذاكرة الجمعية، ويُنهي القضية والشعوب والأوطان، ويُحلّ تاريخاً آخر مزيّف.

عاصر الشيخ المعلم أغلب الأزمنة الحديثة للدولة الأردنية وانخرط في بعض مؤسساتها وإداراتها، قبل أن يستقر به المقام أستاذاً للتاريخ في الجامعة الأردنية 1962-1977، وأن يصبح بعد تقاعده من التدريس أستاذ شرف في الجامعة. ولم يكن طوال عقود مديدة ليبخل لحظة واحدة في العطاء، بل ظلّ وفياً ملتزماً بالتعليم في الجامعة، وكانت له الأيادي البيضاء والأفكار العظيمة التي تركت بصماتها في الجامعة الأردنية، بعد أن تُرجمت إلى أعمال ومؤسسات، ما تزال شاهدة على هذا العطاء.

وفي كلمة له في العام 1987، أثناء الاحتفال بالعيد الفضي لكلية الآداب في الجامعة الأردنية، قال الدكتور عبد السلام المجالي رئيس الجامعة آنذاك: «أقول في منتهى الصدق إنّ كثيراً من الأفكار التي كانت تدور في الجامعة هي بنات أفكار الأستاذ عبد الكريم الغرايبة، من هذه الأفكار متحفان تختص بهما الجامعة الأردنية، ومتحف مفتوح يحتوي على (دولمن) نادرة فتش عنها في جميع أرجاء الأردن، حتى جاء بها إلى الحرم الجامعي، يُتاح فيه للطلبة التجول بكل حرية. وإنجاز آخر هو متحف الفلوكلور الشعبي الذي هو من بنات أفكاره، مثله كمثل مؤتمر بلاد الشام الذي عمل على خلقه عام 1974م، وواكبه بعدها، من أفكاره أيضاً أن يكتب تاريخ الإسلام كتابة جديدة. ويعود للدكتور الفضل كذلك في إنشاء كثير من الأبنية في كلية الآداب، مركز اللغات من بنات أفكاره أيضاً».

وإذا كان أستاذنا الراحل لم يُتِم رغبة والده محمود بيك الغرايبة القائم مقام، عندما انعقدت عزيمته بإرساله إلى



الجامعة الأميركية في بيروت لدراسة الطب فيها، ويعود إلى جانب أهله وأقاربه وعشيرته وأهل موطنه في إربد وحواضرها، يعالج المرضى، ويداوي فقراء الوطن ويرفع عنهم الآلام، وما أكثرها في تلك الأيام. لكنه نجح في أن ييمّم وجهه وعقله وفكره نحو التاريخ، لعلّه يداوي فيه بعض أوجاع الحاضر، وينشد منه أدواءً وقائية ناجعة لمستقبل الوطن والأمة، مثلما يبحث فيه عن دواء العظمة والإبداع التي كانت لها في زمنٍ ماضٍ من عصر العرب والمسلمين، فلعل التاريخ الذي يخصنا يعيد سيرته الأولى.

الشيخ المعلم: عبد الكريم غرايبة

◄ هاشم غرايبة

قال لي:

* الأصل في كتابة التاريخ عدم براءة الذمة.

* السلام أقوى من الحرب، واللطف أقوى من القسوة، والماء أقوى من الصخر، والحب أقوى من الكراهية.

* إنك تستطيع أن تفعل أي شيء بعلمك إلا أن تجلس عليه.

* يا أبنائي اقرؤوا الكتب ولا تصدقوها.. فالتصديق والتسليم بما يُقال ليس من صفة الباحث.

الأول

عبد الكريم بن محمود الخالد الغرايبة من مواليد قرية المغيّر/ محافظة إربد/...1923م.

أول من حمل الدكتوراه في الأردن، تخرج في لندن، ودرّس علم التاريخ في الجامعة السورية ثم في الجامعة الأردنية منذ تأسيسها.. متخصص في التاريخ الحديث، لكنه لم يتعامل مع التاريخ كموضوع منعزل عن العلوم الأخرى ومعطيات الحياة الجديدة بكل زخمها.. إنه الشيخ المعلم، يحب استعمال هذه الصيغة المستمدة من التراث، ويراها أكثر دلالة وأعمق أثراً من المسميات الأكاديمية الحديثة مثل: أستاذ دكتور، أو أستاذ كرسي.. إلخ.

التقينا الشيخ في سيارته المرسيدس موديل (قص) عند باب عرينه –الجامعة الأردنية. كونه ابن عائلة ريفية عريقة، فقد أصرّ على دعوتنا إلى الغداء أولاً.

شقة متحركة

استقبلنا ببشاشته السمحة، ونظراته الذكية، وضحكته القصيرة الساخرة.. وأصرّ أن يقلنا بسيارته الفارهة إلى المطعم، حقاً تبدو السيارة فضفاضة على رجل نحيل البنية جاوز الثمانين!

مع ضحكته المختصرة قال الشيخ: (اشتريتها عام 1985، وقف طالب يسألني: أيليق بمعلم أن يقتني شقة متحركة ينتقل بها من البيت إلى الجامعة مع أن المسافة قريبة، ويمكنه أن يقطعها سيراً على الأقدام لتحسين صحته؟

سال عرقي وارتعشتُ وقلتُ له: معك حق).

مسح عرقه وأردف: «ما زالت السيارة ذاتها التي نستقلها الآن.. أخذتها بالأقساط في حينها.. ثم ضحك وهمس: ماذا نقول لمجد الشمايلة إذن)..!

الحديث ذو شجون على مائدة الغداء..

يقول الشيخ المعلم إن الاسم الأول لبلادنا The Hashemit Kingdom of the Jordan وهو أصحّ من التسمية الحالية

◄ كاتب أردني.

التي حذفت أداة التخصيص لنهر الأردن the...

وأفادنا أن الأمير الأموي الأندلسي محمد بن عبد الرحمن الأوسط (228/825-276/886) أقام حصناً أدار حوله الماء، فسمي (مجرى الماء)، أخذت كلمة ماء من اللاتينية وأضيفت إلى مجرى، فصارت مجريط، ثم لينت الكلمة إلى مدريد.

وأخبرنا أن أول احتفال بالهجرة النبوية جاء متأخراً، إذ احتفل المسلمون لأول مرة بعيد الهجرة رداً على الإرهاب البريطاني للمصريين، فقد طلب اللورد كرومر من مصر أن تحتفل بعيد ميلاد الملك الإمبراطور. وردّ المصريون بأنهم يحتفلون ذلك اليوم/ الثلاثاء/ أول محرم 1326 للهجرة– الموافق 4 شباط 1908م بمناسبة دينية لا يمكن أن يخالطها شيء آخر. وشرع المسلمون بتكريس الاحتفال بهذه المناسبة.

ثم هاجرنا مع الشيخ المعلم إلى بيته الجميل.

في البيت

عند الباب كان ثمة إناء مغطى بالقصدير.. يضحك الشيخ:

«رأيت؟ ها هي إحدى نساء حوارة تعيش في عمان، وقد أرسلت لي طعاماً.. أعتقد أنها (الجعاجل)..أكلة حورانية: مرق الكشك وبه كرات مصنوعة من الطحين والبيض وبعض الأعشاب والتوابل. تصور لو أطعمتك أنت القادم من حوارة من طعام أهلها!». وتابعنا مرحه وخفة ظله بمودة صادقة.

إنه يعيش لوحده بعد أن توفيت شريكة حياته (أم رائد) قبل عام تقريباً، وقد بدأ شيخنا حديثه عنها رحمها الله، فقد كانت حجة في اللغة، رغم أن تخصصها جيولوجيا.. وكانت صورها، بمراحل مختلفة من عمرها، تؤنس صالون الاستقبال ومكتب الشيخ.

– كان اسمها بهيمان في التركية (أمها تركية) تعني لا نظير لها.. (يضحك) لو سموها فريدة وأراحونا.. حقاً كانت أم رائد لا نظير لها.

بدأنا حديثنا معه عن نهاية التاريخ... وفضّ لفظ اسم فوكوياما ترفعاً وقال:

– التاريخ لا يتبع أبداً الطريق التي تُرسم له.. الحديث عن نهاية التاريخ!؟ ينغي أن نتحدث عن فساد التاريخ.. عندما تبذل الغايات في سبيل الوسائل، فإنما يبذل المستقبل في سبيل الحاضر.. وهذا لا يجوز.

صمت.

.. ثم انتقلنا للحديث عن دراسة التاريخ وتدريسه:

– دائماً كنتُ أعلم تلامذتي أن الأصل في التاريخ عدم براءة الذمة، وكل مؤرخ وكل رواية متهمة، فهذا هو الأصل في البحث العلمي الذي هو بحث عن الحقيقة لا ينتهي.. ولو وُجدتْ لانتهى الأمر، قلت للطلاب الخريجين (2002/5/15).. كلامي غير صحيح من حيث المبدأ وكذلك أوراقي التي بين أيديكم الآن، والكتب التي تقرؤونها.. لا تصدقوا فالتصديق ليس صفة الباحث.

– نرجو من الشباب، مقابل جهدنا في تعليمهم، أن يتكرموا علينا بالسماح لنا بسرقة اليسير من الحقائق التي اكتشفوها بإشرافنا.

– أنا جاوزتُ الثمانين ولم أفقد قط الأمل بالمستقبل، وسأبقى دائماً متفائلاً، مهما تراكمت علينا من مصائب.. كونوا متفائلين وكونوا من الذين تواصوا بالصبر وتواصوا بالمرحمة.

* سألناه عن رأيه في شباب اليوم؟

– قلت لطلابي ذات مرة: إذا كنتم تخافون وانتم بهذه

السن وهذه المرحلة من الحياة، فلمن تركتم الجرأة؟ أنتم في سن الجرأة لا أنا.

- وسألني جلالة المرحوم الحسين ذات مرة عن توجهات الطلبة، فقلت له: هم نعاج لا شباب يقتلهم الخوف من المستقبل، ولا يمكن للخائف أن يجد الحقيقة.

ضحك بخفة ثم أضاف: (خروف طيب في القطيع الكبير يحلم بأن يصير «مرياع» (المرياع هو قائد الأغنام، قد يكون ذكراً أو أنثى).. ويسير وراء حمار الراعي أينما اتجه).

(صمت)

- بعد أن خرّجت أجيالاً عديدة.. أرى الصورة مختلفة: أو أن الأمر اختلط عليّ

.. بعضهم نعاج على مقاعد الدراسة، ضباع في أروقة السلطة!

الإرهاب والعولمة..

يقول شيخنا: (بصراحة، ودون مواربة: القتل، أي نوع من القتل وكل نوع، غير مبرر ويشكل جريمة ضد البشرية، وهذا ينطبق على أفغانستان وفلسطين والفلبين والسودان وإيرلندا ونيويورك وراوندا والكونغو.. ولا يهم من هو القاتل أو المقتول، إذا ما تم إقرار المبدأ. ويجب أن يبقى القتل جريمة كبرى لا يمكن أن تبرر، وإذا أراد ممتهنو الإجرام قتل من قتلوا الأبرياء في نيويورك، فإنما لينالوا مبرراً لإرهاب العالم كله باسم مكافحة الإرهاب.

الإرهاب آفة العصر، ولكن -للأسف- لا نجد الدعوة للأمن والأمان بالمقابل، بل نجد أجهزة أمنية مختلفة تقود الصراع.. لقد تدخلت وسوف تتدخل هنا وهناك وفي كل مكان.. وليس عهدنا بمكارثي بعيداً. إذا كان الإرهاب يهدد أمان المجتمعات فإنّ أجهزة الأمن تهدد أمن واستقرار النظام -أي نظام- من حيث أن الاستقرار والنظام هما أس ازدهار وتقدم البشر. ينبغي أن ينتبه الحكام أن الإرهاب تكمن خطورته بأساليب مواجهته).

أعدّ لنا القهوة بيده وعاد مبتسماً وفكرة الأمن ما زالت في باله.. تابع حديثه مؤكداً:

(.. الأجهزة الأمنية المختلفة، تدخلت وتتدخل وسوف تتدخل هنا وفي كل مكان.. والأجهزة الأمنية هي أكبر خطر يهدد الأمن في كل زمان ومكان، أرادهم الحكام دثاراً لهم فانقلبوا عليهم، ولم ينقلب على حاكم -بنجاح- في أي زمن غير أجهزته الأمنية، هي الخطر الذي يهدد الحكام، ولا يهددهم أبداً كلامنا المنمق).

* سألناه عن رأيه بالعمليات الاستشهادية، وفتاوى الجهاد المتضاربة؟

قال: (قلت إنني ضد القتل بكل أنواعه.. لقد منع السلطان سليمان العلوي (ت 29/ 11/ 1822م) جهاد البحر حتى لا يحتجّ الإفرنج به بالهجوم على المغرب، وامتنع المغرب عن شراء السلاح (الحديد الخردة) من الفرنج).

(صمت)

(لستُ مفتياً ولكني مع الجهاد الأكبر.. جهاد النفس، الجهاد الذي يبذل لإبراز مكونات الشخص الإيجابية.. كل الناس لديهم طاقة كامنة، ولكن عليهم الجهاد في البحث عنها وإظهارها).

ما الذي يشغلك الآن؟

(إنك تستطيع أن تفعل أي شيء بعلمك إلا أن تجلس عليه.. الجرأة والكرم هما من سمات العالِم.. والمعلم.

بعد أن جاوزت الثمانين ها أنا ذا أكتب وأنا جالس على الأرض، مقدماً اعتذاري للقارئ الواعي، مؤكداً أني بذلت

جهدي، بضم الجيم وفتحها، أي بالطاقة والمشقة، لأكتب بحرية في مواضيع أراها أجدى من التخصص المحمول على الشهادة.. والذي يتطلب مني الالتزام بالكرسي).

قبل أن أسأل «ما قصده بالجلوس على الأرض، ومكتبه في بيته لا تنقصه الراحة والأريحية؟»، قال: (أغبطكم أنتم معشر الروائيين والشعراء لأنكم تكتبون دائماً وأنتم جالسون على الأرض).

فهمت المجاز، وقلت ضاحكاً: «ليس دائماً». هز رأسه مبتسماً وقال: (ليس كلكم أيضاً.. للأسف).

رنّ جرس الباب، احتفى بحفيده العائد من المدرسة.. عاد.. تحدثنا في أمور شتى..

* كتبتُ عن الحشد والرباط، وعن أميركا والعسل والزنبور، وعن العرب والماء.. كتابات تصبّ خارج التاريخ.. تذهب نحو السياسة والفكر والفلسفة والحضارة.

يطيب لي الآن الحديث عن الماء. وأحب الكلام المنساح على رسله كالماء.. الانسياح هو صفة الماء الجاري الظاهر على سطح الأرض، خلافاً للكاظم.

أقام الخليفة الأول في الأندلس محكمة مياه تعقد في صحن المسجد الجامع زوال كل خميس.

الحضارة ظواهر إنسانية مائية. والماء عند العرب صفة كل شيء حسن، أو جزءاً من ذلك الحسن، إذ قالت العرب ماء الوجه، وماء الحياة، وماء النعيم، وماء الشباب....

وقد كتبتُ بحثاً في الآونة الأخيرة بعنوان: عرب ومياه وأمواه.

إنّ ارتباط الماء بالتاريخ ليس استطراداً لتتميم البضاعة.. ولكن للمخزون الثقافي والمعرفي تأثيراته.. (صمت) لا أدري إن كنت على صواب: الاختصاص يقيّد الفكر أحياناً، ويحتاج الأمر ما هو أكثر من الالتزام بالقواعد والأصول التي تعلمناها وعلمناها.. إنّ ميزة الكتابة من وضع الجالس على الأرض إنها تتأتى من قناعة واقتناع، وجدّ وتعب وبحث يبذل بكرم تضيق عنه همة الجالس على الكرسي، ثم إنّ العين الناقدة تكون أكثر عدلاً..

تمتم: ما أجمل أن تكتب وأنت متحرر من قوانين ومحاذير حمولتك الأكاديمية.

وفي الختام، سمح لنا شيخنا المعلم بتأطير بعض المقتبسات من حديثه الممتع.

يا أبنائي:

* إنك لا تستطيع أن تتعلم إلا عندما تُعلّم.

* لا نجد في مزابل التاريخ ما نتوقع وجوده فيها.

* عندما تبذل الغايات في سبيل الوسائل، فإنما يبذل المستقبل في سبيل الحاضر.. المستقبل هو ما تصنعه اليوم.

* الحضارة ظاهرة إنسانية مائية. أي تنساب بين القوميات كما الماء في الأواني المستطرقة.

* التاريخ لا يملك استقلاله، بل تتشكل صورته في كل مرة حسب الحاضر.. نحن في حديث أبدي مع حاضرنا.

الأصدقاء

وكنت أزوره وسميحة خريس ود.سمير قطامي بانتظام.. فرادى كثيراً، ومجتمعين أحياناً.. وكان يفاجئنا بأن لديه جديد يحدثنا به.. ودائماً.. لم يحدث أن أعاد ما حدّثنا به في مرات سابقة..

* رغم أن الجسد يشي بالتسعين حولاً، فإنّ الروح بكامل زينتها.

حدّثني الشيخ المعلم عبد الكريم غرايبة، قال:

(لا يلزمنا وزارة تنمية سياسية، أو إدارية، أووزارة لحماية البيئة، ما يلزمنا هو «وزارة الاحترام العام».. تكون مهمتها تعميم سلوكية الاحترام المتبادل بين المواطنين من جهة، وبين المواطنين ومحيطهم الحيوي من جهة ثانية.

ما فائدة الأحزاب السياسية إذا لم نتعلم احترام الرأي الآخر؟

ما فائدة أن تكون المرأة وزيرة، أو نائبة، أو مديرة، إذا لم يحترم الرجل زوجته، ويحترم الشاب أخته، ويحترم الموظف زميلته، ويحترم التلميذ رفيقته..؟

ما جدوى الحديث عن ثقب الأوزون قبل أن نتعلم كيف نحترم الشجر، والحجر، والرصيف والشارع..!

نحن بحاجة لوزارة تراقب احترامنا للقوانين والأنظمة، واحترام المسؤول للمواطن، واحترام المواطن للمسؤول سواء كان طبيباً أو معلماً أو رئيس جامعة.

نحن نحترم الشارع عندما نلتزم بأصول السير عليه، لا أقصد السيارات فقط، بل والمشاة أيضاً، ونحترم الشارع والجيران وأهل الحي عندما لا نثقله بالنفايات، وعندما لا نغلق الشارع لأنّ ولدنا نجح في التوجيهي، أو لأن شاباً تزوج.

ونحترم الشجرة والنبتة والوردة عندما نعطيها حقها من الرعاية والحماية. ليس على رصيف الشارع، أو في حديقة الجيران فحسب، بل وفي الأحراش التي نتنزه بها، وفي الكروم التي تمنحنا ثمرها، وفي مناطق الرعي الجائر أيضاً.

علينا أن نتعلم أيضاً احترام الحجر! حجارة الآثار، وحجارة المباني التراثية، وحجارة سور البيت لها حرمتها، وحجارة الجبل يجب أن نحترمها، ونعرف متى ومن أين نقطعها.. وقديماً قالوا: «الحجر بمطرحه قنطار».

واحترام الحيوانات لا ينطوي على احترام الحيوانات المنزلية المدللة، أو الخيل المطهمة، فحسب، بل يعني احترام الكائنات الحية التي تكاد تنقرض، والطيور التي تحافظ على توازن الطبيعة، والحيوانات البرية التي هي جزء من البيئة..

ماذا يعني احترام البيئة؟ البيئة ملكية عامة لكل الناس، ونحترمها عندما نكف عن استغلال البيئة المحيطة بنا كملكية خاصة يعيث بها من شاء كيفما شاء.. ابتداء من سائق الحافلة الذي لا يحترم حافلته، ولا يحترم الآخرين، ويتركها تنفث دخاناً أسود على الطرقات، وانتهاء بغبار ودخان المصانع الجائرة، ومخرجات المفاعلات النووية الخطيرة.

نتحدث كثيراً عن الطفولة ورعايتها، ولكن علينا أولاً أن نحترم الطفل بأن نقدّم له كتاباً جيداً، ومجلة مفيدة، وبرامج كمبيوتر نافعة، وألعاباً مميزة، وحديقة عامة آمنة.. ولا نضيعه بين القسوة والضرب، أو الإغراق بالتدليل أو الإهمال.

العالم كله عليه أن يعيد النظر بكيفية احترام المرأة، فرغم المناداة بالمساواة والحقوق المدنية، ورغم نشاط الحركات النسائية، إلا أن المرأة ما زالت تُستغل كسلعة أو وسيلة للترويج للسلع، وهذا لا ينوب عنه ذرّ الرماد في العيون –عيون النساء– عندما تسند إليهن وظائف عامة، كم نسبة النساء العاملات في الشأن العام قياساً إلى نسبة النساء المستغلات سلعاً؟!

قائمة الاحترام العام تطول وتتشعب ولا تنضب: احترام خصوصية الأفراد والجماعات، احترام الثقافات المتعددة، واحترام الأديان المختلفة، واحترام اختلاف الجنس والعرق واللون، واحترام السحب والنجوم..

الحديث ذو شجون مع شيخنا المعلم، ولكنا نقرّ معه حاجتنا إلى وزارة للاحترام العام.

المغير

رأى الدكتور عبد الكريم النور في العام 1923 في «المغيّر»، من قرى إربد، التي طالما تغنى عرار بعين مائها «راحوب»، قبل أن تجفّ وتصير أثراً بعد عين.

عرف التنقل في طفولته بحكم عمل والده الموظف.

درس الثالث الابتدائي في مدرسة اللاتين بعجلون، حيث استوقفه المعلم روكس بن زائد العزيزي؛ «ما شدني إليه أنه كان يقدّم التاريخ لنا بوصفه صوراً، وليس سرداً مملاً». يستذكر المؤرخ عبد الكريم غرايبة.

عاد إلى إربد ولم يجاوز العاشرة من عمره، منتسباً لمدرسة حسن كامل الصباح، وهي الوحيدة التي تدرّس الرابع الابتدائي من سيل الزرقاء وشمال.

أكمل دراسته في السلط الثانوية، وكانت أجواؤها مفعمة بالسياسة؛ «عندما مات الملك فيصل الأول اعتقدنا أن الإنجليز قتلوه، فثرنا وتظاهرنا، وكذا الحال عندما توفي العالم اللبناني حسن كامل الصباح، كانت عقلية المؤامرة مستحكمة فينا»، يشرح غرايبة.

حال أنهى المترك في العام 1942، كان أبوه «محمود الخالد الغرايبة» رئيساً لبلدية إربد.. وقصد صاحبنا بيروت دارساً للطب في جامعتها الأميركية، نازلاً عند رغبة والده الذي كان يحلم بأن يصير ابنه طبيباً في إربد. لكنه فشل فشلاً ذريعاً في الطب، وتحوّل لدراسة التاريخ كي لا يعود خالي الوفاض.

ظل الأب عند موقفه، وحتى حين نال ابنه شهادة الدكتوراه في التاريخ قال له مستاءً: «لن تغادر إربد فقط، بل ستغادر الأردن بأكمله».

لم كان الآباء يخافون غربة الأبناء إلى هذا الحد؟!

أقسم يمين الولاء لحركة القوميين العرب في بيروت العام 1945، لكنه لم يستمر معهم.

غداة ابتعاثه لدراسة التاريخ في لندن، اعتزم كتابة أطروحته عن الملك فيصل الأول، لكن خطبة لتشرشل نشرت في «التايمز» في كانون الثاني/ يناير 1940. غيرت من تفكيره، فقد حذر فيها على طريقة الرئيس بوش في أيامنا هذه، مما أسماه مراكز الإرهاب الثلاثة التي تهدد الغرب، وهي: لينين، وأتاتورك، ورمضان شلاش!

«لم يكن رمضان شلاش إلا بدوياً من قبيلة زبيد العراقية، قائداً لفصيل يتجول في بادية الشام، جاء إلى دير الزور فوجد ضابطاً إنجليزياً يحكمها، فاقتحم مكتبه وطرده، وصار ياوراً لدى الملك عبد الله الأول».

في لقاء مع نائب الملك، سفير العراق في لندن الأمير زيد، حثه الأمير على تغيير موضوع أطروحته قائلاً: هل تريد شهادة الدكتوراه فقط، أم تريد أن تتعلم!

أجاب: أريد طبعاً أن أتعلم.

قال: إذاً ابحث عن موضوع إنجليزي كي يكون الموضوع أليفاً للذين سيناقشونك فيه.

وهكذا كان. فقد حاز الدكتوراه في العام 1947 عن أطروحته «التجارة الإنجليزية في سوريا في القرن الثامن عشر»، وما زال يذكرها للأمير زيد، مشيراً إلى أن الأمير رعد بن زيد كثيراً ما سأله لماذا لم يكتب عن الملك فيصل. «الحق أنني ظللت متقيداً بنصيحة الأمير الأب رحمه الله».

عمل غرايبة في التدريس بجامعة دمشق لثماني سنوات، ثم انتقل للعمل في جامعة الملك سعود بالرياض.

زواجه في العام 1956 كان «تاريخياً" أيضاً، فقد تقدم لفتاة سورية من عائلة مرموقة، تدعى «بيهمان»، وهو اسم فارسي مرادف لـ«بناظير»، التي ليس لها نظير. استقبال عائلتها له لم يكن على مستوى الطموح، لكن الموقف تبدل في الأسبوع التالي، عندما طرد الملكُ الحسين الجنرالَ كلوب، حيث أصبح الجو أكثر حميمية وقبولاً. وكان النصيب.

زار الأردن برفقة عدد من الشخصيات السورية لتهنئة



جانب من حفل تكريم الشيخ المعلم عبدالكريم غرايبة في منتدى شومان

الملك الحسين بتعريب قيادة الجيش، وتذكره الملك الراحل، فقد سبق لغرايبة أن طلب مقابلة جلالته، لكن الحاشية أخطؤوا وأدخلوه على أنه السفير الهولندي! وكانت تلك المفارقة مدعاة لتندر الحسين منه.

استدعي إلى الأردن منتصف الخمسينيات، وعمل مديراً لدائرة الآثار، بيد أنه أُبعد من منصبه ونُقل مفتشاً إلى وزارة التربية. وظيفته الجديدة لم تعجبه، فقفل مسافراً إلى دمشق، لكنه يشدّد بأنه لم يكن لاجئاً سياسياً.

خاتمة

عاش شيخنا طويلاً وعمل كثيراً. ومرض قليلاً (أسبوع قبل وفاته).. لكنه غادرنا سريعاً فمشروعه لم يكتمل بعد! يقول ضاحكاً: «أنا أقْدَم شيء في الجامعة، بل إني أقدم حتى من أي طوبة أو ورقة فيها».. عمل في الجامعة الأردنية منذ تأسيسها في العام 1962 أستاذاً للتاريخ. حتى تقاعد عام 2004، وتقاعد منها لكنه «لم يسأم تكاليف الحياة».. ويفاخر أنه ما زال أستاذَ شرف في جامعته، بل ظل مواظباً على مراجعة مدوناته وتسجيل ملاحظاته اليومية، وقد تبنت الجامعة الإسلامية العالمية أرشفة جهده ورقياً وإلكترونياً حتى وفاته.

يفاخر شيخنا أن راتبه التقاعدي الوحيد الذي ظل يتقاضاه حتى وفاته في 24 شباط 2014، ولم يتقاضَ أي راتب تقاعد أو ضمان من الجامعة التي أفنى فيها عمره، بل هو نظير تعيينه عضواً في مجلس الأعيان لمرة واحدة في العام 2005.

ألّف المرحوم كتباً عدة، ومنها: «العرب والأتراك» (1960) و«سوريا في القرن التاسع عشر» (1971)، و«مقدمة في تاريخ العرب الحديث» (1970)، و«تاريخ العرب الحديث» (1983)، و«عرب الماء والإنسان» (2006)، و«العرب وأميركا» (2009).

في تذكّر الشيخ المعلم

سميحة خريس

كان نحيلاً قصير القامة، وديع الوجه مبتسم كما طفل خليّ، لكنه إذا تكلم تعملق وتمدّد ظله حولنا، وخيّم صمت يقطعه في كل حين حاثاً إيانا على الكلام والمشاركة في الفكرة أو الحدث الذي لم نشهده، يستطيع بثوان قليلة أن ينقلك زماناً ومكاناً ويفتح الأبواب المغلقة في ذهنك، ويسلمك مفاتيح التفكير والتحليل.

كنت قد فارقت مقاعد الدراسة حين التقيته، وساورني وهمٌ بأني اجتزت مرحلة التعلم وصرت قادرة على التعليم، فإذا به يعيدني أمام تواضعه وسعة معرفته ومنهجه الذي يحلل به التاريخ مجرد تلميذة تصاب بالدهشة ولا تملّ، كنت كلما جالسته خرجتُ بفكرة جديدة وازدادت معلوماتي وتغيّرت مواقفي تجاه الناس والأحداث، كما لو أنه يهبني عيناً ثالثة كانت معطلة، كنتُ كما أبناء جيلي أحكم على ما قرأته من التاريخ حكماً عابراً بارداً، فعلمني كيف تُبثّ الحياة في الأحداث الماضية ليكون لنا هذا الحاضر بحلوه ومرّه.

لعلها المرة الأولى التي ألتقي بها بمؤرخ لا يحفظ التاريخ وحسب، ولكنه يملك وجهة نظر حول ما كان ومدى تأثيره بما يحدث اليوم، وبعبقرية فذة كان قادراً على ربط أحداث تبدو متفرقة متباعدة غير ذات صلة، لتصير أحبولة واحدة تشد حياتنا. كان له في كل حادثة تقدير وتقييم جديد مذهل ومنطقي، وأقرب إلى الحقيقة التي غيبها المؤرخون. عدا عن قدرة لا مثيل لها على الحفظ، ففي جمجمته الصغيرة أرشيف لا يصدَّق من المعلومات المنظمة والتواريخ الدقيقة، مما يجعله مرجعاً لا يستهان به، وقد وقفتُ بنفسي على حالات كان دارسون وباحثون وأصحاب قرار يلجأون له كي يدققوا أو يتأكدوا من صحة معلومة ما، سواءً على الصعيد السياسي أو الاجتماعي، ولم يكن في تلك الموهبة الربانية يحتاج إلى الرجوع إلى ما هو مكتوب بقدر ما كانت المعلومة حاضرة ودقيقة في ذاكرته.

مع هذه الهبة التي تمتع بها فإنه أقدم منذ يفاعته على تسجيل وترتيب أرشيف خاص به، يمكن من خلاله الرجوع إلى تاريخ البلاد العربية مفصلاً، وسجَّل تلك المعلومات على بطاقات على طريقة مكتبية عادية في غياب الوسائل التكنولوجية، عندما شاهدت تلك الثروة المعرفية في حجرة الجلوس الخاصة به، أصابني الخوف على ضياع هذا الجهد، وكانت لديّ اتصالات كي تشرف جهة ما على كنز معرفي مهم كهذا، ومرّت سنوات وباءت كل المحاولات بالفشل، مرة لغياب القدرة المالية ومرة لغياب القناعة بقيمة هذا الجهد الأرشيفي، إلى أن قيّض الله للدكتور عبد الكريم متحمسين من الجامعة الإسلامية ليشرفوا على أرشيفه المذهل.

كان من العسير أن تحاوره ولا يتذكر في ثنايا الحديث زوجته، المرأة التي أحبها ورحلت قبله، كان معجباً بعقلها وأفكارها، ومما لا شك فيه لأنها تركت بصماتها على أفعاله وأفكاره، وقد مثلت تلك العلاقة الفريدة نموذجاً عن تقديره للمرأة واحترامه لها، قال لي صادقاً وبعيداً عن ادعاءات

◄ كاتبة أردنية.

المثقفين بأنه يشعر بأن المرأة كائن مظلوم في الحياة، تولد وحيدة غريبة، وتمضي غريبة أيضاً لا يتوصل الرجال إلى فهمها بسهولة، تلك الفكرة لم تغادر عقلي، ورأيتها تزهر في عملي الروائي الأخير «بابنوس» وأنا أصف امرأة تنطوي على وحدتها وغربتها رغم قوتها الظاهرية، ولا يمكن لي أن أتصفح رواياتي الأخيرة دون أن ألمح أثراً منه، إما معلومة مثل حكاية قرصان البحر «العلج علي» في رواية «يحيى»، أو مقولة مثل حديثه عن عمان القديمة والناس الذين جاؤوا مع الأمير «عفش وقطاريز»، وقد حملت تلك العبارة على لسان بطلي الشركسي في رواية «دفاتر الطوفان»، أو حتى حكمة في الحياة وفلسفة كما كان من شأن بطلي «يحيى» حين امتنع عن تقاضي المال مقابل نشر العلم، مؤكداً أن المعرفة والهواء والماء حق للإنسان وهبة الله لا تجوز المتاجرة به.

على الصعيد الإنساني كانت روحه خفيفة فيها ظرف محبب، وهمته عالية، واستعداده غريب في تقبل اختلافات الناس وإشكالياتهم رغم تقدم سنه، كما يصيبك بالدهشة لفرط إقباله على جيل يفصله عنه عقود من الزمان، فقد حرص على إقامة علاقات اجتماعية يدعو فيها طلبته إلى الغداء أو العشاء، وواصل الشبان والشابات كما واصل الأساتذة الكهول محافظاً على علاقاته الطيبة مع أبناء جيله، ولعله كان منحازاً إلى الشباب أملاً بالمستقبل الأجمل، وقد بذل من ماله الخاص في مكافأة المتفوقين منهم ورعاية طالبي العلم.

رحل الأستاذ الشيخ المعلم عنا جسداً، لكنه بالتأكيد مقيم بإنجازه، بما تركه في عقول تلاميذه، وما خط قلمه من كلمات يمكن أن تتبين الأجيال القادمة كم كانت مهمة في فهم الحياة وتفسير أحداثها.



اللقاء الإسلامي المسيحي عن الشباب وقيم الاعتدال 26 - 28 / 7 / 1993

عبدالكريم غرايبة كما عرفته:
رومنسيــاً، وفيّـاً، ويحتـرم المـرأة

سوسن غرايبة

قالت لي صديقة عزيزة أنني سأدرك جوانب من حياة عمّي عبدالكريم غرايبة بعد وفاته. وبعد أن سمعت شهادات الجميع عن عمي وعلمه وإبداعاته وكتاباته، أجدني الآن أحتفي بحياة عبدالكريم غرايبة الرومانسي، الوفي، والذي يحترم الجميع، وبخاصة المرأة. ولعمي عبدالكريم مكانة خاصة لديّ منذ طفولتي، حيث كان كثير السؤال عني خاصة أثناء سفر والدي، ويحرص على تأميني بالألعاب، ولم ينسَ أيّ من أعياد ميلادي، حتى وأنا خارج البلاد. ولكنّ ما جعله فريداً، في نظري، هو كرمه في «العيديّة» والتي كانت أضعاف ما يأخذه أي طفل، وكم يبقى غالياً العم الذي يعطي «أكبر عيديّة». ومع الزمن عرفت بأن أكبر هداياه لي هي مرافقتي له في زياراته وتعرفي إليه عن قرب.

ورسم لي عمّي الحبيب عبدالكريم غرايبة صورة متطورة ومتحررة للتعامل مع المرأة؛ زوجته «بيهمان العنبري» شريكة حياته وشريكة إنتاجه الفكري وشريكة أسفاره. فكثيراً ما استشارها في كتاباته وتفاصيل اللغة العربية، وكان رأيها في تصريف أيّ كلمة أو إعرابها هو النهائي، وكنت معجبة بقدرتها على إعراب أيّ فقرة من بدايتها إلى نهايتها بكل سهولة وسلاسة. وعلاقتي بها توطدت عندما ساهمَت في تدريسي الفرنسية، حيث كنت أعاني من هذه المادة أيام الدراسة، وكنت أقضي أوقاتاً طويلة في منزلهم، أسمعهما يتناقشان في قصيدة أو إحدى الكتابات، ويحللان المعاني ويقارنان الأفكار مع كتابات أخرى. وبيهمان كلمة فارسية معناها فريدة، ولا عجب أنه سمّى وقفيته باسمها «إنارات فريدة»، فكانت علاقتهما فريدة ومثالية.

وكان منزلهما مفتوحاً للعديد من المناسبات الاجتماعية، يشاركان ضيوفهما الاحتفال بالمناسبات السعيدة كترقية أحد الأساتذة، أو إصدار كتاب، أو الحصول على جائزة، أو استضافة أحد الأعلام العرب المرموقين، كأحمد زويل وزوجته. وكثيراً ما يشاركان ضيوفهما بالأفكار والتحليلات أو حتى أخذ رأيهم بمقال يقوم عمي بتأليفه. وكانت تذكّره -رحمها الله- بالنوادر التي كان يلقيها لتنطلق ضحكته قبل أن يضحك الجميع. ولم ينتهِ التكامل بينهما عند هذا الحد، فقد تشاركا في حبهما للطبيعة والحديقة والزهور والشجر.

ابنة شقيق الشيخ المعلم عبدالكريم غرايبة.



الشيخ المعلم مع ابنة أخيه "سوسن" في حفل التكريم الذي أقيم في منتدى شومان الثقافي

فكل زائر لمنزل عمي -رحمه الله- كان يشمّ رائحة دمشق بياسمينها ونرجسها وليمونها وزيزفونها، ويستمتع بألوان الزرع والإضافات من شهر إلى شهر.

وكم آلمه فراق زوجته ورفيقة دربه، وشعرتُ بأنّ شيئا في داخله قد انكسر، وكنت أراه أثناء أيام العزاء مثقل بالحزن والدموع. وما زلت أشكر دولة السيد عبدالرؤوف الروابدة الذي زار عمي يوم العزاء ونجح في إضحاكه لثوانٍ معدودة.

و بعد وفاتها -رحمها الله- علّق عمي عبد الكريم صورها في أرجاء المنزل، وكان يتذكرها في كل بيت شعر، وأهداها العديد من كتاباته. وظلّ وفيّاً حتى لصديقاتها ويُصرّ على السؤال عنهنّ والإبقاء على الصلات، ويصرّ على دعوتهنّ للحديث عن زوجته والإبقاء على ذكراها، ومنهنّ سعاد زعيتر، وحنان أومت، وروضة قردن، وأميمة الدهان والتي حزن على وفاتها كثيراً.

كرّس عمي نفسه للحفاظ على النباتات التي أشرفت زوجته على غرسها، وخاصة الماجنوليا الرابضة على مدخل البيت؛ وهي نبتة حساسة جداً، وقد اتصل بي لأشاهدها تزهر لأول مرة! كلّ من يعرف عمي عبد الكريم يعرف ولعه بالورود

والأزهار، وكثيراً ما يهديها ويعطيها بكرم إلى كل زائر إلى منزله.

وأثناء مساهمته في تسمية شوارع عمان كان يتمنى تسمية الشوارع بأسماء الزهور كلها! وما زلت أستشعر بصمات عمي في تسمية شوارع اللويبدة بأسماء الشعراء الأقرب إلى قلبه مثل المتبني وإبراهيم طوقان.

من أهم ما يميز عمي هو دعمه للمرأة، خاصة في دراستها وعملها، ولم يُخفِ فخره واعتزازه بطالباته وزميلاته وبنات عائلته، ولم يبخل على أي منهنّ بالمعلومة أو الدعم المعنوي. وإن كان ينتقد بعض الرجال، فإنه لم ينتقد إطلاقاً أيّ امرأة. وكان داعما للأستاذات القليلات في الجامعة الأردنية وكان فخوراً بهنّ. وأذكر تكرار تقديره لجهود السيدة ليلى شرف، ووجدان الهاشمي، وسميحة خريس، وهند أبو الشعر، ولانا مامكغ، ووداد قعوار وميراي أبو جابر، وميسون النهار، ومنيرة رئيسة الديوان في الجامعة الأردنية آنذاك. وقبل سنوات، عرّفني عمي على إنسانة جميلة تجمعني بها اليوم صداقة أتمنى أن تدوم عقوداً، هي طبيبة متميزة في تخصصها، كان يثق بتشخيصها لمرضه، وتوقع لها عمي مستقبلاً باهراً وهي ميسم عكروش.

وأكرر، كان وفاء عمي لصداقاته أسطورياً، وخاصة في علاقته المميزة بصديق عمره رؤوف أبو جابر. وقد كان من آخر نشاطات عمي -رحمه الله- الاحتفال بمرور سبعين عاماً على صداقة تجمعه برؤوف. و كان يسأل كل منهما عن الآخر وبشكل يومي ومتواصل لآخر يوم في حياته. وستبقى ذكرى وقوفي بجانب رؤوف أبو جابر وابنة عمي آلاء في مقبرة سحاب أثناء مواراة عمي الثرى، وكل منا يمسح دموعه في صمت -هو مستعيناً بكوفيته، وأنا بمنديلي- محفورة في ذاكرتي مدى الحياة.



عبدالكريم غرايبة يحمل الطفل "فارس" ابن أخيه

فيلمان عن صرحٍ ينتظر التتويج*

بكاميرا: فيصل الزعبي

أنجزتُ خمسين فيلماً عن سيَر مبدعين أردنيين...

لكني في فيلم هذا الرجل وقعت بين حيرتين

حيرة السيرة

وحيرة الأفكار

وارتبك السيناريو بين فوضاه على أرض شقته.. وترتيبٍ ذهنيّ متقد...

ثلاثة أفلام كانت المحصلة:

فيلم سيرة حياته

وفيلم عن أفكاره

وفيلم مخبأ لأنه قال ما لا يمكن بثّه في الوقت الحاضر...

* * *

السيرة وجع التاريخ والرجل والفكرة، والسيرة تشبه شوك الصبار على وسادة النوم... رجلٌ لا يرتبك...

في النصف الأول من القرن العشرين كانت الناس حفاة عراة بين أودية قاحلة، وجبال جرداء، وأميّة منتشرة كالفطر في الغابة السوداء.

وكان عبد الكريم غرايبة يسعى لكامبرج في لندن..

كان النعاس يتثاءب به الناس، وكان عبد الكريم غرايبة يقظ كغريب.

لاعَبَ كاميرتي بفكر عشريني نزق، رغم كهولته الثمانينية..

كان يمكن أن يكون ذبابة أثينا.. في هذي البلاد النائمة.

وكان يمكن أن لا يموت لولا خدعة الجسد الواهن.

على صفيح الفيلم.. انطبعت مقولته: «لا يجوز تعليم التاريخ للطلبة الصغار.. إنه يعلم الضغينة «. معلم تاريخ.. يعلن هذه الصرخة.. في رأيه تدريس التاريخ يعلم الضغينة... حكمة كأنها انطلقت من أثينا.. معرفة عميقة...

جرأة العارف الشجاع..

لن أكون شارحاً لهذا الرجل.. البسيط الممتنع.. الطفل الشقي.. الحكيم الودود..

فما يجب أن يُقال صنعته بفيلمين عن صرح ينتظر التتويج..

---

* يُذكَر أنّ المخرج فيصل الزعبي أخرج حوالي خمسين فيلماً وثائقياً عن مبدعين أردنيين، في الفترة (2002- 2008)، رصد فيها سيرتهم وإنجازاتهم، وكان منهم الدكتور عبد الكريم غرايبة. (مدير التحرير).

كاتب ومخرج سينمائي أردني.



الدكتور غرايبة في المؤتمر العام الثاني للمجمع الملكي لبحوث الحضارة الإسلامية (مؤسسة آل البيت) 11-1983/4/14
ويظهر في الصورة سمو الأمير الحسن بن طلال



المؤتمر العام الخامس عشر
لمؤسسة آل البيت الملكية
للفكر الإسلامي
"البيئة في الإسلام"
27 - 29 /9/ 2010

مشروع «إنارات فريدة»
الإرث العلمي التاريخي الوثائقي للراحل الغرايبة

أ.د. عبد المجيد زيد الشناق

كان عبد الكريم غرايبة يهتمّ كثيراً في تدوين معلوماته على شكل بطاقات، تظهر لمن لا يعرف وثائق التاريخ أنها ليست بقيمة مالية أو علمية. ولكن إذا ما وقعت بين يديّ دارس أو باحث في التاريخ، أو السياسة، أو الشخصيات الوطنية الأردنية أو العربية أو العالمية، فإننا نجدها في أدق تفاصيلها ضمن حافظات كرتونية قوية على شكل ملفات وثاقية مجموعة ومرتبة، وبخط يده الذي أحياناً يصعب على بعضهم قراءته. وإذا لم تكن من الأشخاص المعاصرين للأحداث أو الشخصيات التي تتضمن البطاقات معلومات تفصيلية حولها، أو هي شخصياً قامت بصناعة الأحداث، فإنه يصبح من التعقيد إمكانية التفسير والتعريف بهوية الشخص أو الحدث.

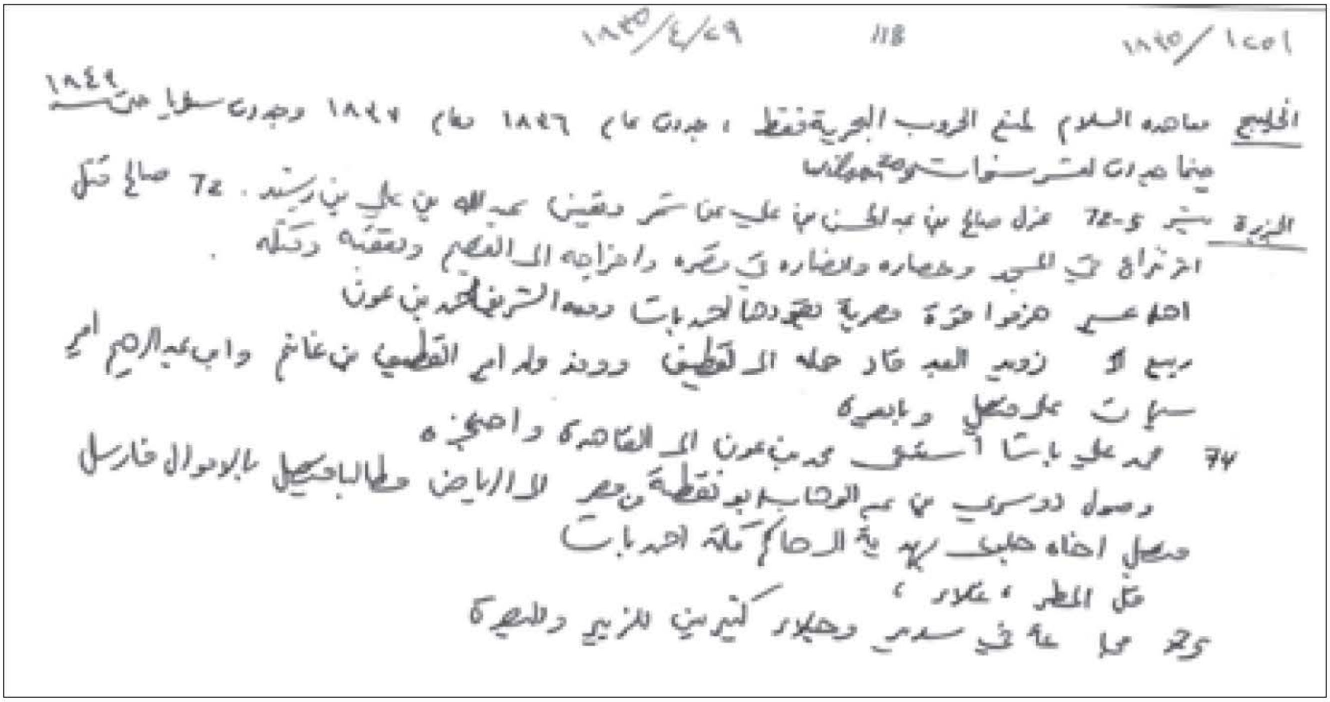
وقد تأثر عبد الكريم غرايبة بهذه الفكرة الجديدة علينا في الأردن أو الوطن العربي من إنجازات دور النشر الأميركية المبدعة، والتي توسّعت مراكزها العلمية والبحثية، ووسائل جمع المعلومات من مصادرها وأماكنها، ومتابعتها بشكل دوريّ وباستمرار. ودفع هذا الجمع الهائل من المعلومات إلى طباعتها ونشرها على شكل كتاب يشتمل على معلومات هائلة عن الدول في العالم والأحداث السياسية والاقتصادية والعلمية والصناعية والتطور الحضاري الأميركي والأوروبي والعالمي.

من هنا بدأ تفكير عبد الكريم غرايبة ينصبّ على تأسيس هيئة علمية بحثية تاريخية تُعنى بإصدار الوثائق والمعلومات التي تمكّن من جمعها منذ العام 1948، وهي تزيد على عشرات الآلاف من الوثائق والمتضمنة معلومات في محاور كثيرة ومتعددة.

وعندما تحاورنا في عملية توثيق هذه المعلومات بشكل علمي ومنظم، بدأنا نواجه مشاكل تحويل الفكرة إلى صيغة عملية قابلة للتحقيق؛ على شكل كتاب أولي وأساسي ومفصّل عن بلاد الأردن وعوائله وشخصياته السياسية والعشائرية والقروية والمناطقية، وخلال فترات زمنية مختلفة. ويمكن أن يسأل المرء كل ما قيل وجمع عن الأردن، فقد احتوته الكتب المنشورة في الأردن والوطن العربي والعالم وبالذات في الولايات المتحدة الأميركية وبريطانيا وفرنسا وغيرها من الدول التي أظهرت اهتماماً بالمنطقة وعوائلها وخيراتها، إلا أن الواقع الحقيقي للوثائق والمعلومات التي جمعها الراحل عبد الكريم غرايبة تحتوي على شيء كثير ومهمّ ومتعدّد لم يعرفه أحد من أبناء هذا الجيل. وأخص حتى المهتمين تاريخياً واجتماعياً وسياسياً وعلمياً، ليس لديهم المعرفة بالكثير من أسماء الشخصيات والأحداث التي دوّنها ويعرفها، وأحياناً يرفض الكتابة عنها ويتجنّب ذلك بإصرار شديد.

وبالسياق نفسه أصرَّ عبد الكريم على أن توضع المعلومات نفسها التي يتضمنها الكتاب على موقع إلكتروني، وجعلها سهلة المنال للقاصدين من طلاب وباحثين ودارسين وغيرهم.

مؤرخ وأكاديمي أردني.


الخليج معاهدة السلام لمنع الحروب البحرية فقط، جددت عام ١٨٤٦ وعام ١٨٤٧ وجددت ...

نموذج من بطاقات الشيخ المعلم عبدالكريم غرايبة

وعلى ضوء التجربة الأولى التي تعنى بالوطن؛ الأردن، ينتقل المشروع إلى المحور العالمي ولكن بدون الأردن. وهذا المحور سوف يحتوي معلومات مختصرة عن ما عالجه كتاب الأردن، بشكل عام، ومضمونه يركز على الوطن العربي كجزء خاص في الكتاب، والجزء الآخر سوف يتناول كل دول العالم في أميركا وأوروبا وأفريقيا وآسيا وأستراليا. وبالأسلوب نفسه سوف يوثَّق إلكترونياً ويوضع على موقع علمي خاص لتناوله من قِبَل كل من يرغب.

وبعد صدور الجزء الأول من المشروع مطبوعاً ورقياً، فإنه يمكن أن يموّل التكلفة الفنية، ولربما يهيئ للمشروع ظروفاً مادية أوفر، مما يزيد الاهتمام به وطنياً وعربياً وعالمياً، ويعمل على تجديد الإصدار المطبوع كل سنتين، بحيث يحتوي على كل ما هو مستجد خلال السنتين.

وعلى المنوال نفسه، يمكن الاستمرار في الجزء الثاني المعني بالعالم.

إضافة إلى ذلك، إنّ هذا المشروع الفكري الثقافي سوف يسهّل على الباحثين والمهتمين الوصول إلى المعلومات الموضوعية والموثقة توثيقاً معاصراً، ويضع بين أيديهم بديلاً عربياً، وعلى المستوى العالمي بحيث يصبح إنارة فريدة لما هو موجود في المواقع الإلكترونية، وكثير منها خالي من الدقة والموضوعية، وأحياناً مطبوع بطابع سياسي، أو أيديولوجي، أو اقتصادي ترويجي.

ونشاهد خطورة المعلومات المطروحة عبر المواقع وما تحويه من مغالطات مقصودة وغير مقصودة على شاكلة ما هبّ ودبّ، وبالوقت نفسه نقف عاجزين عن تقديم الأفضل ونكتفي بتوجيه التهم والنقد لما هو قائم.

وبناء عليه، فإن مشروع «إنارات فريدة» يعكس أسلوب وشخصية عبد الكريم غرايبة كما أراده هو وعمل على توثيقه وتقسيمه عملياً. وأعلن أن وصاية المشروع لولده الدكتور رائد غرايبة.

كنتُ أتمنى أن يرى الجزء الأردني من المشروع النور وهو على قيد الحياة، لكن هذه مشيئة الخالق سبحانه وتعالى.

في الختام أتمنى من المؤسسات الثقافية والعلمية المساهمة في إنجاز هذا المشروع الوطني الأردني.

وبهذا السياق لا بد من تسجيل كلمة شكر خاصة لفضيلة الشيخ الأستاذ الدكتور عبد الناصر أبو البصل، وجامعة العلوم الإسلامية العالمية على تبنيها مشروع عبد الكريم غرايبة، واهتمامها الفائق والخاص بالشيخ المُعلّم ومشروعه الثقافي الريادي والأول في الوطن العربي.

وأخيراً، لا بد من التنويه للاهتمام بهذا المشروع الكبير والضخم، وهو بحاجة إلى مؤسسة ثقافية وعلمية ترعى الإشراف والتخطيط والتمويل والبحث المطلوب وباستمرارية، حتى يتحقق الهدف الثقافي الوطني والقومي والإنساني.



نموذج من بطاقات الشيخ المعلم عبدالكريم غرايبة

فِكْرُ الشَّيخ المعلِّم «مُحــاولَــة للفَهْــم»

الدكتور المهدي عيد الرَّواضية

يُمكن تَصنيفُ الشَّيخ المعلِّم عبد الكريم بن محمود الغرايبَة -يرحمهُ الله- ضمن الطَّبقة العالية من المؤرِّخين المُحدثين، بناءً على منهجه في دراسة التَّاريخ وتدْوينه وفَلسفته، وانْفتاحه على العُلُوم والمعارف الأخرى خارج علم التَّاريخ، وما قدَّمه من رُؤى وأفكار تاريخيّة ومبادئ إنسانيَّة؛ نادَى بها طيلة مسيرته العلميَّة، منها ما هو مدوَّنٌ في مؤلّفاته ومقالاته وبعضها الآخر ممَّا تحصَّل لطلبته في تَضاعيف أمَاليه ودروسه.

على أنَّه امتازَ بطريقة فريدة في التَّأليف والكتابة، تقومُ على التنقُّل السَّريع بين موضوعات مختلفة، وأحداث متنوِّعة، وأزْمان مُتباعدة، حتّى ليَظنَّ القارئُ أنْ ليس ثَمَّة ترابطٌ بينها؛ غيرَ أنَّ فَهم كُنْه الأخْبار ومدْلُولاتها البعيدة تجعلُ مقالتَهُ وحْدةً واحدة، تَتَدَافعُ فيها زُبْدةُ القول وتنصَبُّ إلى حيثُ الغاية التي أرادَ إيصالها للقارئ دون التّصريح بذلك.

الشَّيخ المعلّم والتَّاريخ

كانَ من الطَّبيعي أنْ ينشغلَ فكْره بالتَّاريخ، منذ أنْ التصق اسمُهُ به منتصفَ القرن العشرين، لكن اللافت في الأمر نَظْرته الحادَّة للوظيفة الّتي ارتبط بها التَّاريخ، فالتَّاريخ عندَهُ مثيرٌ للأحْقاد مُورثٌ للإحَن، جالبٌ للضَّغائن، وأنَّ خطر التَّاريخ على البشريَّة أبلغُ تأثيراً من الإشعاعات النَّوويَّة(1)، وهو يرى أنَّ النَّاسَ جميعاً؛ أفراداً وشعوباً يَنوءُون بأعْباء التَّاريخ، وهي أعباء تُثقلُ الجميعَ وتدميهم بالكراهيَّة، و«تُساهم في بناء جدران وأخاديْدَ من الحقد والكراهيَّة وتبرِّر الحروب والمجازر»(2)، والتاريخُ «هو الآن الحاجز الرَّهيب الذي يحجب المحبَّة ويُحرِّض على الكراهيَّة ويُثير الحروب، وإذا ما رغبَ المسؤولون في العالَم حقّاً باسْتتباب السَّلام ونشْر المحبَّة بين بني الإنسان وجميع الشُّعوب والأُمم والملَل فعليهم الابتداء بالتَّاريخ»(3)، فهل هي دعوةٌ لتَحْسين صُورة التَّاريخ وتجميل القَبيح منه؟ وهذا يدخلُ في باب التَّزْوير!!، أم هي دعوةٌ للتّجاوز عن أخطاءِ الماضي حتّى لا تكون عبْرة نتأسَّى بها أو تَسْتسيْغ الأجيال تكرارها؟

ويُمكن تلمُّس فلسفة الشّيخ المعلّم في هذا الطَّرح من خلال اعْتباره للتّاريخ كمحرِّض على إثارة الحروب والفتن وتَحريك نَوازع الشَّرِّ والضّغائن بين الأُمَم والشُّعوب والجماعات والأفراد، وإذا ما وجدَت الإنسانيَّة نفسها مُهدَّدة بالفناء والخوف والقَتل والتَّشريد نتيجة الحروب والصّراعات، فعليها -قبل أنْ تعملَ على الحدِّ من الأسلحة المتطوِّرة وتسابقها- أنْ تفكِّر أوَّلاً بكبح جمَاح مَنْ يُحرِّض عليها (أي التَّاريخ المُحرِّض)، «وعقوبةُ المحرِّض على الجريمة في القوانين ترْقَى إلى نصف عقوبة مُرتكبها»(4). وتتّجهُ رؤيةُ الشّيخ المعلّم إلى تكوين لجنة دوليّة تُعيدُ كتابةَ التَّاريخ الّذي يُقدَّم للأطفال في مراحل الدِّراسة الأوَّليَّة، تُصاغُ فيها النُّصوص التَّاريخيّة دون تزوير أو تحريف للحقائق، بل يُكتفى بالتَّركيز على الأُسس الجامعة بين البَشَر التي تنمّي قيم المحبَّة وتُخفِّف من الكراهيّة والأحْقاد، وصُولاً إلى عصرٍ تسوده المحبَّة والتآلف(5).

لقد تلاقَت دَعوته هذه مع كلمات وجّهها جلالة المغفُور له بإذن الله الملك الحُسين بن طلال في مُفتتح مؤتمر تاريخ بلاد

باحث وأكاديمي أردني.

الشّام الأوّل في 20 نيسان 1974م، وكان الشّيخ المعلّم وقتها عميداً لكليّة الآداب بالجامعة الأردنيّة، منها قول جلالته: «إنّنا لا نقبل ولا نَرضى أنْ نكونَ عالةً على تاريخنا أو عبئاً على أمْجاد أسْلافنا، كما لا نقبَل ولا نرْضَى أنْ يكون هذا التّاريخ عبئاً علينا أو قيْداً لنا. هكذا كُنَّا في مسيرتنا عبرَ الزَّمان مع ركب الحياة؛ لم نقبع أو ننْطَوي على حقد أو نتعصَّب لجنسٍ أو دينٍ أو لُغة... وطلعنا على بَني الإنْسان بالمحبَّة والخير والعطاء دونَ تمييزٍ أو تَفْريق، غايتُنا أنْ نهتَدي إلى الحقّ المُطْلَق في هذا الكون... من أجل أنْ تحيا البشريّة حياةً أفضل وأسْعد، وأجمل وأرغَد، ولتحلّ المحبّة والتّعاون والإخاء محلَّ الكراهيَّة والتّنافر والبغضاء»(6).

إنَّ الأفكار التي نادَى بها الشّيخ المعلّم تجاه آلية التَّعامل مع التّاريخ، خاصَّة المقدَّم منه لفئة الأطْفال والنّاشئة، لم تَنجح ولم تأخُذ حقَّها من التّفكير والتّداول، لا لقصورٍ فيها، أو اسْتحالَة في قيامها وتطبيقها، بل لأنّها مُرتبطة بقرارات تتعلّقُ بالقادَة ورُؤساء الدّول في هذا العالَم، وليس الأفراد، وهؤلاء –القادَة– قلّما اجْتمعوا على شيءٍ يُفيد البشريّة، بل تحالفُهُم واجتماعُهم لأجل الشّرّ والحَرب ولِمَا يخدم مصالحهم القُطريّة الضّيقة، والإقليميَّة على أبعد تقدير.

وبرغم فَهْم الشّيخ المعلّم لحقائق التّاريخ وإدراكه للجبِلّة التي طُبِعَ عليها البشرُ من حُبّ الرّياسة، والانفراد بالسُّلطة، واتّخاذ ما يلزمُ من الأعْوان والخَدَمَة، إلا أنّه –بإحْساسٍ إنسانيٍّ مرهف– دائمُ التّفكُّر في مُوجباتِ وجودِ الجُندِ والجيوش ووظيفتهم، وقد سعيتُ مراراً لفهم وجْهَة نَظره في الجُنْد فاستحالَ عليّ ذلك، وناقشتُهُ طويلاً، فتكوَّنت لديَّ أفكارٌ مُتضاربة، فهو يشيرُ إلى الجُند والجيوش أحياناً باعْتبارهم أدَوات تقييدٍ وقمع سلطويَّة، وفي أحيانٍ أخرى يُوجّه إلى الاعْتناء والاهتمام بالجُنديّ والمعلّم، لأنَّهما يخدمان الوطن في الحَرب والسّلم، وأنّهما الأوْلى بالتّكريم والاحْترام والدَّعم والرِّعاية!(7).

لقد ربَّى تلامذته على نمط مُغاير لِمَا ألِفُوهُ في تناولهم للتّاريخ، يقومُ على روايةِ التّاريخ كما حدث دونَ تدخُّل، لكن مع الشَّكّ والنّقد والتّحليل، وأنْ يقع التّناول بحياديّةٍ وموضوعيّة، وأنْ يبتَعدوا عن التّقليد والانْقياد. ويَسْتأنسُ بمقولةِ للشَّيخ أبي الحسن اليوسيّ (ت 1102هـ/ 1691م): «أنْ لا فرقَ بين مُقلّد وبهيمة تُنْقاد»، دَفْعاً لهم لإعْمال الفكْر والبحث والتَّنقيب دون الانْسياق ضمن ما تعورف عليه بالمسلَّمَات.

ولَمَّا كان لكلّ عَصْرٍ لُغته الخاصَّة وأدَواته الكتابيّة ومُصطلحاته وتعابيره الدَّالّة، فقد أوْلَى الشّيخُ المعلّم اللغة اهْتمامه البالغ(8) في قراءة التَّاريخ. واللُّغةُ - كما يقول ابن خَلْدون - وسيلة فَهْم «والألفاظُ واللّغاتُ وسائطُ وحُجُبٌ بين الضّمائر، ورَوابطُ وخِتامٌ على المعاني. ولا بُدَّ في اقْتناص تلك المعاني من ألفاظها بمعرفَة دَلالاتها اللُّغويَّة عليها، وجودةِ المَلَكَة للنّاظر فيها، وإلا فيَعْتاصُ عليه اقتناصُها»(9). ولهذا فقد كان كثير الاسْتعانة بمعاجم اللُّغة لتَحْليل الألْفاظ بما يتناسب مع لسان أهل كلّ بلدٍ أو حِقبة تاريخيَّة. فلَفْظةُ «الانْسياح» التي تتردَّدُ في أخبار الحملات العسكريّة لأوَّل الفتح الإسلاميّ لا تتضمَّن معاني الغَزْو والسَّيطرة والقَتْل، بل تعني حمل رسالة تقولُ للمَغْلُوبين ما لا يقُولُه المنتَصرون الفاتحون، مُؤدَّاها أنَّ مَن اتَّبع الرِّسالة وآمن بما تُنادي به، له ما لنا وعليه ما علينا(10)، بخلاف ما يُمكن أنْ تعنيه اللّفظة في عصرنا الحاضر، ولفظة «التَّزوير» ومعناها قديماً: التَّحسين وإصْلاح الشّيء، لا ما انْقلَب إليه المعنى الآن فأصْبح دلالةً على التَّحريف والإفْساد، وكذا مُصطلح الخُلطة، والثّورة والجُند والماء والعَرب إلى غير ذلك ممَّا تتبَّعه بالبحث والتّنقيب.

التّسلُّطُ والقُيود... الحُريّة والعَدالة والمساوَاة

تشتملُ العديدُ من مقالاته ومؤلَّفاته على جُمْلة من الأفكار المُنادية بالحُريّة والعدْل والمساواة التَّامَّة بين جميع النَّاس في الحقوق والواجبات مع التّوازن بينهما، ولا تكادُ مناداته هذه تغيب عن مجالسه ودروسه، وبرغم أنَّ هذه المطالب ليست حكْرَاً عليه، فكثيرٌ من النَّاس المُحبِّين للخَير وأصْحاب القُلوب الرَّحيمة

والطّويَّة السَّليمة يُنادونَ بهذا، إلاّ أنَّ ما يَنفردُ به الشَّيخ المعلّم هو دعوتُه لنَبذ العُنف ومُحاربته لإزهاق النَّفْس البشريَّة، أيّاً كان جِنْسها ودينها وعرقها ومدَى كُرهنا للأمَّة التي تنتمي إليها، «فالقَتلُ غير مُبرَّر حتّى ولو كان عُقوبةً لقاتل»(11)، و«هو أمرٌ قَبيحٌ وجريمةٌ لا تُغْتَفَر ولو كان دفاعاً عن النَّفْس»(12)، ويستشهدُ كثيراً بالآية الكريمة) لَئِنْ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيكَ لأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ العَالَمِينَ((13)، «والإسلامُ يُشدِّدُ على مبدأين أساسيّين هُما: الحقُّ والعَدل، والعَدلُ يَعني التّوازن، والله هو الحقّ والعادل، وهو الحامي لهذين المبدأين اللّذين لا يجوز الإخلال بهما»(14).

إنَّ أفكارَهُ المُغرقة في المثاليَّة -فيما يتَّصلُ باسْتئصال الشَّرّ من قُلوب البَشر وانْتفاءِ القتل بينهم- وإنْ كانت صعبة التَّحقيق والمنال في ظلّ ما قسَمَه الله بين البَشر وطبَعَهُ فيهم من نوازع الخير والشرّ، لكنها ليست مُستحيلة، والمثل لذلك ما مَكّن الله لمُجتمع أميركا المتنوِّع الأعْراق والألْوان «ليتغلَّب على عصبيّة اللون فيختار رئيساً (الرّئيس الأميركيّ أوباما) كانَ من المستحيل عليه قبل نصف قرن أنْ يترشَّح لأصْغر منصب في البلاد أو حتّى يركب حافلة!!»(15). وربّما تحقَّقت بعضُ دعواته بتقليص حدّة الأذَى بين البَشَر «لأنّه قد لا يَتِمّ وجودُ الخَيْر الكَثير إلاّ بوُجود شَرٍّ يَسير»(16).

ولا تقفُ دعواته المتكرّرة لإقامة العَدل وإتاحة الحُريّة على جِنْس أو فئة من البشر، بل هي شاملة عامّة لكلّ النَّاس على اختلاف أديانهم ومُعتقداتهم وتنوُّع أعْراقهم وألْوانهم وأجْناسهم، كانَ الشّيخُ المعلّمُ قد قدَّم في مؤتمر مؤسَّسة آل البيت الملكيَّة للفكر الإسلاميّ الخامسَ عشر (أيلول 2010) ورقةً بعنوان: «النّملُ والإنسانُ والجُندُ»، بناها على الآية الكريمة في سُورة النّمل)يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ((17)، ربطَ فيها بين فعل الجُنود وهو «التَّحطيمُ»، والنّملِ كمخلوقات مثلُها مثلُ البَشر، واجتهدَ في التَّفسيرِ والاسْتنباطِ، وخَلَصَ إلى القول: «أنَّ مَن حملَ السِّلاحَ وامْتهنَ مهنةَ القتل والنَّهب والسَّلب يُصبحُ تلقائيّاً عدوّاً للإنسانيَّة، لا فَرْقَ في ذلكَ بينَ مَنْ عملَ تحتَ راية رسميَّة أو كانَ خارجاً على القانون». وحَشرَ أمثلةً عديدةً تؤكّدُ دَعْواهُ «في طلب العَدلِ والحقّ وحماية الإنسانِ -كلّ إنسانٍ- ليعيشَ بكرامة وحُريّة أينما كان»، قالَها بكلّ جُرْأة: «نُريدُ ذلكَ لأنفسِنا ولكلّ بني الإنسانِ ولشُعوبِ محورِ الشَّرّ أيضاً»(18).

وإذا كان هذا مَوْقفُهُ الحازمُ تجاه التسلُّط وتقييد الحريّات، ورفضهُ لكلّ ما يُزْهق أرْواح البَشر وما يَحدُّ من قُدرة الإنسانِ على العيش بسَلام وأَمْن، وكلّ ما من شأنه الحَطّ من كرامته، فإنَّ له موقفاً أشدَّ ضَراوة من كلّ ما يقف أمامَ العَقل ويَحْجُر عليه، دون قدسيّة لأحد أيّاً كان، مُطالباً بإطْلاق العنان لحريّة التَّفكير والرَّأي والانتقاد.

ومن هذا النمط أيضاً، فأنَّه يؤكّد على حاجَة مُجتمعنا، وكلّ مجتمع، إلى تَرْسيخ فكْرة الاحْترام بين جميع أفراده، ذُكوراً وإناثاً، وبكافَّة مُستوياتهم، فيَحْترم الرَّجلُ المرأة، وتبادله هي مثل هذا الاحْترام، ويمتدُّ ذلك إلى احترام الصّغار والجيران وكلّ إنسانٍ، بل كلّ شيءٍ من بناءٍ ونباتٍ وماءٍ وحَجرٍ وحيوانٍ وكلّ ما يتَّصل بالطَّبيعة(19).

مفاهيم يجب أنْ تُصحّح

للشَّيخ المعلّم مواقفُ واضحةٌ من بعضِ المفاهيم الشّائعة بيننا، كموقفه من مُصْطلح «الثَّورة»، هذه الكلمةُ المُحْدَثة التي يَسْتبشعُها مُفضِّلاً عليها لفظةَ «الهَيْج» حسبما تردُ في تُراثنا وأدبيّاتنا، وقد أبْدى -غير مرَّة- تألُّمه وانْزعاجه من تحوير اسم «النَّهضة العربيَّة الكُبرى» التي قادَها الشَّريف الحسين بن عليّ إلى «الثَّورة العربيَّة»، واقْتران هذه المناسبة بعيد الجَيش. ويرَى أنَّ هذا التَّغيير لم يَكُن مقبولاً ولم يكُن ليَرْضى عنه الشّريف حسين والملك المؤسِّس عبد الله الأوَّل الذي جعلَ وسام النَّهضة أرْفع وسام(20)، ومنذ العام 1984م وهو يُحاجِجُ ويُجادلُ في دَواعي تغيير الاسْم إلى ثورة!! وأنَّ الجيوشَ إنَّما وجدتْ لمَنع الثَّوراتِ لا الاحتفالَ بها.

ولا تبدو القضيَّة عنده مُرتبطةً باخْتلاف المسمَّيات، وتفضيل بعضها على الآخر، فهذا ممّا لا يَدْعو لأنْ يتألَّم ويُصاب بالأسَى!!، إنّما ترتبط بتَوْصيفها ومدلُولاتها، فأبعادُ الشّيخ المعلّم أعْمق من ذلك؛ وتحملُ أنْظاراً إنسانيّةً وأخلاقيّةً غايةً في العُمق، إذ شتَّان ما بين «الثّورة» وما تحمله من معاني القتل والقمْع والاسْتبدادِ وبين «النّهضة» بكلّ معانيها الإنسانيّة الخيِّرة.

وجَرْياً على ما اسْتنَّهُ من الدَّعوة لنبذ الحروب وإحْلال السَّلام بين البَشر جميعاً، فقد نادَى بأنْ نجتثّ من أدبيّاتنا ومَقولاتنا ما شاع فيها من تعابير، مثل: العدوّ التّاريخيّ، والعدوّ الدَّائم، ذلكَ أنَّ الكُرَة الأرضيَّة الّتي تجمعنا لم تعدْ تحتمل مَزيد عداوات(21).

ومن طُروحاته أيضاً ـ مَوقفه من مُسمّى القوميَّة العربيَّة، فعندَهُ أنَّ التَّحيُّز لفئة من البَشَر والافْتخار بأمجاد الماضي والتَّبَجُّح بقتلِ الآخرينَ والتَّفوُّق عليهم، كلّ ذلك من شأنه أنْ يُغذّي كَوامن الثَّأر ومُحاولة اسْتعادَة الأمجاد في نُفوس مَن ينادُونَ بها، ويُرَحِّلُ ذلك منهم إلى الأجْيال القادمة، فتَتواصَلُ العداوات وينتقل إرْثُها لِمَن سيأتي بعدهم. والمستقبلُ عنده أهمُّ من الماضي الّذي يتوجَّب تناسيه لصَالح البَشريَّة كلّها ولبناءِ مُستقبلٍ من الإنْسانيَّة والمحبَّة لا تتردَّدُ فيه أنْباء الاضْطهاد والقَتل والتَّعذيب وغيره(22)، ويتندَّرُ بالقول إنَّ المفكّر ساطع الحصريّ -الذي يُعدُّ أحد مؤسّسي الفكر القوميّ العربيّ، وأفضل مَنْ كتب عن فِكْرة القوميَّة- لا يُؤمن بها، وأنّه كان مُعادياً لها، فَضلاً عن كونِه لا يُحسنُ الكلام باللُّغة العربيّة!! (23).

ويكْرَهُ الشَّيخُ المعلّم إطْلاق مُصطلح الشَّرق الأوْسط، لأنّه يُعطي اسْماً مَنسوباً للغير لا يُناسب صفة هذه المنطقة(24)، وكذلك إطلاق اصطلاح شمال أفريقيا وكلّ تلك المسمَّيات الّتي تُحاول تغييب وطمس الهويَّة العربيَّة، مفضّلاً عليها تسميَة «الوطن العربيّ».

الأملُ والتّفاؤل هما السَّبيل إلى المستقبل

برغم كل ما أبرزهُ الشَّيخ المعلّم من شوائب التَّاريخ لبيانِ خطره وما علقَ بالأذْهان من المآسي الّتي ارتكبها البشرُ بحقّ أنفسهم، فقد تعاملَ مع التَّاريخ من مُنطلق المتفائل بالمستقبل، الآمِل بأنْ يكون مُشرقاً، وهو لا يعتدُّ بمقولة أنَّ الماضي أفضل من الحاضر، ذلك أنَّ الحاضرَ دوماً مَنْقُوصٌ قَدْرُهُ لأنّنا نعيشُهُ ونُقاسي منه، ونعرفُ التّفاصيلَ عنه.

وقد عوَّد نفسَهُ على أنْ يكون مُتفائلاً في كلّ الظّروف التي تحيطُ به، وأصبح التَّطَلُّع بعين الأملِ إلى المستقبل مَدارَ تفكيره وأُسَّ مبادئه، يقول: «أنا ما زلتُ متفائلاً، وأعتبرُ دَفْنَ الأمل خيانةً وجريمةً، وأستنكرَ موجات اليأس وأعتبرَها أشدَّ خطراً على الأُمَّة من أيِّ عدوانٍ أو إرْهاب»(25)، «وأهمُّ شيءٍ في هذه الحياة أنْ نعملَ ولا نفقدَ الأملَ وأنْ نحبَّ الخَير لنا ولغيرنا... واجبُنا اليومَ التَّمسُّكُ بالأملِ والتّفاؤل وعلينا إحياءُ الأمل في النُّفوس فهو الضّوءُ الوحيدُ الذي يجبُ أنْ لا يَخْبُو»(26).

وكتب كتابه عربُ الماء والإنسان «في محاولة لعرضِ تصوُّراته لهذا التَّاريخ الطَّويل مع الحبِّ والأمل، والحرصِ على إبقاء جَذْوة الأملِ مُشتعلَةً لأنّها أغْلى ما نملك، ولكي يكونَ مُستقبلُ الأبناءِ والأحْفادِ أفضلَ من حاضرِنا ومن ماضِينا»(27).

ويُؤْمنُ بقُدْرة الإنسانِ العربيّ على الخير والتَّمسُّك بالأمَل ودَفْنِ اليأس، «فقد جاءَ الرَّسولُ صلَّى الله عليه وسلَّم رحمةً للعالَمين دونماً تفريق بين أجْناس وألْوان، وهو الإنسانُ الذي طلبَ من ربِّه الرَّحمةَ والهداية لأعْدائه لأنَّهم جميعاً، مثلُ غيره، خلقَهُم الله من أجلِ المحبَّةِ والخيرِ لا من أجلِ الكُرْه والحِقدِ والانْتقام»(28).

التّعليم الجامعيّ

مارسَ الشيخُ المعلّمُ العملَ في التّعليم الجامعيّ بدمشقَ في خمسينيّاتِ القرن الماضي، وعندما تأسَّست الجامعةُ الأُردنيّةُ

في العام 1962م كان رقمهُ الوظيفيّ يشيرُ إلى أنّه أقدَمُ أُستاذ فيها (حمل الرّقم 100101)، فأتمَّ فيها نصفَ قرنٍ من العمل في المجالِ التّعليميّ، مُعتزّاً ومُفتخراً بما مَنَحَهُ من شَرف العمل في هذه الوظيفة، «فالمعلّم إنسانٌ يُعطي وقتَه وجُهدَهُ وراحتَه وطاقاته للغير بسخاءٍ وكَرَم غير محدودَيْن بدون تحميل جميل ولا ميل للتّفاخر، وهدفُهُ أنْ يَنْعم الآخرون ويسْعدوا، ولا يُشابه المعلّم في ضميره المسلكيّ إلاّ الجُنديّ النَّفَر بدون شَرائطَ أو حَدائدَ؛ المعلّمُ والجُنديُّ هما الأحقّ بالاحْترام والتّكْريم على أنْ لا يَطْلبا ذلك ولا يتطلّباهُ»(29). وعلى ذلك فإنَّ البخيلَ لا يَصلحُ لأنْ يتولّى مهمَّة التّدريس.

وتكوَّنت له خلالَ هذه السّنين الطّويلة فلسفتُه الخاصَّة نحو التّعليم بشكلٍ عام، والتّعليم الجامعيّ على وجْه الخصُوص، والبحث العلْميّ وأوْجه القصُور فيه، وقد أجملَ بعضَ هذه الرُّؤى في مقالة مطوَّلة بعنوان: الجامعات إلى أين؟ نشرتها صحيفةُ الرّأي الأُردنيَّة في حلقتين(30) وأبرزُ ما تضمَّنَتْهُ مطالبَتُهُ بأنْ لا تخضع الجامعاتُ إلى أيّ سُلطة رسميَّة، وإلغاء وزارة التَّعليم العالي والبحثِ العلْميّ، وأنْ تُناطَ عمليَّةُ رَسم السّياسة التّعليميَّة في مُستواها العالي إلى مجلسٍ مُستقلٍّ أعضاؤه مُخْتارون من الجامعاتِ ذاتها، وبهذا يكون لاختيار رؤساء الجامعات منهجٌ آخرُ أكثر حياديّة وأبعد عن تسلّط وزارء التّعليم العاليّ عليهم بالإقالةِ والعَزْل(31).

وكانت له أراءٌ واضحةٌ فيما تردَّدَ خلال السّنوات العشْر الماضية، ممَّا شاعَ بين الأكاديميّينَ وصُنّاع القرار في المؤسَّسات التَّعليميَّة من ضعف مُخْرجات الجامعات وتدنّي مستوى التّعليم، ومُؤَدَّى رأيه «أنَّ الهدف من الجامعة لا يتعلَّقُ بتزويد المجتمع والسُّوق بمتخصّصينَ وخُبراءَ في مجالات المعرفة والعمل، وأنّها ليست المكان الأنسَبَ والأكفأ والأقلَّ تكلفةً لتقديم ذلك، بلْ مجالُ هذا يكون في المعاهد والمدارس العُليا؛ فهي الأكفأ في التَّعْليم والتّدريب. وأنَّ الجامعةَ ليست أيضاً المكانَ الأنسبَ للبحث عن المجهولِ والمساعدة على فهْمِ ظواهرِ الطَّبيعة وضَبْطِ قُواها وتَسْخيرها لخدمة الإنسان، فهذا مجالٌ يُناطُ بمراكز البحث فهي الأفضلُ والأكفأُ للقيام به. إذَنْ؛ فليسَ من عمل الجامعة أنْ تُنجزَ ما يمكنُ أنْ يفعلَه سواها وبشكلٍ أفْضل، ولكنَّها -أي الجامعات- هي وحدَها التي تُرَبّي العقلَ تربيةً حُرَّة، وتفتحُ آفاقَ الفكرِ وتُطلقُ سَراحَهُ، وتصْقلُ العقلَ المتجرِّدَ المنصفَ البعيد عن الهوى، وتغرسُ فضائلَ النَّفْسِ واحترامَ القانونِ وحبَّ العمل وتقديمَ الصَّالح العام على المصلحة الشّخصيَّة. هي مؤسَّسةُ عطاءٍ غير محدود، تُخرِّجُ أحراراً ليس في قلوبهم إلا الحبّ، لا مرارةَ ولا حقداً ولا خوفاً ولا دسائسَ ولا مؤامراتٍ ولا إخفاء.

والجامعةُ مركزٌ لتطوير الإنسان والفكر الإنسانيّ تسعَى لجعلِ الطّالب إنساناً جديداً لا يتعصَّبُ إلاّ للحقّ. طالبُ الجامعة يتلقّى المعرفة بالشَّكّ ويُحقّقُ -قبل الإيمان- بصحَّة بعض ما تلقَّاه. وهو يُؤمنُ بالاحْترام والإتقان، ويُردِّدُ أنَ الجيّدَ لا يكفي لأنَّ الأصْلَ هو التَّميّزُ. وإذا لَم يكُن هدفُهُ التَّميُّزَ فالجامعةُ ليست المكانَ الصَّحيحَ له. الجامعةُ لا تغرسُ الإيمانَ في نفوس طُلّابها بل تُريدُهم أنْ يَصلوا إلى الإيمان عبرَ الشَّكّ والتَّفكير والبحثِ ليتوصَّلوا إلى إيمانٍ صحيحٍ راسخٍ. مثلُ هؤلاء هم قادةُ المستقبلِ وزعماءُ الأمَّة(32).

ولم تنقطعْ دعوتُه الدَّائمةُ إلى مشاع التّعليم، وأنَّ المعرفة التي يكتنزُها المعلّمُ أمانةٌ من الحقّ سبحَانهُ لا يجوزُ له حملُها وحَجْبُها عن الأخرين أو تقييدُ الأخذ منها، وهو بهذا يحاربُ ما يُسمَّى بحقوق الملْكيَّة الفكريَّة؛ فالفكْرُ ـ عنده ـ ليس مُلْكاً لأحد، ويَرَى أنَّ ثمَّةَ خمسةَ أمورٍ يكونُ عابرُ الطَّريق فيها أحقَّ من الثّاوي عليها: «الهواءُ والنّارُ والماءُ والكلأُ والمعرفةُ»، وقد طَبَّقَ هذه الرُّؤية على نفسه، فلم يبخلْ على أحد بما عنده، علْماً أو نُصحاً وتَوجيهاً أو تقديمِ وثيقة أو مصدر ما، وحملت طُرَّةُ بعضُ مؤلَّفاته عبارة «حفيضة دون حفيظة»! أي: مُتاحاً مجَّاناً لكلّ راغبٍ دون قيدٍ أو شَرْط.

وضمنَ مشاع المعرفة وإتاحتها للجميع يندرجُ مشروعهُ الوَقْفيّ الكبيرُ «إنارات فريدة»، هذا المشروعُ الذي أوْقَفَهُ وشَرَطَهُ

على طلبة العلم والباحثين والدّارسين جميعاً؛ يشتملُ على أوْراقه وبطائقه التي بدأ بتدوينها منذ مرحلة الطّلب عام 1948م، فتجمّعت أعدادٌ كبيرةٌ منها نافت على مئة ألف وثيقة، ارْتأى أنْ يجعلَها في حيّز المُتاح، فأنفقَ عليها من ماله واسْتعانَ بوسائل العصر المتطوّرة لتهيئتها وترتيبها وعرضها على النافذة العالَميَّة «الإنترنت»، خدمةً للمعرفة والعلم وطُلابهما.

* * *

هذه أنظارٌ مجتزأةٌ وشواهدُ دالَّةٌ على جوانبَ محدَّدة من فِكْر ورُؤى الشَّيخ المعلّم، يرحمُهُ الله، وهي محاولةٌ رَصْدٌ قاصرة لم تَسْتوف أرْكانَ الإحَاطَة، لكنْ في ذكرِ بعضٍ منها ما يُجزئُ عن الكُلّ.

الهوامش:

1- الشناق، عبد المجيد: ذاكرة وطن (عبد الكريم غرايبة مؤرخاً عربياً «1923 -2014م»)، عمان: جامعة العلوم الإسلامية العالمية، 2014، ص 105

2- غرايبة، عبد الكريم: نوازل التّأريخ والمستقبل، عمان: مكتبة الرأي، (د.ت) ص 35، غرايبة، عبد الكريم: نحن وأمريكا «من أقدم العصور إلى 5 تشرين الثاني 2008، عمان: دار ورد للنشر والتوزيع، 2009، ص 36، 39

3- غرايبة: نوازل التاريخ ص 6

4- غرايبة: المرجع نفسه، ص 43.

5- غرايبة: المرجع نفسه، ص 6، غرايبة: نحن وأمريكا، ص 37.

6- كلمة جلالة الملك الحسين بن طلال في المؤتمر الدولي الأول لتاريخ بلاد الشام، عمان- بيروت: الجامعة الأردنية، الدار المتحدة للنشر، 1974، ص 13. 14، غرايبة: نوازل التّأريخ، ص 43.

7- غرايبة، عبد الكريم: الجامعات إلى أين، مقال منشور في صحيفة الرأي، الثلاثاء 15/ 12/ 2009.

8- ولهذا سَلَكَهُ مجمعُ اللغة العربيَّة الأردنيّ ضمن شُيوخه اللُّغويّين.

9- ابن خلدون، ولي الدين عبد الرحمن بن محمد (ت 808هـ): العبر (المقدمة)، (تحقيق) إبراهيم شبوح، تونس: القيروان للنشر، 2006 . 2007، 2: 470.

10- غرايبة، عبد الكريم: حاضرنا... حديث المفاوضات وتخفيف الخُلطة، مجلة المنتدى، ع 250، مج 26، عمان: منتدى الفكر العربي، يناير/ إبريل 2011.

11- غرايبة: نحن وأمريكا، ص 70.

12- غرايبة: المرجع نفسه، ص 19.

13- سورة المائدة، آية 28.

14- غرايبة: الحُريّة والمساواة في الإسلام «الإسلام دين الديمقراطية»، الدورة الثالثة عشرة للمؤتمر العام لمؤسسة آل البيت الملكية، عمان، 2004، 2: 347.

15- غرايبة: نحن وأمريكا، ص 35.

16- ابن خلدون: المقدمة 2: 90.

17- سورة النمل، الآية 18

18- البيئة في الإسلام (أبحاث الدورة الخامسة عشرة للمؤتمر العام)، عمان: مؤسّسة آل البيت الملكيّة للفكر الإسلامي، 2010، ص 503.

19- غرايبة، عبد الكريم: الاحترام والمرأة، مقال، صحيفة الرأي 15 نيسان 2005، غرايبة: نحن وأمريكا، ص 20.

20- الشناق: ذاكرة وطن، ص 115.

21- غرايبة: نوازل التاريخ، ص 45.

22- غرايبة، عبد الكريم: رسالة إلى رئيس وزراء بريطانيا، مقال منشور في صحيفة الدستور (الأردن)، 26/ 10/ 2004.

23- الشناق: ذاكرة وطن، ص 61.

24- غرايبة: نحن وأمريكا، ص 70.

25- غرايبة: نحن وأمريكا، ص 20.

26- الشناق: ذاكرة وطن، ص 133.

27- غرايبة، عبد الكريم: عرب الماء والإنسان، عمان: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 2006، ص 20.

28- الشناق: ذاكرة وطن، ص 35.

29- غرايبة: الجامعات إلى أين؟. صحيفة الرأي الأردنية، الثلاثاء 15/ 12/ 2009م،

30- غرايبة: الجامعات إلى أين؟. صحيفة الرأي الأردنية 26/ 11/ 2009م، و15/ 12/ 2009م.

31- غرايبة: الجامعات، صحيفة الرأي، الخميس 26/ 11/ 2009م

32- الشناق: ذاكرة وطن ص 131 . 132

قراءة في كتاب:

عبدالكريم محمود غرايبة «تاريخ العرب الحديث»

د. أمجد أحمد الزعبي

الوصف المادي

تحدّث الشيخ المعلم الدكتور عبدالكريم غرايبة في كتابه «تاريخ العرب الحديث»، الصادر في بيروت سنة 1984عن دار الأهلية للنشر والتوزيع، عن حقبة هامة في التاريخ العربي من الممكن اعتبارها أساساً لقراءة التاريخ العربي الحديث في إطارها النظري والزمني، فالكتاب يقع في 302 صفحة من القطع المتوسط في مقدمة وستة فصول على النحو التالي:

الفصل الأول: العالم العربي الحديث 900هـ/1494-1200هـ/1785م.

الفصل الثاني: مصر في عصر محمد علي باشا 1200/1785-1265هـ/1849م.

الفصل الثالث: آسيا العربية في عصر محمد علي 1200/1785-1265هـ/1849م.

الفصل الرابع: المغرب العربي في عصر محمد علي 1200/1785-1265هـ/1849م.

الفصل الخامس: دور الحيرة والأسر الغربي 1265هـ/1849م-1342هـ/1924م.

الفصل السادس: الدولة العثمانية والعالم العربي 1200/1785-1342هـ/1924م.

المقدمة

مقدمة أيّ كتاب تعكس الرؤية التي يريد المؤلف أن يسير بها في خضمّ البحث، لطرح جوهر ما يريد، وصياغة الفرضيات التي سار عليها، ليشكل بنائية الكتاب طارحاً عرضه لها. لكن مع الشيخ المعلم تجد نفسك تقرأ أكثر وأكثر في التفاصيل التي وكأنها في مظهرها الخارجي تسوقك خارج فكرة الكتاب، أو أنها تقودك للحظة للتفكير أنك تقرأ مقدمة تاريخ بولونيا، أو أنه يدخلك في مقدمة للصراع بين الغرب والشرق، أو مدخلاً للثورات الأوروبية، أو مقدمة في المفاهيم الليبرالية حول الثورة والحرية والديمقراطية، أو مقدمة في فلسفة التاريخ.

شكلت مقدمة الكتاب جوهراً أساسياً لكامل العمل ورؤية فلسفية عميقة لرؤية التاريخ العربي من منظور إنساني شمولي «فقد سبّب الانحراف في فهم الحرية وقراءة التاريخ المآسي.. في الماضي، وهو اليوم أشد خطراً بعد التوسع الكبير في نشر المعرفة والأخبار... لذا فالتاريخ ليس مجرد سرد للبطولة والسير... فالتاريخ هو تاريخ الأكثرية... وزاد أثر التاريخ على جماهير الشعب، وحار المسلمون بعظم المسؤولية، فاعترض عليه معترض فقال هذه غيبة لا تحل. وصاروا في علم أكثر صفحاته تاريخ للقتل والإجرام، واتفق العلماء المسلمون على أن التاريخ فرض كفاية. فهل من حقنا أن نفتّش عن المستورين لنثبت أن رجلاً اشتهر بوطنيته كان قد انحرف

مؤرخ وأكاديمي أردني.

في ساعة ضعف؟ هل من حقنا أن نتستر وراء إبراز الحقائق لنبني جبالاً من الكراهية والحقد واليأس...». ليخلص إلى أن منهجه: «ألزمت نفسي ألاّ أزوّر ولا أحود ولا أضلّل ولا أزرع غروراً ولا كراهية... إن الوقت قد آن لكتابة التاريخ وتدريسه بانتهاج طريقة أكثر إنسانية ومحبة «.

ضمن هذه الرؤية والفلسفة يعالج كتابة التاريخ العربي الحديث، فإذا كانت الدولة العثمانية هي مطلع تاريخ العرب الحديث، فإنّ شيخنا المعلم يتسق مع ذاته في هذا التناول من زاوية فلسفته التاريخية، فهو فريد في طرحه واستعراضه وسياقه للأحداث التاريخية وطريقة استنباط الأحكام ومقاربة الحدث بغيره بمقاربة لا تخلو من الطرافة العميقة في مكانها. فالحكم العثماني كان حكماً غريباً شأنه في ذلك شأن الأيوبي والمملوكي، ولكن المقاييس القومية لا تنطبق على تلك المرحلة. ويقارب هنا أنه في الفترة العثمانية نفسها «برز ملك امبراطور حكم ألمانيا وإسبانيا والأراضي الواطئة وبعض إيطاليا دون أن يُعتبر مستعمراً غاصباً».

فإذا كان التنافر موجوداً «العرب، الأتراك، الأكراد، والإيرانيون، إلاّ أنهم عاشوا في إطار موحّد لأكثر من ألف عام دون أن يفكر أحدهم بالانفصال، فرسالة الإسلام والعروبة هي رسالة تسامح ومحبة، لا رسالة تعصُّب وحقد وانتقام، فالحرية حق مطلق للجميع، فليس كل من خالفهم الرأي يوصم بالخيانة والرجعية، فهذا ليس وطنية ولا تقدمية، وتوزيع الاتهامات لا يخدم مصالح الوطن ولا يحقق أمانيه.

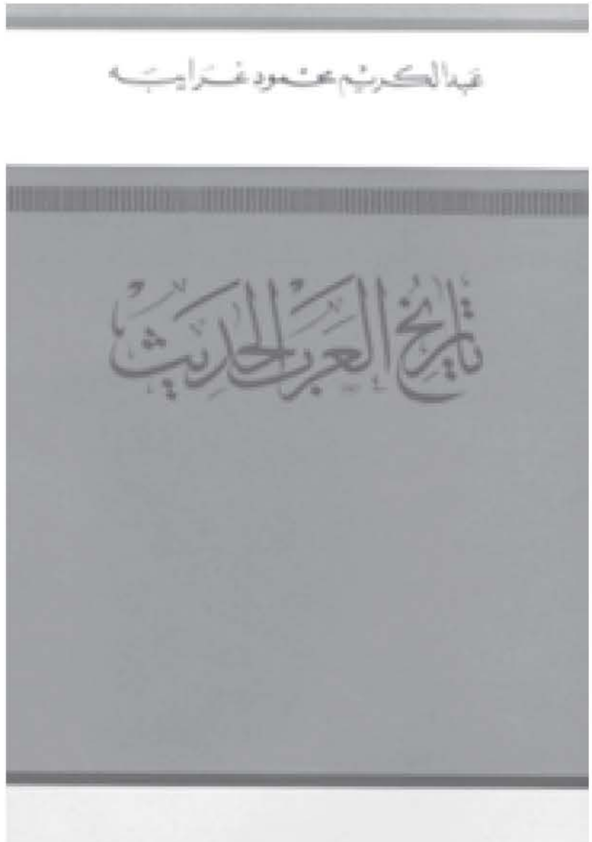
اعتمد الشيخ المعلم في كتابه على المصادر الأولية التي جمعت المعاصر للحدث والكاتب المعاصر له مغنياً النص بالتحليل والربط العميق، فهو يذكر الحدث على لسان كاتبه، وإذا أخذنا برأي القلقشندي «عن تماسك رمق الإسلام... بملوك الترك خلد الله دولتهم» نجده يضيف لمسته الخاصة التي لا تخلو من الطرفة وشدّ القارئ لما سيقول لاحقاً: «كانوا من حكام ليلة القدر الذين بدأوا حياتهم أرقاء... رغم أن بعضهم كان أمياً ساذجاً...»، وفي موقع آخر يقول: «فلا عجب إذا ما استنتج نوح بن مرتوق الجركسي قبل سبعين عاماً أنّ مسامير الرق هي عماد كبرياء الأمراء».

أما التأريخ فإنه اعتمد الدمج ما بين الميلادي والهجري في اليوم والشهر، وتقسيم الكتاب الذي نعرض له اعتمد إلى درجة كبيرة على المزاوجة ما بين التسلسل الزمني للأحداث والبعد الجغرافي العربي، أي وحدات الوطن العربي الجغرافية الرئيسة: المغرب ووادي النيل وشبه الجزيرة العربية والخليج وبلاد الشام والعراق. زاوج أيضاً ما بين السياسي والإداري والاقتصادي والاجتماعي في تناغم قلّ مثيله، فيه وصف دقيق لبعض الجوانب الحياتية لبعض المدن، فيه الوثيقة تدخل كمقدمة وفي أحيان أخرى خاتمة قول. فيه دعوى إصلاحية وتشخيص للواقع تكاد تكون مقاربة لما عاشه في شبابه وما نعيشه اليوم.

الفصل الأول: العالم العربي الحديث 900-1200هـ/1494-1785م

عالج شيخنا المعلم في هذا الفصل أحوال الوطن العربي مبتدئاً: «أطلّ القرن الهجري الثالث عشر الأول من محرم 1201 يوم الأحد الموافق 24 تشرين الأول 1786م. ولم يشعر العرب المسلمون بإطلالة قرن جديد ولا أحسوا أنّ السنة والقرن الجديدين يخبئان لهم أحداثاً مختلفة عن تلك التي ألفوها من قبل... ولم يتصور أن المسلمين متخلفون بأي شكل من الأشكال عن ركب الحضارة في العالم، أو أنهم منحرفون عن طريقها، أو أنهم يسيرون في طريق حضارة أخرى مختلفة...».

في هذه النتيجة يبدأ السرد التاريخي في إطار فلسفته التي أشرنا لها سلفاً، فهو يذكر أن السلطان عبدالحميد خان الأول قد حكم لمدة خمسة عشر عاماً وتوفي قبل أيام من تنصيب أول رئيس لجمهورية الولايات المتحدة الأميركية، وقبل ثلاثة أشهر من اقتحام الباستيل، فالامبراطورية العثمانية لم



تختلف ما بين السلطان الخليفة عبد الحميد الأول في اتساعها الجغرافي عن تلك التي حكمها السلطان سليم الأول، الذي وحّد أكثر العالم العربي تحت الراية العثمانية، وغالبية العرب يعترفون بالولاء الفعلي أو الاسمي للسلطان الخليفة العثماني، وواصل المتمردون تقديم الولاء رغم ثورتهم على ولاة السلطان وجيوشهم.

ثم ينتقل ليحدّد الإطار التاريخي للدراسة بشكل غير مباشر، رابطاً التوسعات العثمانية في الوطن العربي بسقوط الأندلس والخطر البرتغالي والإسباني، حيث يسرد تاريخ العرب الحديث من المغرب الأقصى مروراً بالمغرب الأوسط الجزائر، وعهد الدولة الوطاسية وأوائل عهد الأشراف السعديين، وأثر هجرة الأندلسيين على الدولة السعدية، ودخول الأسلحة النارية معهم إلى المغرب ليدخل المغرب ما بين الاستقرار والازدهار إلى الانحلال والتنازع مع الشرق، وخاصة مع الدولة العثمانية، إلى أن حلّ السلطان محمد الذي نجح في بناء علاقاته الخارجية الوديّة مع السلاطين العثمانيين، وتوصّل إلى اتفاق مع لويس الخامس عشر والسادس عشر، وكان من أوائل من اعترف بالجمهورية الأميركية.

ليدخلنا بعدها تحت عنوان المغرب العثماني والذي يربطه بهجمات الإسبان والبرتغاليين العنيفة على السواحل المغربية، والتي اتسمت بالقتل والأسر والتشريد والتهجير والتدمير؛ فكان الملاذ أقوى السلاطين «الملاذ الأعظم فخر الملوك كبير سلاطين الزمان نسيم الخلافة العلية العثمانية، مسترحمين إنجاد الجزائر «سياج أهل الإسلام» فظهر أمراء البحر وسادته الذين ألحقوا هزائم كبرى بالإسبان، ولكنّ التحالف بين بني زيان والإسبان قد ألحق هزيمة أدت إلى قتل عروج، فخلفه أخوه خير الدين الذي نال مساعدة السلطان العثماني، فأصبحت الجزائر ولاية عثمانية. وهنا يقدّم شيخنا أسئلة ما زالت قائمة لليوم، ويوردها على لسان أهل المغرب العثماني واعتراضهم على سياسة عروج وخير الدين وسير الترك: هل يجوز الاستنجاد بالعدو؟ وهل يحق للمسلم الدعاء على ظالم مسلم؟ وهل للمسلم أن يستجير بالعدو لإنقاذ نفسه! وهل هناك شيء يعادل الإسلام حتى يباع به! وهل يلام المستعين بالعدو أم المسبّب لهذا الطلب! وأيهما أكثر إساءة للإسلام والمسلمين؟

امتد النفوذ العثماني ليشمل طرابلس وتونس وكل الجزائر باستثناء وهران، ولكن بعد الشقة والأوضاع المحلية فرضت على السلطان واقعاً اكتفى بالولاء الرسمي، وقامت في هذه الولايات ما عرف باسم الجمهوريات العسكرية، وقد لا تكون جمهورية وصفاً دقيقاً، ولكن الواصفين عجزوا عن إيجاد اصطلاح، وهنا تأتي الطرفة: «فلم يكن الحكم في هذه الجمهوريات وراثياً ولا انتخابياً ولا ديمقراطياً... «فقد كان ديوان الجند

هو الذي يختار الحاكم الفعلي الذي مارس صلاحيات مطلقة طيلة فترة حكمه، والتي انتهت إما بالموت أو القتل، وقد ظهرت أسرتان حاكمتان في الجزائر باسم الداي، والباي في تونس، وهي ألقاب عسكرية للجند الانكشاري البري. أما طرابلس فلم تكن بعيدة عن هذا النمط، فقد أسس مغامر أناضولي عائلة حاكمة باسم العائلة القرمنلية 1711-1835م.

مصر العثمانية: بعد معركة الريدانية 1517م انتهى الوجود السياسي لدولة المماليك، وبقيت الأحوال في مصر على حالها، وأرسل الباب العالي في كل سنة والياً وقاضياً، وتمتع الوالي باحترام وسلطة قليلة، وساعده عددٌ من كبار الموظفين، فبرز الدفتردار وطغى نفوذه أحياناً على نفوذ الوالي. ولعب شيخ الأزهر الواسطة ما بين الشعب وحكامه محاولين معالجة الفجوة بين الطرفين، وكان أكثر العلماء من أصل ريفي أوصلهم العلم إلى الجاه والثروة، فغدوا أداة استقرار وتغيير دون عنف. أما طبقة المماليك فبقيت محافظة على سلطتها وتجاذب على زعامتهم فريقان: القفاريون وشعارهم الأبيض، والقاسميون وشعارهم الأحمر، وكانت الغلبة للقفاريين. ومن هؤلاء برزت شخصية شيخ البلد، وهو واسع النفوذ، وظهر من شيوخ البلد قابض الغمام أو الشيطان علي بك الكبير 1758-1772م وسيطر بعده محمد أبو الذهب الذي قضى على تمرد الشيخ ظاهر العمر. وخلفه إبراهيم بك ومراد بك.

بلاد الشام: اصطلاح جغرافي لم يتحول إلى وحدة سياسية، دخلها السلطان سليم بيسر وسهولة بعد معركة مرج دابق 1516م، وانقسمت في المرحلة الأولى إلى أربع ولايات هي حلب ودمشق وطرابلس وصيدا- بيروت، ولم يكن الحكم في الولايات وراثياً رغم بروز عائلات قدمت عدداً من الولاة مثل آل العظم ؛إلاّ أن الولاة واجهوا زعماء محليين توارثوا السلطة أمثال الأمراء المعنيين والشهابيين وشيوخ القبائل البدوية.

العراق: كان العراق العثماني خلال هذه المرحلة اصطلاحاً جغرافياً ليس له مفهوم سياسي، وقليل الاستعمال، حيث انقسم عراق اليوم إلى أربع ولايات هي: البصرة، بغداد، شهرزور والموصل. ارتبطت الإحساء بالبصرة وبغداد بروابط خاصة بحيث غدت أحياناً ولاية خامسة أو سنجقاً تابعاً للبصرة. امتد النفوذ العثماني في العراق على مراحل من الشمال إلى الجنوب. ومع استقرار الأوضاع للعثمانيين في العراق بدأ عهد جديد عرف بعهد المماليك، ولكن مماليك من نوع آخر غير ما ألفه المشرق العربي خلال القرون السابقة، من طراز آخر من العبيد كانوا مماليك مملوك؛ والذين أمعنوا في احتقار السكان وإذلالهم مع غباء شديد في الحكم، إلاّ أنهم حموا العراق من إيران وساهموا في بقائه عربياً.

الجزيرة العربية: اصطلاح جغرافي لم يتخذ شكل وحدة سياسية، حيث انقسمت إلى دول ودويلات: الاحساء ويتبعها أحياناً كل من قطر والبحرين كجزء من ولاية البصرة أو ولاية مستقلة. عُمان: لم تتغيّر أوضاعها الداخلية إذ عمل الإباضيون على إقامة إمامة امتدت أحياناً إلى أفريقية الشرقية، أو انحسرت إلى مقاطعات الداخل، وكان لها تقاليدها الانفصالية الاستقلالية، وواجهوا الغزو البرتغالي حتى تم تحرير بلادهم في منتصف القرن السابع عشر. حضرموت: تمتعت بكيان منفصل عن عدن. اليمن: نجح الزيديين في إخضاع المناطق الجبلية وتهامة الشافعية ونجران الإسماعيلية واعترف هؤلاء بسيادة الأمام الزيدي وحمل لقب أمير المؤمنين، وناصب العثمانيين العداء وأبدى مرونة بالولاء للعثمانيين ولكنه بقي متربصاً ينقض عهده كلما لاحت له الفرصة.

جدة: كان لوالي جدة العثماني نفوذ تجاوز البحر الأحمر إلى سواحله الغربية.

مكة: اكتفى حاكم مكة الهاشمي بلقب ومنصب «شريف مكة»، واعترف بسيادة السلطان العثماني الذي مارس حق تنصيب الشريف أو عزله أو الاعتراف بالأمر الواقع.

الفصل الثاني: مصر في عصر محمد علي باشا 1200/1785-1265هـ/1849م

شهدت نهاية القرن الثامن عشر ومطلع القرن التاسع عشر تحدين غريبين متناقضين في المبادئ والأهداف والنتائج. فقد وصل جيش الثورة الفرنسية إلى أرض مصر بقيادة نابليون في الوقت الذي هددت فيه القوات السعودية العتبات المقدسة والحجاز بحرميه وبلاد الشام. واستهدفت الحملتان التأثير على المجتمع الإسلامي القائم وتغييره وإقامة نظام جديد. فقد طالب السعوديون بالعودة إلى سيرة السلف الصالح، وبشروا بدعوة سلفية ولم يعترفوا بسلامة إيمان من خالفهم ولا حتى بإسلامهم. أما قادة الحملة الفرنسية فإنهم دعوا إلى إقامة مجتمع جديد لا صلة له بالماضي ولا بتقاليده وينادي بالحرية والمساواة.

هكذا تعرّض العرب لمحنة عظيمة؛ لأخطار بدعتين: أخبار الثورة الفرنسية وأخبار ورسائل السعودي؛ فإذا كانت المقاومة ضد الفرنسيين قد سُحقت أمام الآلة الحربية الفرنسية «تنادى المشايخ والناس أن هذه بلاد السلطان... وبذل الناس ما في وسعهم وفعلوا ما في قوّتهم وطاقتهم، وسمحت نفوسهم بإنفاق المال... ولقي ثلاثة عشر أزهرياً مصرعهم، وفقدت القاهرة بضعة آلاف شهيد في سبيل السلطان، لا في سبيل مصر»... وانتهت الثورة بكارثة... «فلم يكن الهدف من الثورة إلاّ العودة بالأمور إلى ما كانت عليه قبل الثورة، لا الحرية ولا الاستقلال».

كان حكم نابليون لمصر علامة فارقة، ففي الإدارة شكّل ديوانين؛ أحدهما عمومي، تألف من ستين عضواً ربعهم فقط من المشايخ والباقون من التجار والحرفيين والأقباط والعسكريين. والآخر خصوصي دائم ينتخبه الديوان العمومي من أربعة عشر عضواً، ويختار بالاقتراع السري قاضياً جديداً لمصر والذي اعتادت استانبول على إرساله. وأدخل نابليون معه ما أدخل من مشاريع كانت الأولى في مصر من الطباعة إلى العلوم إلى المرصد والاقتراع السري وأصول المحاكمات والمختبرات وحرية النساء. كانت الحملة هزة عنيفة للشعب المصري وبنيانه الاجتماعي.

تنازع السلطة في مصر بعد جلاء الفرنسيين قوى مختلفة: الصدر الأعظم، قائد الأسطول العثماني، اللذان تنازعا على رضا السلطان سليم الثالث. المماليك وخلفهم بريطانيا. الفرقة الألبانية مع قائد الأورطة «المائة» محمد علي باشا التي حصلت على دعم الشعب المصري. فكانت المؤامرات والتوازنات قد استمرت لأكثر من عامين انتهت في سنة 1805م/ 1220هـ بثورة المشايخ التي صدحت حناجرهم: يا ربّ يا متجلي أهلِك العثملي! فقد عزل المشايخ أبناء الفلاحين ممثل السلطان أمير المؤمنين، ونصبوا والياً حسب شروطهم وتولى محمد علي القللي حكم مصر «حسبما رسم العلماء للرعايا»؛ أي حسب الدستور، وبرّر العلماء عملهم هذا بأنهم هم: «حملة الشريعة وأولو الأمر الذين أمر الله الناس بطاعتهم. وهم أيضاً أهل البلد...». ادعى العلماء أو المشايخ تمثيل الشعب بدون تفويض منه باستثناء حق الوصاية الشرعية، فلا عجب إذا ما تنكر لهم محمد علي واستبد بالسلطة لأكثر من أربعين سنة.

و يختم شيخنا كأنه يشرح واقعاً حالياً: «وابتعدت الأكثرية عن مجرى الأحداث وفقدت اهتمامها بها، ولم تشارك بأحداثها، ولم تهزها النكبات، ولم تتحسس كثيراً بفساد الحكم بسبب سطحيته. ونعم العرب بالهدوء والاستقرار والراحة في ذكريات الماضي والعبودية للتاريخ المجيد. «وهكذا لم يواجه محمد علي مشكلات حقيقية بعد تخلصه من المماليك والمشايخ. وهنا يورد شيخنا بأسلوب تهكمي محاولة تجنيد المصريين في الجيش، وغضب المصريين منها فالمعركة ليست معركتهم «ياريت هجينا حيث انقضا شهر الفرزوجينا»، اعتاد المصري أن يرى المملوك العبد يأمر وينهى، والسيد الحرّ يخضع وينزوي بعيداً عن معارك الحياة، وردّد المصري والعرب معه قولاً مأثوراً: الفار بنى له جنينة وردها ينشم...

والكلب لما حكم قال الأسد له يا عم...». أراد محمد علي أن تكون مصر مزرعته قوية قادرة على حمايته وتحقيق طموحاته اقتصادياً وسياسياً وعسكرياً. فوسّع دولته، وقام ببناء جيش حديث وعصري، وقام بإصلاحات زراعية وصناعية، واهتم بالعلوم، وأرسل البعثات، ونافس السلطان العثماني وتغلّب عليه في كافة المجالات حتى حق له أن يسمي النصف الأول من القرن التاسع عشر باسمه؛ عصر محمد علي بكل الانتصارات والانتكاسات التي أصابت المشروع الذي قاده في بلاد الشام أو في الجزيرة العربية أو في السودان. انتهى عهد رجل ملأ العالم العربي ضجيجاً وأملاً، ومات وقد خفّ الضجيج وضاع الأمل.

الفصل الثالث: آسيا العربية في عصر محمد علي 1200/1785-1265هـ/1849م

تأثرت آسيا العربية بأحداث مصر محمد علي وتعرَّض أكثرها لحملاته أو تدخلاته، فقد احتلت جيوشه قلب الجزيرة العربية وكل سواحلها المطلة على البحر الأحمر وأكثر ساحلها على الخليج، وكادت تطلّ عل بحر العرب، وأقام محمد علي علاقات وثيقة مع سلطان مسقط وعُمان وفرض هيبته على البحرين، وقام عملاؤه وأنصاره بنشاط كبير في العراق، واحتلت قواته كل بلاد الشام حسب أوسع تحديد جغرافي لها. واستعرض كافة الأحداث لكامل الوحدات التي تشكل آسيا تقريباً، حيث ختم حزيناً: «كانت نهاية محمد علي وآل سعود باعثة على الحزن. وإذا كانت فطيم الحورانية في رأي ناظمي المواويل الشعبية قد قامت ترقص الدبكة فرحاً وشماتة بمحمد علي الذي كان يبكي على فراق سورية، فإنّ الحكم العثماني العائد كان كفيلاً بحملها على نسيان مظالم محمد علي وأعوانه، وحلّ اليأس من الصلاح والإصلاح محل الأمل، وسيطر على أذهان الناس التبرير الديني لكل هذا، فقد بدا لهم أنّ كل ثائر مهما كانت مبرراته هو باغ متمرد ساع في الأرض فساداً محكوم على عمله بالفشل، واستكان الناس لقدرهم واستسلموا لما اعتبروه قضاء الله وحكمه. واستمرت حياة الناس في ظلّ الخوف من المصير المجهول الذي بدا فيه المستقبل أكثر ظلاماً من الحاضر.

الفصل الرابع: المغرب العربي في عصر محمد علي 1200/1785-1265هـ/1849م.

واجه المغرب العربي خلال هذه المرحلة تحدياً جديداً، غير الجهاد البحري، وهو الاحتلال الدائم الذي تجاوز احتلال مدن واتخاذها حصوناً ومعاقلاً مثل سبتة ومليلة ووهران. كانت أولى مشاكل المغرب هي الجهاد بدون الإمام أو بلا إذن منه أو خلافاً لرغباته. فقد واصل حاكم قسطنطينة الباي أحمد القتال رغم استسلام الداي في الجزائر. ودخل ما سمي بالجهاد غير القائم على العنف من خلال الوسائل السلمية لحمله على الاعتراف بالحقوق الشرعية للشعوب أو ما سماها (النضال من خلال البولتيقا). وأثار تمرد محمد علي والحركة السعودية جدلاً فقهياً حول جواز الثورة على الأمام وعن حق الإمام الاستعانة بالكافر ضد الثائر، ومال الفقهاء إلى إجازة ترك الجهاد والاستعانة بالكافر للقضاء على فتن البغاة لأمثال محمد علي وابن سعود.

كان التهديد الإفرنجي وتنظيم العلاقة مع العثمانيين هما مشكلتا حكام المغرب، فقد تقلص الوجود العسكري العثماني وانحسر النفوذ السياسي واقتصر على ولاء رمزي للسلطان الخليفة. وازداد نفوذ القناصل الإفرنج وأصبحوا المستشارين المقربين للحكام، وزيّن الإفرنج للحكام أبواباً للإنفاق بحجة الإصلاح والتمدُّن، وسهّلوا لهم الحصول على القروض، وغرقت دويلاتهم بالقروض والفوائد التي عجزوا عن سدادها، وأُنفقت هذه القروض بالفساد والمشاريع التي لا جدوى منها ولا تدرّ دخلاً. وتدخلت أساطيل الإفرنج ففرضت على الحكام التخلي أولاً عن نشاطهم البحري، ثم أجبرتهم على تقديم ضمانات وقبول قيود تضمن الوفاء بالتزامات الديون. وغدا واضحاً أنّ مرحلة الاحتلال قد أزفت وبدأت بأقوى دول المغرب وهي الجزائر.

الفصل الخامس: دور الحيرة والأسر الغربي 1265هـ/1849م-1342هـ/1924م

تجاذب العرب خلال القرن الماضي عبوديتان؛ أولهما عبودية التاريخ والتقاليد، وثانيهما بريق الحضارة الغربية وما تعنيه من مدنية وقيم غربية وإنتاج كبير وثروة. والحيرة عامة لا تترك مجالاً لتوضيح الهدف وتحديده. أيكافحون الإفرنج الذين يهددونهم، أم يقاومون الظلم الذي يرزحون تحته؟ هل يقلدون الغرب ويتخلون عن تراثهم وتقاليدهم، أم يعودون إلى سيرة السلف الصالح. ونادى بعضهم بالانتقاء وتساءلوا: هل للمسلمين طبيعة مختلفة لا تحتمل إدخال الأنظمة الغربية المسيحية؟ وهل صحيح أنه لا يصلح أمر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها؟.

واختلف الحكم من بلد إلى آخر حسب طبيعة الحكم القائم ونوعه، مباشراً أو غير مباشر. فهو في البلدان الخاضعة للحكم الإفرنجي المباشر (فرنسا) مثل الجزائر وتونس والمغرب وليبيا (ايطاليا). وغيره في البلاد التي سيطر عليها نفوذ الإفرنجي (البريطاني) من وراء واجهة وطنية مثل مشيخات وسلطنات ساحل الجزيرة العربية. وتقرَّب الحكام من القوة الإفرنجية القريبة واتصلوا بها سراً وعلانية رغم ضعف احتمالات التماس العسكري مثل الدولة العثمانية. وبرزت طبقة جديدة تسعى للمشاركة في الحكم والسلطة من جهة، وللسيطرة على طرق الاستفادة من الغرب وما يستورد منه من أفكار وأدوات. وتألفت هذه الطبقة من فئة الأعيان «ذوي المصالح الحقيقية» ومن انضم إليهم أو من اجتذبوه من المثقفين ثقافة غربية. وطالب هؤلاء بتطبيق شيء من أساليب الغرب في الحكم من أنظمة برلمانية تحدّ من السلطة الحاكمة التقليدية.

اختلف مفهوم النضال في أفريقيا العربية عنه في آسيا العربية نتيجة تباين الخطر الغربي، فرأى المغاربة في المقاومة المسلحة والسلمية طريقاً للتحرر، بينما رأى عرب آسيا أن الخطر الذي يهددهم هو الاستبداد العثماني وفساد الحكم، ولم يروا بأساً في الاستعانة بالغرب الذي يحتل أكثر البلاد العربية في أفريقيا. واعتقدوا أن هذا الغرب قد يساعدهم على التحرر والتقدم.

الفصل السادس: الدولة العثمانية والعالم العربي 1200/1785-1342هـ/1924م

يبدأ شيخنا فصله الأخير «ستبقى الآراء حول هذه الحقبة من التاريخ، بل وحول العهد العثماني كله مختلفة ومتضاربة. ولكن هذه الحقبة تختلف عن العهد العثماني السابق بمحاولات الإصلاح والتغيير التي حاول السلاطين والوزراء إدخالها إلى البلاد بشكل عام، وإلى أجهزة الحكم بشكل خاص». فخطر الاحتلال الأوروبي وجَّه تفكير أهل المناطق التي احتلها الأوروبيون أو هددوها بالاحتلال إلى التشبث بالأمل العثماني الواهن، وخاصة عند عرب أفريقيا، ورأوا «في الخليفة الموئل الأخير لأمم الإسلام جميعاً» واتجهت أنظار المسلمين نحو الأستانة يستمدون منها مدد السيف والمدفع والمدد المعنوي. وتوجهت أنظار السلاطين للجيش وإصلاحه لإعادة قوة الدولة.

اتجه الإصلاح العثماني بعد الجيش لما عُرف بالمراسيم 1839-1876 الذي بدأ بخط شريف كلخانة 1839م والذي أكد لأول مرة على الأمن على الأرواح ووضع نظام ثابت للضرائب. ومرسوم السلطان عبد المجيد الأول 1856م الذي تضمن المساواة ما بين المواطنين دون التفريق بسبب الدين أو المذهب. وقانون الولايات 1864م الذي نظم وحدَّث التنظيمات الإدارية. وكانت المرحلة الأخيرة قد توجت بدستور مدحت باشا 1876م الذي علق العمل به في عهد السلطان عبد الحميد الثاني حتى سنة 1908م.

يورد الدكتور غرايبة معلومات تفصيلية عن هذه المرحلة

وجهود السلاطين والصدارة العظمى أو رئاسة الوزراء، واستحداث وزارة الداخلية والخارجية ووزارة العدل ووزارة المعارف ووزارة الحربية عن البلديات والمدن وتنظيمها، وجهود الإصلاح التي قام بها رجال بهرتهم الحضارة الغربية ولم تنجح محاولاتهم كما نجحت محاولات مماثلة ومعاصرة في اليابان. وكان العثمانيون قد بدؤوا محاولاتهم قبل اليابان وبشروط أفضل وإمكانيات أكثر. ولم يكونوا غرباء عن الحضارة الغربية رغم انحرافهم عنها وعجزهم عن اللحاق بها. وبدأ اليابانيون محاولاتهم من العدم. ووقفت التقاليد في طريق التغير في البلدين.

ونجحت اليابان، وفشل العثمانيون والعرب والمسلمون! هكذا ختم الكتاب.



فريديريك وورمس:
لا يمكن أن نعيش لحظة الحاضر دون ذاكرة

◄ ترجمة مدني قصري

(العودة إلى التاريخ، سواء على الصعيد الفردي أو على الصعيد الجماعي، عملٌ ضروري على المستوى الأخلاقي، والنقدي والعلاجي معاً. يجب ألا نخاف من تاريخنا. فالتاريخُ هو الوسيلة الوحيدة التي تُخلِّص مرتكبَ الخطأ من خطئه أو خطيئته).

فريديريك وورمس

«ما أكثر ما يميل الإنسانُ، تحت وطأة الزمن وضغوطه المستمرة، إلى نسيان تاريخه، عن خطأ طبعاً!» هكذا يقول الفيلسوف فريديريك وورمس Frédéric Worms الذي يُذكّرنا بأنّ ذاكرتنا هي التي تصنع منّا كائناتٍ حية.

يقول طلابُه إنهم لم يروا أستاذاً مرحاً وسعيداً مثل فريديريك وورمس. عمرُه 49 عاماً، لو سألتَه كيف ولماذا صار فيلسوفاً لأجابكَ وعلى شفتيه ابتسامةٌ عريضة: «إنّ ما دفعني نحو الفلسفة كان بالتأكيد، ومن بين أمور كثيرة، الحاجة للإجابة عن أسئلة لم تكن تَفرِض نفسَها عليّ مباشرة، لكنها فُرضت على أهلي من قبلي، عندما أُجبِروا على الاختباء أثناء الحرب. إنّ قضايا فلسفية كثيرة قد تظل تنتظر سنوات طويلة، قبل أن تطفوَ على حين غرّة، في حيّز وَعْي الإنسان». لا شك أنّ حيّزاً كاملاً من رؤية هذا الفيلسوف للعالم يكمنُ هنا، في هذا الانشغال بربْط مسار حياته بالتاريخ، ليس بدافع جنون العظمة، ولكن بدافع الرَّجُل المنشغل بهموم الآخرين. هؤلاء الآخرون الذين ننسجُ معهم الحياةَ العلائقية التي نكون لا شيء دونها. نسيجٌ مُمْتَدٌّ بين الماضي وبين المستقبل الذي يتغيّر نسيجُه أحياناً عندما تحدُث «لحظة» كبيرة، أو قطيعة. لقد اهتم فريديريك وُورمس بما يسمَّى «لحظة 1900»، عندما عادت الروحُ إلى الفلسفة، ولاسيما بفضل الفيلسوف برغسون. واهتم أيضاً بـ«لحظة 1940»، عندما تخلَّى معنى الحياة عن التجرّد، لكي يصبح معنًى وجوديّاً، وفردياً. لكن ما هي «لحظة اليوم؟» في رأي هذا الفيلسوف؟ إنها «لحظة الرعاية»: رعاية حقّ الإنسان في الصحة للجميع، لأنّ رعاية الآخرين هي وسيلتنا للبقاء على قيد الحياة.

عن حضرة الحاضر وعلاقته بالذاكرة دار هذا الحوار الذي أجرته مجلة «كليه نوفيل» الفكرية الفرنسية مع الفيلسوف فريديريك وُورمس (العدد 87/ 2014).

كليه نوفيل: مِن البوذيّ الحكيم إلى التاجر المجنون، كل الناس ينادون اليوم بالتواجدِ في حضْرة اللحظة، ويسعون إلى التحرّر من الماضي ومن المستقبل. ما هي رؤيتك لهذه الحضرةِ

◄ كاتب ومترجم جزائري مقيم في الأردن.

كلية الوجود؟ (الحضرة هي حالة الحضور، أو الوجود في الحاضر، وكلية الوجود أي الحاضرة في كل مكان).

فريديريك وورمس: بالطبع علينا أن نكون في قلب الحاضر دوماً! إنّ مَن ينغلقون في داخل الماضي، أو الذين لا يعرفون شيئاً آخر سوى الاستسلام إلى حُلم المستقبل هُم أشخاصٌ ليسوا في حالة طيّبة. لكنّ هنالك صلاتٌ أخرى تربطنا بالماضي والمستقبل، غير هذا الهوس بالماضي، وغير تلك الأحلام بالمستقبل. تُرى، ما هو الحاضر الذي يمكن أن نُحْسِن عيشه؟ كثيراً ما يتردّد شعارُ الفلاسفة الأبيقوريين اليونانيين، الذي يقول: «اقطفْ لحظة الحاضر!؟» «Carpe diem »، لكننا في الوقت نفسه ننسَى أنّ هؤلاء الفلاسفة كانوا يمنحون حيّزاً واسعاً للذاكرة. كانوا يقولون: «إذا كانت اللحظةُ مؤلمةً فهي تستدعي ذكريات سعيدة". وهنا لا بد من التذكير أن الكاتب الفرنسي ألبير كامو Albert Camus كثيراً ما كان يَرجع عن طيب خاطرٍ إلى الأوقات السعيدة، في الطبيعة، وفي الشمس، مع أصدقائه، ومع مغامراته العاطفية، إلخ. فهذا ليس أمراً سهلاً دائماً. فإذ كنتَ جائعاً فلن تزيدكَ ذكرياتُ ولائم الماضي إلا ألَماً وجُوعاً. بيد أنّ ثمة أمراً غايةً في الأهميّة: الحاضرُ مُترسِّخ في أجسادنا أيضاً. بل ويمكننا القول إنّ جسدَنا هو الذي يُحدِّد حاضرَنا. عند الحاجة الحيوية الملحّة، مثلاً. فإذا أصابتنا جلطةٌ فجأة، أو إذا هزّ زلزالٌ العمارةَ التي نكون فيها فلا شيء في هذه اللحظة الحرجة يهمُّنا غير أجسادنا! ففي هذه اللحظة يصبح نسيانُ كلّ الباقي أمراً مشروعاً. لكنّ، ما إنْ تمرّ هذه اللحظاتُ حتى يضعنا حاضرُنا نفسُه في الزمن مرة أخرى: ذاكرةٌ حيّة وليس هَوَساً، مستقبلٌ يصنع نفسَه هنا والآن. فحتى الرجلُ الحكيم، الغارقُ في «الحاضر الأبدي»، المتأمّلُ للعالَم، سوف يخضع حتماً لهذا الشرط: فهو أيضاً، سوف يضطر، عاجلاً أم آجلاً، لأنّ يضع نفسَه في ذاكرة معيّنة، وفي نشاط معيّن، حيث يكتشف الآخرين، ويكتشف العالم ثانيةً. هكذا هي الأشياء، وإلا فلن نكون بشراً!

*** أراكَ تعمل على محورين اثنين، تقول إنهما يحدّدان حياةَ الإنسان: الذاكرة، والقابلية للانجراح، وتضيف إليهما الإبداعَ، والمستقبل أيضاً...**

- نعم، وهذان المحوران مرتبطان أحدُهما بالآخر. الذاكرة تُضاعِف قابليّتَنا للانجراح، وهو انجراحُ حياتنا الجسدية، وكذلك انجراح هُويّتنا أيضاً. فالإنسان قد يتألم بسبب ذكرياته، ولكن قد يفقد ذاكرتَه أيضاً. ولهذا السبب صار مرضُ الزهايمر منتشراً في أيامنا. فهذا الداءُ يطوي الإنسانَ في داخل اللحظة، ويعزله بعد ذلك نهائياً عن «مدَى الزمن»، هذا المدى الذي تغاضَى عنه الفكرُ المعاصر. ولكنّ الذاكرة قوةٌ أيضاً، ومصدرُ إبداعٍ مفتوح على المستقبل. فهي التي تُوسّع ذكاءَنا عبر الزمن، وتجعله حيّاً، ومن ثمّ تجعله إنسانياً حقاً. ولذلك أيضاً، وكأيِّ شيءٍ حيّ، فقد تصاب الذاكرةُ بالمرض هي أيضاً. كان الفيلسوف جورج كانغيلام Georges Canguilhem يجعل من «إمكانية التعرّض للمرض» تعريفَه للحياة نفسها - فشلُ الذاكرة ليس أقلَّ انجراحاتنا. إنّ ما هو قابِلٌ للحياة هو وحده المعرّضُ للمرض.

*** ما الذي يصل ما بين الذاكرة وبين الانجراح والإبداع؟**

- إنها علاقتنا بالآخر. إننا نعيش في زمن مفتون بالضعف والانجراح، وعلينا ألا نقع في حالة «الإيذاء» العام. إننا، شئنا أم أبينا، نولَد عرضةً للانجراح، ولم يتسنَّ وجودُنا في هذه الحياة إلا لأنّ شخصاً آخر اعتنَى بنا واهتمّ. كنا جميعاً رُضّعاً ثم أطفالاً، وجميعُنا معرّضون في وقت لاحقٍ للمرض، ومعرّضون للإصابات المختلفة، ومعرّضون لأن نكون تابعين. المفارقةُ هنا أنّ هذا الضعف هو موردٌ من مواردنا أيضاً: الإقرارُ بهشاشتنا العلائقية هو اعترافٌ فوريّ بموردنا العلائقي. فقبل أن نصير أفراداً صَنعنا صلات، فالصّلاتُ هي التي جعلت منّا أفراداً قادرين على أن يكونوا مستقلّين ومُبدعين، لكنّ لن نكون أفراداً

إلا من خلال العلاقات التي علينا أن نخلقَها، ونسعى لخلقِها بلا انقطاع. وهكذا، فنحن لسنا فقط تابعين وسلبيّين، وإنما نحن مستقلون وناشطون، ولكنّ لن نكون كذلك، في كافة الأحوال، إلا من خلال العلاقة.

*** لكنْ كيف يتداخل الآخر مع ذاكرتي؟**

– بطرقٍ عديدة. أوّلاً عندما تكون الذاكرةُ تحت وطأة الألم: كلّنا نَحمِل ذكرياتٍ سلبيةً نسعى لنسْيانِها ومحْوِها. لقد جعل الروائي John Cowper Powys من هذه الذكريات مفتاحاً لأعماله الإبداعية: ففي رأيه أنه يجب أن ننْسى ما هو غيرُ مطاقٍ حتى نعيش، وحتى نولَد من جديد. وهو يأخذ كثيراً على المحلّلين النفسيين الذين يصفهم بـ«أنصار القسوة»، لأنهم يشترطون منّا عند خضوعنا لتحليل نفسيٍّ أن نستعيد ذكرياتنا الماضية المؤلمة، بحجّة أنها هي التي تُمثّل «الحقيقة». فهذا الرفضُ من هذا الروائي يمكن أن ينـاقَش، لكنّ ثمة أمراً مؤكداً لا شك فيه وهو أننا لا نستطيع أن نواجه ذكرياتنا المؤلمة بمفردنا. فهذه المواجهة مع حميميّتنا يجب أن تمرّ عن طريق مشاطرة الآخر لنا – سواء أكان هذا الآخرُ محلّلا نفسياً أم لا. لماذا؟ لأنّ الفردَ نفسَه هو الذي يحمِل هذه الذكريات المؤلمة، وليس جزءاً منه فقط. فكيف إذن يستطيع هذا الشخصُ أن يعالِج نفسَه بنفسه؟ فإنْ تعذّر عليه أن يبنِيَ نفسَه بصورة صحيحة فذاك بسبب العلاقات في غالب الأحيان. فهو يستطيع أن يُعيد بناءَ نفسه، لكن فقط من خلال العلاقات التي يقيمها مع الآخرين.

فالسعادة إذن، ومن ثمّ الذاكرة السعيدة، تمرّان أيضاً عن طريق الآخر. لماذا؟ لأنّ السعادة مهدّدة هي الأخرى بـ «التأتأة». فهذا الخطر يظهر على الخصوص من زاويةِ التجربة السيئة التي نستمتع باجترارها، مثل أسطوانة «خربانة» (كلنا مدفوعون بالرجوع ألف مرة، بمفردنا، وبلا طائل، إلى تجاربنا المؤلمة السابقة)، لكنّ الأسطوانة يمكن أن تتعثّر عند الأشياء الإيجابية: خذْ، مثلاً، كلمة «أحبك» التي يردّدها العاشق مليون مرة على نجم حياته. هنا يُزيل الكاتبُ الفيلسوف واللاهوتي الدنمركي كيركيغارد Kierkegaard هذا «اللغمَ»، إذ يَعرض علينا في كتابه «التكرار» « La Répétition » الفخّين المُمكنين التاليين، قائلاً: فإمّا أن تظلّ كلمة «أحبك» التي يردّدها العاشقُ سطحيةً، فتتكرّر بلا طائل، ولا تسجّل شيئاً في حياة أيٍّ كان، ومن ثم تضيع في رمالِ الدونجواتية (الغراميّة)، وإما تُوجَّه إلى سماءِ «الحب الخالد»، الناعم الأفلاطوني. لكنّ، هنا أيضاً، لا يندرج هذا الحب في حياةِ أيّ كان. فلكي يكون هذا الحبُّ موجَّهاً إلى شخصٍ حقيقي يجب أن يكون الآخرُ موجوداً وُجوداً كاملاً ونهائياً، في لحمِه وفي لحمنا، وفي ذاكرتنا وفي ذاكرتِه أيضاً.

*** مكانُ الآخر هذا في ذاكرتنا يجعلنا أيضاً نتذكر، شخصيّاً، أشياءَ لم نعشْها أصلاً...**

– أجل، وذلك دائماً بسبب البُعد العلائقي الذي يربطنا بالحياة العائلية، والأخلاقية، والسياسية، والذي يربطنا أيضاً بالتاريخ الذي تستمَدّ منه سيرتُنا معنًى في هذه الحياة. وذلك هو شأن كل واحد منّا. ولذلك لا بد من مواجهة هذا البعد على جَبهتين: على المستوى الفردي وعلى المستوى الجمعي معاً. كلُّ واحد يفعل ذلك بطريقته. ففي كتابي «العودة للحياة» أتأمل كلَّ هذا بصورة فلسفية وسياسية، لكنني أواجه أيضاً تجربة فردية. تجربتي الخاصة، والجروح التي نقلها إليّ تاريخي. فلهذا السبب تحديداً نُصبِح فلاسفة!

*** الباحث بوريس سيرولنيك** Boris Cyrulnik **يتحدث عن ذلك بوضوح في «انقذْ نفسك، فالحياة تناديك!»** (Odile Jacob، 2012) **التي يروي فيها كيف استطاعت ذاكرته أن تحميه وتنقذه وهو طفلٌ هارب أثناء الحرب، بمزْج الخيال بالحقيقة. هذا المزجُ كان في فائدته. ففي أي وقتٍ في رأيك، يصبح هذا المزجُ مُهلوساً؟**

- كلُّ ذكرياتنا الشخصية تقوم أساساً على مزيج من الخيال والحقيقة، ومن التجارب التي عشناها موضوعياً، ومن مسائل ذاتية تماماً. ففي أيّ لحظة تصبح «الأسطورة الشخصية»، أو «الرواية العائلية» مُهلوسة، ومَرَضيّة؟ تصبح كذلك بلا شك عندما نفقد «مؤشر الحقيقة» الذي يتحدث عنها بول ريكور Paul Ricœur في كتابه «الذاكرة والتاريخ والنسيان»، وهو بحثٌ حول ما تعرّض له شخصياً، والذي هو معيارٌ من معايير الصحة. لنوضّحْ ذلك بقصة بوريس سيرولنيك نفسه: بعد مرور نصف قرن قام بالتحقيق فيما تعرّض له وهو طفل، وأدرك أنه في ظروف عدّة اخترعَتْ ذاكرتُه أشياءَ لم يعشها. لكنه لا يعاند. فهو يُقرّ بوجود تلك التخيلات، ويجد لها تفسيراً، ويفكّ الواقع عن الخيال. أما الشخصُ المُهلوس فهو يُنكر هذه النهاية، ويقرّر أنّ الأمر كلٌّ متكاملٌ وغيرُ قابلٍ للتجزئة. أو أنه، أسوأُ من ذلك، يُنكر كلَّ شيء. وعلى الصعيد الجمعي قد يصبح نفْيُ الحقيقة «إنكاريةً» (أي نظاماً أخلاقياً وفلسفياً سلبياً يرفض كل حقيقة)، وهو مرضٌ جماعي أكثر انتشاراً ممّا نتصور. ففي رواندا، مثلاً، أمكننا ملاحظةُ أن مُرتَكِبي الإبادة ذهبُوا إلى حدّ إنكار الوقائع، حتى أثناء ارتكابها.

*** عند ذكْرك لـ«كارل ماركس»، و«ونستون تشرشيل»، نراكَ تقول: إنّ «الشعب الذي لا يعرف تاريخه محكومٌ عليه بأن يعيش تاريخه ثانية». فلو طبّقنا هذا على «الإنكارية» لأصبح الأمرُ مخيفاً.**

- العودة إلى التاريخ، سواء على الصعيد الفردي أو على الصعيد الجماعي، عملٌ ضروري على المستوى الأخلاقي، والنقدي والعلاجي معاً. يجب ألا نخاف من تاريخنا. فالتاريخُ هو الوسيلة الوحيدة التي تُخلّص مرتكبَ الخطأ من خطئه أو خطيئته. وهذا يطرحُ الحدَّ الأدنى من إمكانية العفو: فحتى نعفوَ يجب ألا نختصر الآخرَ في حدود ما فَعَلَه. فلو لم يُقرّ الألمانُ بما قاموا به في ظلّ الرايخ الثالث لَما استطاعت أوروبا أن تُعيد بناءَ نفسها. وعلى العكس من ذلك، يتمثل الهوسُ في مزْج أمّةٍ بعينها بالأعمال التي ارتكبَها مُمثلوها.

*** في رأيك أننا لا نستطيع أن نتقدّم ونتطوّر، ونكبُر إلا إذا جُرحنا، وتجاوَزْنا هذا الحاجز. هل حدث لك أنْ «أثنيتَ» على حاجزٍ واجهْتَه بعد اجتيازه؟**

- أجل، بالتأكيد، لكنّ بعد فوات الأوان. مرضٌ، أو فقْدٌ، أو فشل... على وجه التحديد أقول إنّنا لا نحمَد أمراً سلبياً في حد ذاته، بالطبع، لكننا نُثني على المورِد الذي أجبرنا هذا الأمرُ السلبيّ على إيقاظه فينا. فالسلبيُّ يظل سلبياً. فلا أحد يتمنّى الفقرَ أو المرض. لكنّ مفارقة المرض أنه يجعلنا نشعر بالحياة، والكثير من الناس يفضّلون هذا على اللا شيء: فهُم على الأقل يشعرون أنهم على «المسرح»، وليس جالسين على أريكة، ينظرون إلى مشهد الحياة، وهو الوهْمُ الكبير الذي يُصيب المجتمع الحالي.

*** ما هي القواسم المشتركة في الأوقات المفصلية في مسارنا الشخصي، الأوقات التي نقول فيها لأنفسنا: «أوف! ها أناذا أعيش؟»**

- كل هذه الأوقات تشمل الزمنَ في ديمومته. فهي تقع تباعاً قبل التجربة وما بعدها. ولا تكاد هذه التجربةُ تمرّ حتى نَعيَ الخطرَ الذي نكون تعرّضنا له، ونَعي السعادة الآنية التي تَفتح لنا باب المستقبل. إنه ما أسميه أيضاً «عودة الروح». إنّ المفارقة الكبرى في عبارة «عودة الروح» هذه هو اعتقادُنا أننا «نعيش» تجربة لأوّل مرة، وإلى ما لا نهاية، وأننا لا نفعل شيئاً بعد ذلك سوى أنْ نعيشها من جديد، بصور أخرى، وبأشكال أخرى، فيما الحقيقة عكس ذلك تماماً – كل أعمال الروائي الفرنسي مارسيل بروست كانت مكرّسةً لإثبات هذه الحقيقة. إننا في الواقع، عندما نعيش تجربة لأوّل مرّة لا نعرف أننا نعيشها لأوّل مرة، أو لا نكاد نعرف ذلك. فلا نعيها حقاً إلا فيما بعدُ، عندما نعيشها ثانية. قد يبدو الأمرُ ضرباً من الجنون، لكنّ ظني أنّ الأمرَ كذلك حقاً!

المسكوت عنه في رواية نحيب الرافدين

د. إيمان محمد العبيدي

رواية «نحيب الرافدين» حددها مؤلفها عبد الرحمن مجيد الربيعي بجنس الرواية السير ذاتية، الأمر الذي يضع أمامنا مجموعة أسئلة تستذهنها الرواية والمنهج، فهل كتبت لأشخاص معينين يعيشون في الزمن المبسوط فيها؟ وهل تحديد جنسها -الرواية السير ذاتية- أدى إلى وأد استجابة الشعرية عند المتلقي؟ وهل هذا التحديد يعطينا الحق بإيقاف عجلة تمرد الراوي -الروائي- في زمنها؟ أو هل كان الوضع ليسمح بالتصلع الإحساسي في حضرة بلد يُحتضر ومثقفوه ومبدعوه يتبضعون بين أحضان الليالي مترنحين بين أيادي نساء متصنعات العشق والجمال هروباً من المسؤولية التي تحيط بهم؟ مجموعة أسئلة تُستذهن في حضرة الصفحات التي قاربت السبعمائة صفحة.

يشير تودوروف إلى زاويتين أو رؤيتين اثنتين متوازيتين ومتناظرتين في عمل الرواية هما: «الرؤية من الداخل، والرؤية من الخارج. ففي الحالة الأولى لا تخفي الشخصية شيئاً عن الراوي، وفي الحالة الثانية فإن هذا الأخير يستطيع أن يصف لنا أفعال الشخصية ولكنه يجهل أفكارها ويحاول أن يتنبأ بها»(1). وقد ركز الربيعي على تقانة الرؤية من الخارج أكثر من تركيزه على الرؤية الأخرى- ليمتح متلقيه قدرة استكشاف ما وراء القصد- وبذلك يختط طريقاً أخرى للمتلقي بطريقة الكشف عن بواطن العمل لاسيما في إقامة العلاقة بين الخارج والداخل على صعيد تركيب شخصياته وعقدها وحالة تصرفاتها غير الواضحة إزاء بعض المواقف، فمنذ عتبة العنوان يضعنا الراوي على وضع استكشافي لبواطن نفسية عميقة (نحيب) مرتبطة بمجتمع محدد ومتكامل (الرافدين)، فمما لا شك فيه أن اختياره لهذا المسمى جاء مبنياً على أساس تأريخي، ذلك أن ما ترسخ فينا من مرجعياتنا الثقافية لا تقف -غالباً- على المفردة المسماة (الرافدين) إلا في موضع الفخر والتعاظم لما لها من ترسبات فكرية عميقة الوقع في بناء فكرنا وثقافتنا التاريخية، ليمدّ توقعنا ببعد أسطوري وملحمي في رسم المكان تأريخياً وجغرافياً مثلما يفتح الزمن على الوضع الحالي ويستشرف المستقبل، كما تعزو إلى اتحاد جماعي وسمو حضاري على صعيد الالتزام بالدفاع عن المكان (الرافدين) الذي طالما تعرض لهجمات كبيرة على امتداد تاريخه العريق، ولاسيما من الفرس أنفسهم، فالعنوان يبسط قوة دفاعية وحالة تكاتف جماعي فضلاً عن سياقات معرفية ترتبط بالحضارة والفكر

كاتبة عراقية.

والعمران، ففي العنوان شيء من الخصوصية واللزومية، جاء موضحاً لمسار أحداثه حاملاً مفارقاتها، لاسيما بعدما حدد صفة المكان (نحيب) بإشارة تكاتفية أخرى حاملة توصيفات لأهل المكان، فيضعنا على النسق المغاير بحسب المدلول المعرفي – معجمياً ودلالياً.. فاذا به يقتنص مكنونات سايكولوجية عميقة باطنياً تتعدى حدود النفس ليصل عمقه إلى الجذور التأريخية، فيسحب ما هو مترسخ في دواخلنا من اكتناز معرفي ليحل محله بدائل مغايرة عن المكان، لذا يصنع العنوان (العتبة النصية) لنا الرؤيا التي تضعنا أمام الثنائية الضدية (الألم/ اللذة)، (الضعف/ القوة)، (القسوة/ الخذلان)، (الحزن/ الانتعاش)، (الانكسار/ السلطة)، (الواجب/ التخاذل)، (التماسك/ الانهزام) (الحب/ اللاحب)، الرغبة/ اللارغبة).

وهكذا يبسط العنوان عالمين متضادين: خارجي وباطني.. يقف ما بين الشخصي والمجتمعي.

استخدم الروائي اللغة الإشارية في الوقوف على نوازع نفسية عميقة من غير الإشارة إلى تجذراتها أو الوقوف على أسبابها، وإن حاول الوقوف، فتبدو غير مقنعة، وعلة ذلك تتركز في ذلك الصراع النفسي الحاد الذي شلَّ عناصر الثبات فيه، فهو معادله الموضوعي -إن صحّ ما يمكن تسميته في هذا الموقف- فقد بدت تلك النوازع عوالم مصنوعة لصيغ الكبت الداخلية التي كان يعيش فيها البطل وجيله، منها (زواجه وطلاقه) التي بدت داخلياً بحسب ما يبسطه السياق الزمني في السرد التأريخي مسألة مبهمة تتجلى أهميتها في صورة زكريان والتي أخذت في ليلة زفافه، فقد استطاع أن يتنازل عن كل ما موجود من مقتنيات ثمينة تخصه في عشه الزوجي بعد طلاقه ليحتفظ بتلك الصورة وحدها، والتي أطال الوقوف عندها، وأكثر من محاوراتها بصورة واعية وغير واعية، مما يعني أنه يكتنز داخلياً حالة ضدية تقف على النقيض من الظاهر، يصل إلى حالة الصراع الداخلي بين ما يمكن أن يكون، وبين الذي لا بد أن يكون، وبين ما صار واقعاً، الأمر الذي يشكل حالة عدم إيمان بما صار، وانتقائه لمسألة النسيان هذه –الذي يظهر باطنياً بعدمه- هو الذي يثبت باطنياً عدم التآلف بين الداخل والخارج، وهذا مصنوع من بنائه الفكري إذ يدخل في عالم تذبذبه أو تنازعه بين سلطتي تيارين ضدين يتصارعان في بناء حياته تأريخياً –واقعياً- فظل يبحث في ذكرى حياته تلك ولم يستطع وأدها داخلياً، الأمر الذي كان ينبّه إلى أهمية تلك الصورة في حياته ومرافقتها له طوال ترحاله فكرياً ونفسياً، وكأنه يختط لنفسه من خلالها عالمه القديم والجديد، الأمر الذي يثبت أنها لم تنته حدثاً وموقفاً ونازعاً يشكل حضوره على المدى البعيد، سلبياً كان أم إيجابياً، ويرسم صورة أخرى للأسرة فتبدو أكثر ثباتاً وقدرة على استنطاق الحدث وترسيم مساراته سايكولوجياً أكثر منه أيديولوجياً هي صورة بيته في الناصرية الذي غادره ولم يعرف شيئاً عنه، فقد ذكر أنه زار مدينته بعد خمس عشرة سنة لداع طارئ، الأمر الذي تعذّر عليه معه الوصول إلى بيته، لتغير تكوينه جغرافياً أو يتثبت من معالم المدينة لتغييرها ظاهرياً. غير أن القراءة الداخلية تشير إلى عدم تواصله مع أهله -أخته الوحيدة من الأب والأم وخالته التي ربّته من بعد وفاة أمه- والمكان الأم مدينته الناصرية بعدما غادرها إلى بغداد، فإذا آمنا بأنها رواية سيرية، مثلما يؤكد في منهجه، فإننا سنقع إلى تضاد قولي متمثلاً في تأكيده أنه أكثر الفنانين حضوراً في الناصرية. وتطالعنا صورة أخرى ترتسم في مخيلته آنياً وهو يدخل بيت الأسرة –الوالد- ففي لحظة الدخول كأنه داخلياً يبحث عن شيء ما، وراح يدور ويبحث عنه، لذا تطل الصورة بعد غياب وكأنها كل ما كان يريده، ذلك ما لم يعلنه السرد، ولكن الناقد يستطيع أن يكتشفه بعد معرفة ببواطن الشخصية، فانعكاس الداخل قاده للبحث عن أهم الأشياء المتمركزة في نفسه القابعة في فكره، ولم يشعر

بها أو لعله لم يُرِد الاعتراف بها صراحة، لذا لم يرتكز أمامه غير الصورة التي كانت بمثابة الضوء في تلك الظلمة النفسية والبصرية القاحلة للعبور إلى الآخر الموجود أو الذي يريده أو يعرفه ولا يعترف بذلك، فإذا بذلك النبراس يصير عالماً معرفياً للآخر –الناقد– يربط بين الصورتين الأب وصورة الابن التي رسمها زكريان ليستعيد بناء الأشياء داخل تلك الشخصية، ومحاولة هروبها من تاريخها المؤلم ظاهرياً، وهذا ما يذكرنا بأهمية صورة زفافه الفاشل، هي صورة والده التي بدت بحجم صورته، فيسترجع زمنها تذكراً وتأملاً ووحشة.. فارتباط الصورتين في نفسه متأت، أولاً من حالة العزلة التي سببها غياب الأسرة –حباً وتكاتفاً، المرأة الأم والرجل الأب– لاسيما أن هناك رابطاً آخر يبدو مسيطراً على بواطن الشخصية –العامري أو الربيعي– هي حب النساء، إذ كان الأب مزواجاً، والابن عَشَّاقاً، كلاهما يفقد أبناءه، معنى ذلك أنّ الصورة عنده تختزن عوالم باطنية تظهرها حالات التأمل الكثيرة التي يقف عليها الفنان، وكلنا يعلم أن من دواعي النسيان عدم الاحتفاظ بشيء مما يُذكِّر به، إلا إذا أراد المرء الاحتفاظ به ليتذكر، ويرتبط بهذا حالة الحب أو الود التي كان يريدها لولا حالة النزق فيه والغيرة وعدم التسامح في الأخرى، وهذه الأسباب تتصاغر لمن يريد الحفاظ على الجو الأسري، لذا يبدو احتفاظه بالصورة وتأمله حالة حب لزكريان الذي حاول أن يفهم متلقيه أن إعجابه بالصورة غير متأت من رسمها ورسامها، وإنما للموقف والذكرى والحدث التأريخي في حياته أو النقلة إلى ذلك العش الذي حلم انتشاله من الحرمان الأسري الذي غلف حياته، فظل يحن إليه من خلال الصورة. فصورة الأب يشكل لحظة حضورية ملموسة لأعماقه على الرغم من تغييبها فإن لها سلطة حاضرة في ذلك المحتدم النفسي والفكري الحاد والمؤثر الذي لا يمكن التقليل من شأنه، أو اعتبار لحظة حضوره لحظة عفوية عابرة في خضم ذلك الصراع المتصارع من الأحداث في زخم صفحاتها المتلاطمة بأنواع السرد واختلاف نمذجة الأحورة فيه.. معنى ذلك أن صورة الأب ومحاولة تقليده لظهورها وحضورها في زمنه كانت المؤثر الأول في بناء شخصيته فكراً ونفسية، والأساس الأول في تشكل صراعاته الباطنية.

مثلما نلمح إشارات إلى موقفه الضدي من الحكومة متمثلاً في التزامه منهج عبد الكريم قاسم فكراً من خلال المظاهرات التي خرج بها، أو من خلال بعض المظاهر المعلنة منها عقاب من يفر من الحرب بالإعدام التي يبسط من خلالها التأزم الفكري والنفسي لرجال لا يستطيعون أن يتمردوا على ما هو موجود، ولا يستطيعون أن يواجهوا الموت في جبهات القتال، الأمر الذي جعلهم يلاقونه لا لشيء إلا لمجرد خوفهم منه، فتراءى للآخر، الحكومة، بصورة الموت على الصعيدين داخل الجبهة وخارجها، ومن ذلك الإشارات إلى مطاردات الأنفار وإرغامهم على المشاركة في الجيش الشعبي ليبسط حالة الخوف التي تصل إلى حد الرعب وعدم الإحساس بالأمان.

أما البطل غسان العامري (أو عبد الرحمن الربيعي) المحور الأساس الذي أوّل وهوّل من خلاله مسألة النحيب –القضية العامة– من وجهة نظره أنه يمثل بلاد الرافدين بتنقلاته المتعددة وفي مجموع أماكنه وتنوعها (بغداد، البصرة، الناصرية)، فيظل يعيش تناقضات عدة مسحوبة من تلك الصراعات التي يعانيها جيل بأكمله، ذلك الجيل الذي شهد حرباً طاحنة، فكان بين قطبي رحى، الأمر الذي شكل صورة مختزلة ومكتنزة لجيله، لذا ظل البطل يعيش تناقضات عدة على الصعيدين الداخلي والخارجي (بين الرغبة والرفض) فشكلت هذه محور حياته، أو المحور الذي بنى عليه روايته التي حدد جنسها أو منهجها بالرواية السير ذاتية، ومنها الرغبة في مواصلة عمله في السفارة اللبنانية، فجعل جلّ مأساته حرمانه منه بوصفه الجواز الذي ينطلق به إلى الحرية وحالة إشباع الملذات جسدياً وفكرياً، رابطاً ذلك

الإشباع بالمرأة (حنان) التي هي الوجه الآخر للحكومة، أو الشكل السياسي الذي تتبناه الدولة –الحكومة– في الخارج، بمعنى أنّ من يعمل في هذا المنصب لا بدّ أن يكون مؤمناً بسياسة حكومته (مهما اختلفت الصور تبقى صورة موافقة سياسة الدولة التي يعمل باسمها هي الوجه السائد). أما الرفض فيتشكل باطنياً حين يبين أثر الحرب من جهة، ومن جهة أخرى أثر بعض المتسيسين أو الشعراء الذين خدمتهم الظروف ليصلوا إلى الحكومة ويتقربوا منها، لذلك تطل علينا شخصية غسان العامري بمجموعة من الصراعات الداخلية، فتبدو شخصية مهزومة –مثلما أشار إليها العنوان بوصفه العتبة، أو النافذة التي تطل على الداخل– فلم نتفاجأ بمجموع الانكسارات والانسحابات التي يشهدها البطل تهرباً، فكان في أغلب الظروف بحاجة إلى اتخاذ موقف، ولكنه يعجز عن اتخاذ ما يلزم، وحين نجده صارماً نجده يتخذ الخطوة غير الصحيحة؛ تركزت في مسألة طلاقه –وتلك كانت بادرة غير موفقة حين هدم كياناً أسرياً لم يستطع إصلاحه– فلم تكن الشخصية قادرة على الالتزام والمواكبة، أو اتخاذ موقف مسؤول، بمعنى أننا إزاء عالمين: عالم باطني/ وعالم خارجي، مع أن الخارجي ينسحب إلى الباطني، إلا أننا لا نستطيع أن نفهم حدود المكان – الرافدين– إلا من خلال ترسباته الفكرية في نفوسنا وأخيلتنا حتى صار جزءاً مهماً من مرجعياتنا الثقافية يثير حماستنا وننفعل مع أية صورة تخصه. وهكذا انسحب الخارج على الداخل.

طرحت الرواية جزءاً مهماً من التواصل الفكري بين أطياف الشعب عموماً، فكان إحساسهم واحداً تجاه الأزمة التي تواجهها بلادهم من جهة، وامتهانهم لحقهم بالعيش في أمان واطمئنان من دون خوف، من جهة أخرى. حاول الروائي أن يتخذ كاميرا المراقب في بعض الأحيان، فيترك لبطله حرية الحركة والتجوال في طرقاته الفكرية، متخذاً، في أحايين كثيرة، اللغة الإشارية، ليس تهرباً وإنما تواصلاً مع الفكر الجماعي لبلاد الرافدين عموماً، الأمر الذي يجعلنا نؤمن بأن رحلته المحاطة ببلاد الرافدين ليست الغاية منها تحديدها جغرافياً، إنما معنوياً، والتذكير بأهميتها في التاريخ، لاسيما أن الرواية صدرت بنسختها الأولى في العام 2007 بإشارات العودة إلى التماسك والتذكير بالأزمة والالتحام، على حد سواء.

لعل من أجمل ما يشد في الرواية هو استعراض تلك البواطن النفسية للمواطن العراقي –ابن الرافدين– فعلى الصعيد الخارجي يثبت أن القوة والسلطة لا تتحقق إلا بنحيب أفرادها، والكثير من صانعي القرارات والباحثين عن تصعيد الأزمات، أو الركض وراء الأمجاد، لا يهمهم ولا يفكرون بتلك النوازع النفسية التي يعاني منها الفرد في ظل من يصنع الأمجاد أو يبحث عنها.

ولكن يبقى، إن كنا نحاسب الراوي وفاقاً لسيرته التي أكدها بمنهجه، الرواية السير ذاتية هذه، هل يصح موقف التصلع الفكري والانسحاب في حضرة بلد يحتضر ومثقفوه ومبدعوه يتسكعون في أحضان الليالي التدميرية تسكرهم نساء بلا ثبات؟

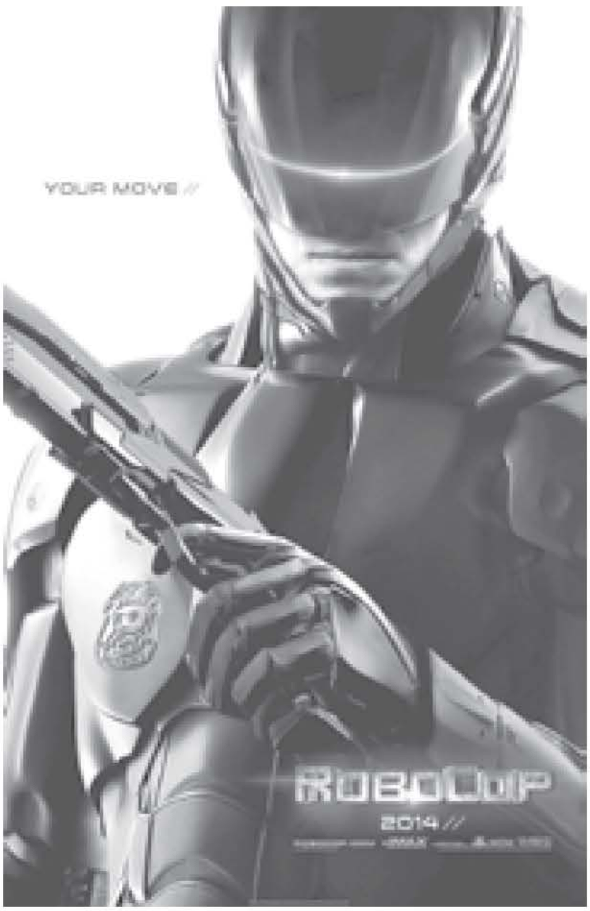
من هنا نزعم أننا نتعامل مع رواية يتداعى فيها لحن الخيال أكثر منها رواية سيرـ ذاتية.

الهوامش:

1- الإنشائية الهيكلية، تزفيتان تودوروف، ترجمة مصطفى التواني، مجلة الثقافة الأجنبية، بغداد، العدد 3، 1982: 12.

أفلام الخيال العلمي - عرض تاريخي

◄ محمود الزواوي



تتناول قصص أفلام الخيال العلمي أحداثاً غير محتملة أو مستحيلة، كما تشتمل على تضخيم ما هو واقعي وممكن، بحيث تكتسب هذه الأحداث والواقع الجديد طابعاً علمياً. ولا شك في أن قدرة العلم الحديث على تحويل ما هو محتمل أو مستحيل إلى حقيقة واقعة في بعض الحالات أسهمت في جعل أفلام الخيال العلمي جزءاً مهماً من الثقافة المعاصرة. ويمكن القول إنّ الخيال العلمي في الأدب والسينما يقدّم رؤية مستقبلية تستند إلى امتداد لعالمنا المعاصر. فعلى سبيل المثال، تقدم أفلام الرحلات الفضائية نموذجاً لما يمكن أن يحققه الإنسان في استكشافه للفضاء الخارجي في المستقبل. وقد تنبأ العديد من أفلام الخيال العلمي القديمة منذ عصر السينما الصامتة بأحداث ومعدّات وأجهزة متقدمة تحولت إلى حقيقة واقعة بعد سنين أو عقود عديدة، من الهبوط على القمر وغيرها من الرحلات الفضائية إلى إطلاق الصواريخ وظهور الإنسان الآلي (الروبوت)، على سبيل المثال لا الحصر. وقد أدى الجمع بين الواقع وغير المحتمل والمستحيل إلى مشاهدة الجمهور لأفلام الخيال العلمي بعين الإعجاب والتقدير. ومما قاله أحد رواد الخيال العلمي الكاتب السينمائي والتلفزيوني الأميركي الشهير رود سيرلنج إن «الخيال هو المستحيل حين

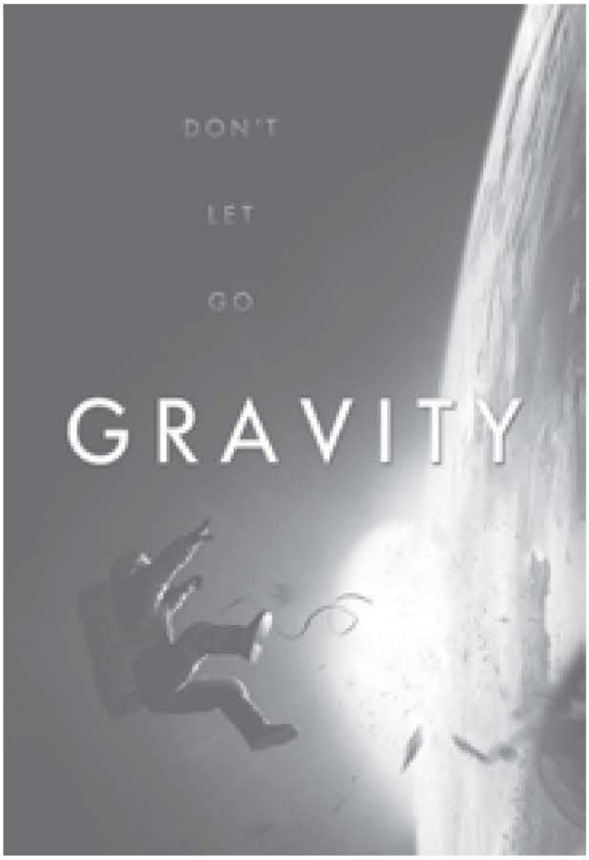
◄ ناقد سينمائي أردني.

يصبح محتملاً، في حين أن الخيال العلمي هو المستحيل حين يصبح ممكناً».

وقد اكتسبت أفلام الخيال العلمي شعبية جماهيرية واسعة منذ أيامها الأولى في عصر السينما الصامتة بفضل قدرة التكنولوجيا السينمائية على وضع الأحداث المستحيلة في متناول المشاهد عن طريق عرضها على الشاشة.

ومن المثير للاهتمام أنه رغم ظهور أفلام الخيال العلمي منذ بداية القرن العشرين، فإن انتشار إنتاجها في السينما الأميركية كان محدوداً نسبياً على مدى عدة عقود، خصوصاً عند مقارنتها بأفلام الرعب، المرتبطة إلى حد كبير بأفلام الخيال العلمي، والتي احتلت حيزاً كبيراً من إنتاج هوليوود السينمائي في عشرينيات وثلاثينيات القرن الماضي، لما تمتعت به من شعبية جماهيرية. ويبدو أن سبب ذلك يعود إلى أن عالم الخيال في أفلام الرعب يتعامل بصورة مباشرة أكثر مع المخاوف والهواجس الداخلية للمشاهدين، في حين أن أفلام الخيال العلمي تثير أحاسيس تتعلق باستجابة المشاهدين وتأثرهم بالعلم وبعجائب الواقع الخارجي. إلا أن كل ذلك تغير كلياً خلال العقود اللاحقة، حيث تفوقت شعبية أفلام الخيال العلمي على شعبية أفلام الرعب، كما ينعكس ذلك في عدد الأفلام الأميركية التي يتم إنتاجها من كل من هذين النوعين السينمائيين، وما يحققه كل منهما من إيرادات على شباك التذاكر.

لأفلام الخيال العلمي تاريخ طويل. وهي قديمة قدم السينما نفسها، وتعود إلى السنوات الأولى لعصر السينما الصامتة. فقد قدّم المخرج الفرنسي الشهير ورائد أفلام الخيال العلمي والمؤثرات الخاصة والبصرية جورج ميلييه فيلم الخيال العلمي الصامت «رحلة إلى القمر» في العام 1902. وقد أذهل هذا الفيلم مشاهديه لما احتوى عليه من خدع في التصوير، بل إن هذا الفيلم قدّم بالألوان المرسومة باليد، وشمل مشاهد بالرسوم المتحركة. وبلغ طول هذا الفيلم



14 دقيقة. وأعقب المخرج جورج ميلييه هذا الفيلم بعد عامين، في العام 1904، بفيلم خيال علمي آخر هو فيلم «الرحلة المستحيلة»، الذي بلغ طوله 24 دقيقة. وكان هذا المخرج غزير الإنتاج ومتعدد المواهب، حيث أخرج 550 فيلماً قصيراً بين العامين 1896 و1913.

وقدّمت السينما الأميركية في عصر السينما الصامتة عدداً من الأفلام التي جمعت بين الخيال العلمي والرعب، وكان من أشهرها فيلم «فرانكنشتاين» (1910) المبني على رواية للكاتبة البريطانية ماري شيلي، وفيلم «دكتور جيكيل ومستر هايد» (1912) المبني على رواية للكاتب البريطاني روبرت لويس ستيفنسون. وقد حقق هذان الفيلمان شعبية جماهيرية واسعة، وأعادت هوليوود تقديم قصصهما في عشرات الأفلام

والمسلسلات التلفزيونية على مر السنين. فقد قدّمت القصص المتعلقة بـ«فرانكنشتاين» في 57 فيلماً ومسلسلاً تلفزيونياً، كما قدّمت القصص المتعلقة بـ«دكتور جيكيل ومستر هايد» في 55 فيلماً ومسلسلاً تلفزيونياً. ويستمر إنتاج أفلام جديدة مبنية على هاتين الروايتين في العامين 2014 و2015.

وقد ظهر عدد من أفلام الخيال العلمي المتعلقة بالرحلات الفضائية خلال عصر السينما الصامتة في أقطار مختلفة، ومن هذه الأفلام الفيلم الدانمركي «سفينة السماء» (1917)، والفيلم البريطاني «أول رجال في القمر» (1919)، والفيلم الألماني «الفتاة في القمر» (1929).

وقدّمت هوليوود خلال ثلاثينيات القرن الماضي عدداً من أفلام الخيال العلمي الروائية الطويلة الضخمة الإنتاج. وكان أول أفلام الخيال العلمي الروائية الطويلة الناطقة فيلم «فكّر فقط» (1930). ومن أهم أفلام تلك الفترة الفيلمان المتميزان «كنج كونج» (1933) و«الأفق المفقود» (1937). ويحتل فيلم «كنج كونج» المرتبة الواحدة والأربعين في قائمة معهد الأفلام الأميركي لأفضل 100 فيلم أميركي. وقامت هوليوود بإعادة إنتاج قصتي هذين الفيلمين في عدة أفلام على مرّ العقود. وبين أفلام الخيال العلمي المتميزة الأخرى في تلك الفترة الفيلم البريطاني «أشياء قادمة» (1936).

كما شهد عقد الثلاثينيات في هوليوود ظهور أفلام الخيال العلمي المبنية على مسلسلات القصص المصورة، ومن أشهرها سلسلة أفلام «فلاش جوردون» وفيلم «باك روجرز»، التي قام ببطولتها جميعاً الممثل بستر كراب، الذي تحوّل بفضل هذه الأفلام المشحونة بالمغامرات المثيرة إلى نجم سينمائي عالمي يتمتع بشعبية جماهيرية واسعة بين جيل الشباب. وشملت هذه الأفلام فيلم «فلاش جوردون» (1936) و«رحلة فلاش جوردون إلى المريخ» (1938) و«فلاش جوردون يحكم العالم» (1940) وفيلم «باك روجرز» (1939) الذي تحوّل إلى مسلسل تلفزيوني بعد 40 عاماً بعنوان «باك روجرز في القرن الخامس والعشرين» (1979)، وكان من أواخر الأفلام التي قام الممثل بستر كراب ببطولتها.

اقتصرت أفلام الخيال العلمي التي قدمتها هوليوود بعد العام 1936 على مدى سنوات عديدة على الأعمال السينمائية التي خلت من الأفلام الضخمة الإنتاج لأن شعبية هذا اللون السينمائي اقتصرت على جيل الشباب. إلا أن ذلك تغير كلياً في العام 1950 بعد أن واجهت هوليوود تحدياً كبيراً من التلفزيون الذي انتشرت شعبيته على نطاق واسع في الولايات المتحدة في أواخر أربعينيات القرن الماضي وخطف نسبة كبيرة من رواد السينما. وواجهت هوليوود ذلك التهديد بسلسلة من الإجراءات التي شملت إدخال تكنولوجيات سينمائية جديدة غير متوفرة للتلفزيون؛ كالسينما سكوب والسينراما وأفلام الأبعاد الثلاثية والتركيز على إنتاج الأفلام الملونة وزيادة إنتاج الأفلام ضخمة الإنتاج، كالأفلام التاريخية الملحمية، وذلك سعياً لاستعادة جمهورها الذي فقدت جزءاً كبيراً منه للتلفزيون.

وصدر في العام 1950 فيلم «رحلة إلى القمر» الذي كان أول فيلم خيال علمي تقدمه هوليوود بالألوان. وأعقب ذلك بتقديم عدد من أفلام الخيال العلمي الكلاسيكية الشهيرة، ومنها «المركبة الصاروخية إكس– إم» (1950) و«اليوم الذي توقفت فيه الكرة الأرضية» (1951) و«حرب العوالم» (1953) و«هذه الكرة الأرضية الجزيرة» (1955) و«الكوكب الممنوع» (1956) و«رحلة إلى مركز الأرض» (1959).

واتخذت أفلام الخيال العلمي منحى جاداً في ستينيات القرن الماضي بظهور المَعْلَم السينمائي «2001: رحلة إلى الفضاء» (1968)، رائعة المخرج السينمائي الأميركي الشهير ستانلي كوبريك. ويحتل هذا الفيلم المرتبة الخامسة عشرة في قائمة معهد الأفلام الأميركي لأفضل 100 فيلم أميركي، والمركز السادس والعشرين في قائمة مجلة إنترتينمنت الفنية الأميركية لأفضل الأفلام في تاريخ السينما العالمية.

وقد اكتسب هذا الفيلم مكانة خاصة كمعلم سينمائي، وعلامة مميزة في الإخراج والتنفيذ والإنجاز السينمائي، وكفيلم رائد في مجالات الإخراج والإنتاج والابتكار الفني. وتتركز قصة هذا الفيلم على العلاقة بين الإنسان والمخلوقات الفضائية. ويمثل الفيلم عدّاً تنازلياً لما يخبئه الغد وخريطة طريق لقدر الإنسان وبحثه عن اللانهاية. ومن أفلام الخيال العلمي المرموقة الأخرى لفترة الستينيات فيلم «قرية الملعونين» (1960) وفيلم «اليوم الذي غزا فيه المريخ الأرض» (1962) وفيلم «روبنسون كروزو في المريخ» (1964).

دخلت السينما الأميركية منذ سبعينيات القرن الماضي مرحلة جديدة تحوّلت فيها أفلام الخيال العلمي إلى ظاهرة سينمائية. وبدأت هذه المرحلة بالمعلم السينمائي «حرب النجوم» (1977) الذي جمع بين النجاح الفني والجماهيري وسجّل العديد من الأرقام القياسية في الإيرادات على شباك التذاكر. فقد بلغت إيراداته العالمية الإجمالية 775 مليون دولار، وهو أعلى دخل يحققه أي فيلم حتى ذلك الوقت. وحصل هذا الفيلم على 41 جائزة سينمائية بينها ست من جوائز الأوسكار. ويحتل هذا الفيلم المرتبة الثالثة عشرة في قائمة معهد الأفلام الأميركي لأفضل 100 فيلم أميركي.

وأتبع فيلم «حرب النجوم» بخمسة أفلام أخرى في هذه السلسلة السينمائية بين العامين 1980 و2005، وكان النجاح الذي حققه فيلم «حرب النجوم» حافزاً لموجة من أفلام الخيال العلمي التي توالت في أواخر سبعينيات القرن الماضي، ومنها فيلم «لقاءات قريبة من النوع الثالث» (1977) و«سوبرمان» (1978) و«الثقب الأسود» (1979) و«ستار تريك – الفيلم السينمائي» (1979) و«مخلوق من الفضاء الخارجي» (1979). واستمرت هذه الموجة في عقد الثمانينيات بأعمال سينمائية شملت أفلاماً متميزة مثل «إي. تي.: مخلوق من الفضاء الخارجي» (1982) و«بليد رانر» (1982) و«المدمّر» (1984) و«مخلوقات من الفضاء الخارجي» (1986).

واستمر إنتاج أفلام الخيال العلمي بزخم في تسعينيات القرن الماضي، بصدور العديد من الأفلام المتمّمة لقصص أفلام الخيال العلمي السابقة التي حققت نجاحاً كبيراً وتحوّلت إلى مسلسلات سينمائية. ومن أفلام الخيال العلمي المتميزة الأخرى التي صدرت خلال هذه الفترة فيلم «التذكر التام» (1990) و«الحديقة الجوراسية» (1993) و«عالم الماء» (1995) و«12 قرداً» (1995) و«يوم الاستقلال» (1996) و«رجال في ملابس سوداء» (1997) و«المنظومة» (1999).

واستمر التقدم التكنولوجي لأفلام الخيال العلمي مع بداية القرن الجديد وبلغ آفاقاً جديدة في استخدام المؤثرات الخاصة والبصرية والاستخدام المتزايد لتقنية الأبعاد الثلاثية. وأسهمت هذه العوامل مجتمعة في بلوغ هذا اللون السينمائي شعبية جماهيرية غير مسبوقة انعكست في الإيرادات الخيالية التي حققتها بعض هذه الأفلام والتي بلغت ذروتها في فيلم «أفاتار» (2009)، رائعة المخرج جيمس كاميرون، أحد أهم المخرجين في استخدام المؤثرات الخاصة، وأحد رواد استخدام الأبعاد الثلاثية. ويحتل هذا الفيلم المركز الأول في الإيرادات العالمية الإجمالية في تاريخ السينما، حيث حصد 2.78 مليار دولار.

وشهدت هذه المرحلة بداية عدد من مسلسلات أفلام الخيال العلمي المتميزة فنياً والناجحة جماهيرياً، ومنها مسلسل «هاري بوتر» و«ملك الخواتم» اللذان بدءا بفيلم «هاري بوتر وحجر الفيلسوف» (2001) وفيلم «ملك الخواتم: رفقة الخاتم» (2001). ومن أفلام الخيال العلمي المتميزة الأخرى في هذه الفترة «رجال إكس» (2000) و«الذكاء الاصطناعي» (2001) و«الرجل العنكبوت» (2002) و«المتحوّلون» (2007) و«فارس الظلام» (2008) و«رحلة إلى مركز الأرض» (2008) و«خلاص المدمّر» (2009) و«أرض زومبي» (2009) و«صراع الجبابرة» (2010) و«ترون: تراث» (2010) وأفلام «الخمسة السريعون» و«سوبر 8» و«الفانوس الأخضر» و«الفولاذ



الحقيقي»، وهي من أفلام العام 2011، وأفلام «ألعاب الجوع» و«المنتقمون» و«السفينة الحربية» و«الظلال المظلمة»، وهي من أفلام العام 2012، وأفلام «الرجل الحديدي 3» الذي تصدَّر أفلام العام 2013 في إيراداته العالمية الإجمالية التي بلغت 1.215 مليار دولار، وأفلام «الجاذبية» و«الرجل الفولاذي» و«ثور: العالم المظلم» و«ستار تريك نحو الظلام» و«السريع والغاضب 6» و«مهمة إندر» و«النسيان» و«الفردوس» و«حرب الزومبي» و«هوبيت: دمار سموج»، وهي من أفلام العام 2013، وفيلم «الشرطي الآلي» (2014).

وعند استعراض تاريخ أفلام الخيال العلمي في السينما الأميركية، نجد أن هذا اللون السينمائي كان دائماً رائداً في التقدم التكنولوجي بين الأنواع السينمائية المختلفة، لما تتطلبه القصص الخيالية المثيرة من استخدام للمؤثرات الخاصة والبصرية. وقد ازدادت الشعبية الجماهيرية لأفلام الخيال العلمي على مر العقود، وتحولت منذ سبعينيات القرن الماضي إلى ركن أساسي من أركان إنتاج هوليوود السينمائي، من حيث عدد هذه الأفلام وشعبيتها الجماهيرية، كونها أكثر الأفلام إثارة ووسيلة ترفيهية للجمهور. كما أنها من أكثر الأفلام تكلفة في الإنتاج ومن أعلاها في الإيرادات على شباك التذاكر، لما تتمتع به من شعبية جماهيرية في سائر أنحاء العالم، حيث يحصد الكثير منها مئات الملايين من الدولارات، بل إن بعضها تجاوز المليار أو الملياري دولار على شباك التذاكر. ومن الأمثلة على ذلك أن ثمانية من الأفلام العشرة الأولى التي حققت أعلى الإيرادات في تاريخ السينما وتجاوز كل منها المليار دولار من الأفلام التي تجمع بين الحركة والمغامرات والخيال العلمي. كما أن أفلام الخيال العلمي تشكل نسبة عالية من الخمسين فيلماً التي حققت أعلى الإيرادات في تاريخ السينما، فيما تشكل أفلام الحركة والمغامرات وأفلام الرسوم المتحركة الطويلة الجزء الباقي لهذه القائمة.

مـي زيــادة

حضارة الحاضر وبدواة الصحراء

د. مصطفى يوسف

هل لأحدٍ أن يصدّق أنّ مي زيادة التي تحدَّثت الدنيا عن أخبارها، ومجدها وأدبها وندواتها وصالوناتها الشهيرة ومحبيها، ومعجبيها، كل ذلك لم يكن إلا جانباً مضيئاً في أسطورة مأساوية وحزينة؛ شأنها في ذلك شأن كل الأساطير، بل إنّ الجانب الثاني، وهو جانب الحزن والشقاء والوحدة، كان، مع الأسف، الجانب الغالب.

ومي زيادة، أو (ماري إلياس زخوره زيادة) هي ابنة لأسرة لبنانية، ولدت في مدينة الناصرة الفلسطينية في 11 فبراير(شباط) من العام 1889، ثم انتقلت مع والديها إلى لبنان وتعلمت في مدرسة للراهبات، وأخذ صيتها في الذيوع كأديبة بازغ نجمها.

أبان الحرب العالمية الأولى، انتقل والداها إلى القاهرة، وانتقلت إلى والدها «إلياس زيادة» في الوقت نفسه ملكية صحيفة (المحروسة) بعد أن كانت ملكاً لإدريس راغب، لتكون فرصة ميّ كي تنشر آراءها وإبداعاتها من خلال هذه الصحيفة، وهو ما جعلها تتجه إلى دراسة آداب اللغة العربية والتاريخ، كما كتبت في صحف أخرى مثل الهلال والمقتطف والزهور.

لقد كان انتقال مي زيادة إلى القاهرة بمثابة ميلاد جديد لها، فغيرت اسمها من مارى إلياس زيادة، واختارت اسما عربياً هو (مي زيادة)، ونشرت أول كتاب لها (أزاهير حلم) وكان باللغة الفرنسية، وقد أصدرته بإمضاء مستعار، فقد كان عيباً أن يُذكر اسم المرأة، فما بال أن توقّع به في الصحف؟ لذلك استخدمت عدة أسماء مستعارة أخرى مثل (ايزيس كوبيا) عام 1911، و«شجية»، و«كنار»، و«السندبادة البحرية الأولى»، و«مودموزيل صهباء»، وأيضاً باسم رجل وهو «خالد رأفت»، ثم بالاسم الذي ظلّت تكتب به؛ «الآنسة مي»، وهو الاسم الذي اشتهرت به بقية حياتها، وقد فسّر بعضهم استخدامها لأسماء مستعارة تهيّبها من الحياة العامة في البداية.

وكان يؤرّقها ما ران على نفوس الشرقيين من تزمُّت ومحافظة، فكانت تعالج النفوس بالدعوة إلى المحافظة على كل جمال شرقي والترويج لكل فنّ شرقي، والاعتزاز بلغة الشرق، ولكن دون أن تغضّ الطرف عمّا يضطرب في الغرب من فنّ وجمال وابتكار.

لقد أعطى الشرق الغرب أدباً وأخلاقاً وفلسفة وديناً وأنبياء، فتلقاها الغرب وارتقى بها، أفيخجلنا أن ننتفع بخبراته الدنيوية وعلومه، والدنيا دنيا الجميع، كما أنّ الخالق إله الجميع!

وكان يحزّ في نفسها ما عليه بنو قومها من فتور واستسلام، فكانت تحاول استنهاض عزائمهم بقولها: (كنا بالأمس نلمس الأوتار فتسيل عليها الدموع، فما تسمعنا سوى شكوى المذلّة،

كاتب مصري.

وأنين العبودية... أما اليوم فنريد أن ننعش أرواح العيدان لتوقع أسمى المبادئ على أعذب الألحان..).

ثم يعلو صوتها فتهزّهم قائلة: (لا يقوم الحاضر إلا على قاعدة الماضي... فليتذكّر هذا الذين يقولون بالهدم المطلق... وإنّ وراء الشرقيين إرثاً عظيماً... إرث الأديان والنبوات والمجد والحضارات).

وكانت على إلمامها بعدة لغات تؤثر لغتها القومية (..لغتنا العزيزة التي لم تفتنها الإغريقية ولا اللاتينية جمالاً وانتشاراً... اللغة التي تسمع نبراتها تحت الأعلام الخافقات في أفريقيا حتى خط الاستواء، وفي آسيا الجنوبية حتى جاوة.. لغة عنتر والمتنبي، ولغة الموشحات الأندلسية.. اللغة التي همسنا بكلماتها الأولى من المهد أطفالاً، ولسوف تكون منها كلمة وداعنا الأخير.. في صدورها تذكاراتنا.. وفي صدورها آمالنا..).

وتعتبر مي من الكاتبات القليلات اللواتي عالجن الكتابة في مختلف الشؤون، فتصدر عن موهبة أصيلة، وثقافة شاملة، تجمع بين عمق الغور، وطلاوة الأسلوب، وسلامة الإدراك ووضوح المعاني، وكانت تعبّر عن أحاسيسها بصدق وإخلاص.. وكانت صفحة مجيدة في كتاب النهضة الأدبية الحديثة، ولحناً عذباً في أنشودة نهضتنا النسائية؛ قامت بنصيبها الموفور، فأثرت في النهضتين، شاركت قادة الفكر في حركة البعث الأدبي، وكافحت في سبيل تطوير حياة المرأة وإعدادها للحياة الحقة الكريمة، فكانت مُصلحة اجتماعية تدعو إلى لون من الإصلاح الاجتماعي بما يلائم قوميتنا وتقاليدنا.

قارنت بين الرجل والمرأة، وبيَّنت وظيفة كل منهما في الحياة، وكانت تصدر في ذلك عن روح عربية أصلية.. تقول:

(إنّ أكبر فخر للرجل، وأعظم عنوان لمجده، إنما هو كمال رجولته، ذلك حقّ نقرّه جميعاً، فما لنا لا نقرّ الحق الذي يقابله، فنقول إنّ أكبر فخر للمرأة وأعظم عنوان لمجدها إنما



مي زيادة

هو كمال أنوثتها؟ فإذا كانت الرجولة قوة ونضالاً وحرصاً على الظفر، فالأنوثة عطف وحنان ومحبة.. محبة للكون ولكل جميل، ولكل كامل فيه، وحنان على المخلوق الصغير الناشئ، زهرة كان هذا المخلوق أو نباتا أو حيواناً أو طفلاً، وعطف على بؤس البائس، وضعف الضعيف، وأنّة المريض، وشكاية العاني وكل ذي ضراء... هذه طبيعة الأنوثة، وتلك طبيعة الرجولة.. ومن ثم تكون المعاونة الصادقة من وسائل المرأة لكمال أنوثتها، ومن وسائلها أيضاً للظفر بالفخر والمجد..).

الحرية... والوطن.. والقومية

لم تقتصر (مي) في نشاطها على الأدب الخالص، ولا على الدعوة إلى الإصلاح الاجتماعي، بل جعلت في حسابها الدفاع عن قضايا الحرية والوطن والقومية...

تهتف بالوطنية قائلة: (ليس بين المعاني الاجتماعية أدعى إلى التحمّس والطرب من اسم الوطن، لأنّ الوطن كل شيء، فهو الأهل والأحباب، والدموع والابتسامات، وهو القبور الغاليات، ومهد الذرارى المقبلات... وهو العلم الذي ترتعش، لتلاعب النسيم بأهدابه، ذرات القلوب).

وكان يضطرب أمامها حاضر الشرق الأليم، فيضطرم في وجدانها ماضيه العظيم وأمجاده.

وبعد كتاب (أزاهير حلم)، توالى الإبداع الأدبي لمي زيادة لتقدّم في سنه 1912 أول مؤلفاتها باللغة العربية (رجوع الموجة)، ثم (الحب في العذاب).. وفى السنوات التالية تكتب (ابتسامات ودموع) و(كلمات وإشارات) و(غابة الحياة) و(باحثه البادية) و(ظلمات واسعة)، وغيرها من المؤلفات التي انتهت بكتاب لم ينشر بعنوان (ليالي العصفورية)؛ والعصفورية هي مستشفى الأمراض العقلية والنفسية. هذا بالإضافة إلى باب ثابت كانت تحرّره في صحيفة المحروسة تحت عنوان (يوميات فتاة)، وهكذا نرى أنّ مي زيادة ملأت الحياة الثقافية في عصرها بالإنتاج الأدبي الغزير، والمقالات، والمشاركة بالخطب في مناسبات عديدة.

الصالون الأدبي

اشتهرت مي زيادة بصالونها الأدبي الذي يُعدّ إلى اليوم أشهر صالون أدبي شهدته مصر، بل والعالم العربي، بعد صالون العقاد. وقد يرجع ذلك إلى ثقل الأسماء التي كانت تتردّد عليه مثل د.طه حسين، عباس محمود العقاد، والشيخ مصطفى صادق الرافعي، وأمير الشعراء أحمد شوقي، وغيرهم، وكل اسم من هذه الأسماء كان يكفي لأن يحقق لها الشهرة إذا ما شارك في الصالون، فما بال كل هؤلاء العمالقة في صالون واحد؟ وقد ظلّ هذا الصالون يعقد يوم الثلاثاء من كل أسبوع في منزل كانت تسكنه في وسط القاهرة.

وكانت كتابات مي وشخصيتها لا فاصل بينهما، فكل منهما امتزجت بالأخرى، وانصهرتا، فلم يكن هناك أيّ تناقض بين مي الإنسانة ومي الكاتبة.. وعلى الرغم من رومانسية مي، فإنها كانت إحدى المناضلات من أجل حرية المرأة وتعليمها ومساواتها بالرجل، في عصر كان تعليم المرأة فيد يُعدّ معيبة! كما أنها كانت تدخل في مناقشات فكرية وقضايا أدبية تناطح فيها كبار مفكري عصرها. لعلّ هذا ما جعلها أعجوبة عصرها، فكيف تأتّى لفتاة رقيقة في عصر الحريم أن تكون مفكرة وكاتبة وفيلسوفه...؟ لهذا قال عنها د.طه حسين: (..إنّ الأدب العربي قد انتفع كثيراً بحياة مي)، ولعلّ هذا النبوغ كان سرّ كل هؤلاء الذين أحبوا مي والتفوا حولها وجاهروا بحبهم لها، وكان منهم الشاعر إسماعيل صبري، والعقاد، ولطفي السيد، ومصطفى صادق الرافعي، ومن المؤكد أنّ كثيرين غيرهم أحبوا مي، إلا أنه من المؤكد، أيضاً، أنّ حباً واحداً قد تغلغل في وجدانها وتملّكها، وقيّدها بأغلاله حتى نهايتها، هذا الحب هو حبها للشاعر جبران خليل جبران عميد أدباء المهجر، وكانت علاقته بمي علاقة تشبه رومانسية مي، فهي لم تتعدَّ الحبر والورق اللذين يحملان مشاعر حارّة وآمال وآلام كل منهما نحو الآخر.

وكان العامين 1930 و1931 هما بداية النهاية لهذه الزهرة الحزينة -مي زيادة- فقد توفي والدها، وتبعته والدتها، وأصبحت وحيدة، ثم فقدت جبران الحبيب... وأصبحت مكتئبة ووحيدة، وسافرت لفرنسا وعادت لتجد أحمد شوقي وحافظ قد توفيا، واستدرجها بعض أفراد عائلتها إلى لبنان، وأدخلوها مستشفى الأمراض العقلية، ولكنّ الأقلام الشريفة كتبت عنها إلى أن أخرجت من المستشفى وعادت إلى القاهرة، وامتنعت عن الطعام تماماً، وفارقت الحياة في 20 أكتوبر في مصحّة بالمعادي، وكانت آخر كلماتها:

(أتمنى أن يأتي بعد موتي من ينصفني، ويستخرج من كتاباتي الصغيرة المتواضعة ما فيها من روح الإخلاص والصدق والحميّة والتحمّس لكل شيء حسن وصالح وجميل).

الأخطل المحظوظ وأمين نخلة

صلاح عبد الستار محمد الشهاوي

في ديوان الشعر العربي عبر عصوره المختلفة، كما في الحياة، لمع نجم شعراء وأفل نجم آخرون، فسار الأقل حظاً في ركاب أقرانهم الشعراء أصحاب المكانة والحظوة، وعاشوا في ظلهم وجوارهم وأكلوا فتات موائدهم، وباع بعضهم شعره إليهم. أو لم يرضَ بعضهم الآخر بمآل حاله، ودبّت الغيرة والحسد في قلوبهم، فحقدوا على أقرانهم الشعراء ذائعي الصيت والمكانة، وحاربوهم وهجوهم، بل وصل الأمر إلى أن فرض بعضهم –جزية– على الشعراء النجوم حتى يكفوا ألسنتهم عنهم.

وقد اشتهر بذلك عدد كبير من الشعراء على مر عصور الشعر العربي، ولكن ما يهمّنا في هذا المقام الصديقان المختلفان المؤتلفان، الأخطل الصغير– أمير الشعراء بعد أحمد شوقي، وأمين نخلة– وإذا صح أنّ الأشياء تتميز بأضدادها، فإني أرجّح أننا سوف نطلع على معلومات قيّمة عن جوانب من حياة الأفذاذ من الشعراء –الأخطل ونخلة– اللذين سطرا تاريخهما الحافل في ديوان العرب.

الأخطل الصغير- بشارة عبدالله الخوري

(1885م/1968م)

لقب نفسه بهذا اللقب تيمناً بالأخطل الشاعر الأموي الذي كانت تُفتح له أبواب الخلافة، ويتدلل على الخلفاء الأمويين ويملأ قصورهم شعراً ومرحاً.

بشارة الخوري المعروف باسم الأخطل الصغير، ثاني أمير للشعراء بعد أحمد شوقي، لم يبدأ حياته شاعراً كبيراً، ولم يُعترف بكفاءته الشعرية إلا بعد مرحلة مُرّة، إلى أن بايعه الشعراء العرب في السنوات الأخيرة من حياته بإمارة الشعر في احتفال كبير أقيم في قصر الأونيسكو في بيروت.

ومن طريف ما يُروى عن الأخطل الصغير في بدايته أنه كان عضواً في حلقة الشيخ إسكندر العازار، يختلف إلى مجالسه فيُصغي مع المُصغين إلى نوادره الأدبية والشعرية، ويقرض الشعر معارضاً كبار الشعراء. روي عن أحد أفراد هذه الحلقة أن الشيخ إسكندر العازار كان إذا قيل له: «هو ذا بشارة يقرض الشعر»، يجيب: «بشارة صحافي وسليم شاعر (وهو يعني سليم العازار)، فاتركوا بشارة للصحافة يبرز فيها». وكان بشارة آنذاك قد أنشأ مجلة «البرق» يساعده الشيخ إسكندر العازار، شيخ الحلقة. إلا أن بشارة لم يقنع بالصحافة، بل عكف على النَّظم وطلع ذات يوم على شيخه ورفاقه بقصيدته الغزلية:

عشتَ فالعب بشعرها يا نسيمُ   واضحكي في خدودها يا كرومُ

فلما استمع إليها الشيخ إسكندر العازار، هتف قائلاً: «ما زال بشارة يهذي حتى نطق بالشعر أخيراً».

كاتب مصري.

وفي شعر الأخطل الصغير سمتان بارزتان: أولاهما أنه شاعر غزل من الطراز الأول، وثانيتهما أنه شاعر وطني كان لسان العرب والمُدافع الأول عن قضاياهم، والمشارك على الدوام، باسم بلده لبنان، في المحافل والمحطات القومية.

ومن أجمل قصائده قصيدته في رثاء شوقي في القاهرة. فيوم التأبين، أو قبله، أصيب الأخطل بوعكة صحية كادت تحول بينه وبين إلقاء قصيدته. تهافت على غرفته في الفندق كبار أبناء الجالية اللبنانية في القاهرة (سنة 1932م) يطلبون منه أن يذهب إلى الاحتفال. أحْضَروا الدواء له، بعضهم ألبسه ثيابه، وحملوه حملاً إلى حيث يُقام اللقاء والشفاه تبتهل كي تسمح له الحمّى بالوقوف على المنبر، وإلقاء قصيدته في أمير الشعراء شوقي الذي كان بينهما حب متبادل:

قال الملائك من هـذا فقيل لهم

هذا هوى الشرق هذا ضوء ناظرِهِ

هذا الذي نظم الأرواح فانتظمت

عقداً من الحب سلك من خواطرِهِ

هذا الذي رفع الأهرام من أدب

وكـــان في تاجــه أغلـى جواهـــرِهِ

هذا الـذي لمس الآلام فابتسمت

جراحهـــا ثم ذابت في محاجـــرِهِ

كم في ثغور العذارى من بوارقِه

وفي جفــون اليتــامى من مواطـرِهِ

وينهي الأخطل قصيدته في شوقي بهذا البيت:

ســألتنيهِ رثاءً خُــذهُ من كبدي

لا يُؤخــذ الشيء إلا من مصــادرهِ!

وكان شوقي قد طلب من الأخطل مرة أن يرثيه إثر حادثة اصطدام تعرض لها.

أمين نخلة (1901 / 1976م)

أمين رشيد نخلة شاعر وناثر ولغوي ومحامي بارع وسياسي. ولد في مجدل المعوش- (لبنان) سنة 1901م. وتنقل في أعمال إدارية مهمّة منذ سن الخامسة عشرة (1916م). ثم خاض مجال المحاماة والسياسة وبرز في الشعر والأدب.

كان محامياً لامعاً ومؤلفاً في الحقوق، وطمع في رئاسة حكومة لبنان بعد الاستقلال عبر تحالف مع رياض الصلح (صديقه وأول رئيس حكومة للبنان)، ولكن آماله في المنصب السياسي الأكبر لم يكتب لها النجاح.

أسلوب أمين نخله فريد، وكلمته شعرية أنيقة تتحلى بالصور المفاجئة التي تتوالى ولا تتشابه، وتخلب ولا تضجر. هو يمتاز بالإيجاز في العبارة، ويعزف عن الحشو وعن الإسراف، ويجمع بين القديم والجديد. ولا ينتسب في كل هذا إلى مدرسة بعينها في الأدب العربي، فهو صاحب ذوق خاص، يتنقل ويختار، ولكنه لا يعبد ولا يُستعبد.

توفي أمين نخلة في 13 أيار سنة 1976م في بيروت، ودفن في بلد أجداده في الباروك.

كان أمين نخلة مدرسة في الغزل متفرّدة، تخرَّج فيها شعراء كثيرون ومعروفون إلى يومنا في ضروب الغزل والتشبيب.

قال في قصيدة بعنوان الحبيب الأول:

أحبك في القنوط وفي التمنّي

كأني منك صرت وأنت منّي

أحبك فوق ما وسعت ضلوعي

وفوق مدى يــدي وبلوغ ظنّي

هـوىً مترنح الأعطـاف طلقٌ

علـى سـهل الشبـاب المطمئنِّ

أبـوحُ إذا فكــل هبـوب ريح

حديث عنــك في الدنيـا وعنّي

سينشرنا الصباح على الروابي

على الوادي، على الشجر الأغنّ

أتمتم باسم ثغرك فوق كأسي

وأرشــفها، كـأنـك أو كأنّي...

نعيـم حبنا، فانظـر بعيني،

وعـرس للمنى فاسـمع بأذني

الأخطل ونخلة وإمارة الشعر

في ذكرى الشاعر أبي تمام التي أقيمت في دمشق، أنشد أمين نخلة قصيدة عصماء عنوانها:

«حبيب..»وحبيب هو - حبيب بن أوس الطائي - (أبوتمام) الشاعر العباسي الشهير. قال في مطلعها:

أفسحوا في محفل الشعر لنا

نحن من لبنان، من عليا الدُّنى

جيـرةُ الأرز، وضاحي ظله

والربى الخضر، ووشي المنحنى

إلي أن يقول:

شعراء الضاد: هذي - جلَق-

من هنـــا ظـل، وماء من هنـا

خرجت تستقبل الشعر، وقد

صفقت نهراً، ومالت أغصنا.

ولهذه القصيدة قصة، فلم يكن الشاعر بشارة الخوري -الأخطل الصغير- حسن الود مع باقي شعراء لبنان أمثال إلياس أبوشبكة وأمين نخلة وسواهما، وغالباً ما كانت تدور معارك أدبية انتقاديه وهجائية بينهم وبينه، ولكن لمّا ألقى أمين نخلة قصيدته هذه، واطّلع عليها الأخطل الصغير، وجّه إليه على صفحة الجرائد هذه الكلمة:

«أديبنا الأول الأستاذ أمين نخلة :

تلك - الفاتنه- التي جلوتها في عرس الشعر على ضفاف - بردى- كانت شفاء لروحي، تذوقتها رشفة رشفة، أخذك بالخمرة الطيبة تخاف أن تنفذ، وما برحتُ على ظمأ. لقد أحبّ الله لبنان كثيراً عندما اختارك تحمل رسالته إلى كل محفل للكلمة فيه إشعاعها، وللإلهام إبداعه!

أما بيتاك- بشروا جلق- والذي يليه فأذن لي أن أطلقهما من القيد الذي يرسفان فيه، فاجلوهما هكذا:

بشـروا - جلـق - في سامرها،

واهتفــوا أن - أمينـــا - بيننـــا!

مـدّ للشعـر بساطـاً حافلاً،

لـو مشى ذو التـاج فيـه لانحنى

وسلمت، ونعمت.

أخوك، بشارة الخوري».

والحقيقة أنّ د.عبدالمسيح محفوظ، فيما روي للناقد والأكاديمي اللبناني د.ميشال جحا، هو الذي أوعز إلى بشارة الخوري بإرسال هذه الرسالة إلى أمين نخلة لإعادة الودّ والصفا بين الشاعرين، ثم أقيمت حفلة لتكريم الأخطل

الصغير ومبايعته بإمارة الشعر بعد أحمد شوقي، فقال - الأمين- قصيدة عصماء يرد الجميل للأخطل ويبايعه بإمارة الشعر:

أيقـولـــون أخطـــــل وصغيـــــر!
أنت في دولـــة القوافي أمير
ولك التـــاجُ، والمطـــارف، والبرد
وركـــن مجلّـل وســـريـر
فاسحب الذيل ما تشاء، وجرّر
إن مملك البيان ملك كبير!

يروي أمين نخلة قصة نظمه لقصيدة «حبيب»، فيقول: «قبل ذلك المهرجان بثلاثة أيام اتصل بي رئيس الحكومة، وأخبرني أنه تقرر أن أمثّل لبنان في مهرجان دمشق، فاعتذرت بسبب الوقت القصير.

ثم استدعاني رئيس الجمهورية إلى القصر وقال لي: «إن كرامة لبنان الأدبية تأمرك». فامتثلتُ وصعدتُ إلى الشام وليس في يدي بيت واحد من الشعر، ونظمتُ القصيدة قبل ليلة واحدة من المهرجان، وعندما ألقيتها في ذلك الجمع الكبير صفّقوا لها ما صفقوا، وكانت قبلات المهنئين وفي مقدمتهم أصحابي الشعراء، وحملني جماعة الطلاب وخرجوا بي في تظاهرة بقلب شوارع دمشق وكانوا يهتفون باسم لبنان.

وفي طريقنا إلى «الأوتيل» تمزّق «جاكيت» الطقم الأبيض، وتمزّق البنطلون، وحول ذلك كتب صالح جودت في مجلة «المصوّر» بعنوان (شوقي وحافظ اللبنانيان) فصلاً يشير فيه من طرفٍ خفيّ إلى قيام منافسة في الشعر بين أمين نخلة والأخطل الصغير، شطر اللبنانيين نصفين واحد إلى الأمين والآخر إلى الأخطل الصغير، أي كما كان الأمر في مصر أيام شوقي وحافظ.

ولقد ردَدتُ على كلام صالح جودت بقولي: «أنا رجل أعرف قدري، فلا أتزيّد فيما عندي. وما الأخطل الصغير إلا طبقة من الطبقات العلا وأين أنا منها؟! أين أنا من جلالة قدره، وجلاله عمره. أطال الله لنا بعمره».

أما رأي معاصريهما أمثال بدوي الجبل- محمد سليمان الأحمد (1903/1981م) في الشاعرين - الأخطل وأمين- فقد كان يفضّل أحدهما على الآخر، ثم ما يلبث أن يغيّر رأيه. من ذلك ما جاء في مجلة «الصياد» العدد2 السنة الأولى الأربعاء 8 ديسمبر1943م، أن بدوي الجبل سُئل عن رأيه في شعراء لبنان فقال: «إن أحبهم إليّ وأشهرهم في نظري هو أمين نخلة. إنّ أمين نخلة هو أشهر شعراء لبنان، وليس هذا فقط، بل ليس لشاعر عربي ترف أمين نخلة، وديباجته وموسيقاه الرائعة».

وفي العدد 3 من مجلة «الصياد» في 15 ديسمبر 1943م، أرسل أحد الأدباء إلى المجلة ما كان قد نشره بدوي الجبل في مجلة «البرق» عن الأخطل الصغير، حيث يقول بدوي الجبل بمناسبة نشر قصيدة (عُمَر ونُعم): «والله لم يُنظم في العربية كقصيدتك هذه، لا أستثني شاعراً ولا أستثني شعراً لا في قديم التاريخ واللغة ولا في حديثها، هنيئاً لك أبا عبدالله - كُنية الأخطل- إمارة الشعر، من غلمانك عمر -أي عمر بن أبي ربيعة- ومن حجّابك المتنبي، ومن حرّاسك شوقي، ومن ندمائك ولي الدين -ولي الدين يكن 1873/ 1921م.

هكذا كان الشعراء والنقاد؛ يتعصّبون لشاعرٍ دون آخر، أو يميلون إلى شاعر دون سواه، وأحياناً كان أحدهم مضطراً إلى أن ينحاز في رأيه، أو يعلن رأياً لا يلبث أن يتراجع عنه، كما فعل صاحبنا بدوي الجبل في تقديمه أمين نخلة وجعله شاعر الشعراء، ثم خلع إمارة الشعر على الأخطل الصغير.

عرض وقراءة في كتاب

«تاريخ الحركة النسائية الأردنية 1944 – 2008»

للدكتورة سهير سلطي التل

د. جمال الدبعي حياصات

في دراسة تاريخية تلقي الضوء على جانب هام من مسيرة الدولة الأردنية، جاءت محاولة المؤلفة الدكتورة سهير سلطي التل؛ البحث في تاريخ الحركة النسائية الأردنية بمفاصله الأساسية على امتداد حقبة زمنية تزيد على ستين عاماً؛ وذلك من خلال سعيها للإجابة عن بعض الأسئلة التي طرحتها منذ بداية الدراسة، وفق منهجية علمية تحليلة وتاريخية، مستخدمة الوثائق والمذكرات والكتب والمراسلات والدراسات السابقة ذات الصلة، والأرشيف والمقابلات وغيرها من الأدوات ووسائل البحث، حيث جاء هذا الكتاب من القطع المتوسط بما لا يقل عن ثلاثمائة صفحة في ستة فصول بمقدمة وخاتمة للباحثة والخبيرة والمختصة بالبحوث والدراسات النسوية وحقوق الإنسان؛ فقد طرحت أسئلة رئيسة بالإضافة لمجموعة من الأسئلة الفرعية المنبثقة، أوضحت من خلالها وبصورة عميقة وتحليلية وتاريخية تطوُّر الحركة النسائية عالمياً وعربياً وأردنياً؛ من خلال استعراضها للسياقات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية؛ وفق محاور تؤرخ لبدايات تشكل الحركة النسائية ووفق الاستعراض التاريخي، للنشاطات سواء كانت فردية أو جماعية أو على شكل منظمات أو عبر المقالات أو الجمعيات أو المؤتمرات والملتقيات.

وفي مضامين تاريخ التحرك النسائي على المستوى العالمي وتحديداً في الغرب، حيث ظهرت محاولات التمرد على الظلم الواقع على النساء في بعض كتابات القرن الثالث عشر؛ مشيرة إلى أسماء بعض الشخصيات النسائية بعدما أشارت (التل) إلى ثلاث موجات رئيسة في تقسيم الحركة النسائية الغربية والتي تضمنت مطالب لحقوق المرأة في التعليم والعمل وقوانين الزواج وحقوق الحضانة، والاتجاه نحو العمل التنظيمي وظهور المؤلفات، وحلّ كثير من الإشكاليات الناجمة عن العمل والتعليم والثورة الصناعية، وظهور المنظمات النسائية، والتي جعلت هذه الحركة منظمة ومستمرة؛ فيما ستتعرض الباحثة (التل) إلى تطور الحركة النسائية العربية، في إطار مبررات النهضة العربية بعد فترة الحكم العثماني، وتشير في هذا السياق بأن الحركة النسائية العربية قد نشأت من رحم مساهمة نخبة من الرجال والنساء في الحراك الفكري الذي هدف للخروج من الواقع المتردي للأمة العربية، فقد طرحت قضية النساء كواحدة من أبرز مظاهر تخلف الأمة وعقبات تقدمها، فقامت تحركات النساء من خلال تأسيس صحفهن المعبّرة عن آرائهن، وكذلك جمعياتهن، وركزت المطالب على حق التعليم وإصلاح قوانين الأسرة، ويلاحظ ظهور المؤلفات

كاتب أردني.

والكتابات والمؤتمرات، وإلقاء الخطب، والكتابة في الصحف والمجلات النسائية، والمشاركة بالمظاهرات والاعتصامات، واتسمت الحركة النسائية العربية بظهور منظمات مستقلة اعتمدت مرجعية حقوقية دولية، ومناهج عمل جديدة، وتفعيل ومشاركة النساء في مختلف الجوانب الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والثقافية.

ولعل من الضرورة بمكان هنا أن نشير إلى بعض الأسماء من الرجال والنساء والتي ظهرت بوضوح في مسار الحركة النسائية؛ (المعلم بطرس البستاني وخطابه عام 1849م)، و(زينب فواز في الرسائل الرئيسية والتي نشرت تباعاً» في الصحف المصرية عام 1882م)، و(رفاعة رافع طهطاوي كتابه (المرشد الأمين في تعليم) نشر عام 1869م) وكتابات (محمد عبده) و(نظيرة زين الدين) في كتابها: (السفور والحجاب) و(قاسم أمين) في كتابه تحرير المرأة، ونجد في سبعينيات القرن الماضي ظهور ما بات يعرف (بالنسوية الإسلامية) حيث تشير إلى (فاطمة المرنيسي) و(عائشة عبدالرحمن) و(ليلى أحمد) و(عزيزة) و(مارغو بدران)، وها هو (إسماعيل مظهر) يعالج قضية المرأة في كتابه (المرأة وعصر الديمقراطية)؛ فيما تشير الباحثة (التل) إلى أهم روائع العمل النسائي الفكري والتنظيمي وهي (الصحافة النسائية)، وتذكر لنا صحيفة (الفتاة) لهند نوفل 1892م وهي أول مجلة نسائية عربية، و(مرآة الحسناء) لمريم مزهر عام 1896م، و(الفردوس) وصاحبتها لويزا عام 1896م كذلك، و(العائلة) وتديرها (موريال) من عام 1898-1904م، و(العروس) لماري عجمي عام 1910م، و(المرأة السورية) صاحبتها لطيفة كرم عام 1911م، ناقشت الصحافة النسوية والتي توالى ظهورها حتى ثلاثينيات القرن الماضي؛ قضايا المرأة والمجتمع، والتعليم كمدخل لمشاركة النساء في قضايا المجتمع.

فيما تشير الكاتبة كذلك إلى الجمعيات النسائية ودورها في التحرك النسائي العربي، حيث كانت وسيلة وآلية ومراكز عمل للمطالبة بحقوقهن، اذ تذكر لنا أول منظمة نسائية خطابية مطلبية ويعود تاريخها لعام 1881م وحملت اسم (جمعية باكورة سوريا)؛ وتوالى تأسيس الجمعيات النسائية، ليتم تأسيس اتحاد سنة 1924م برئاسة لبيبة ثابت ويحمل اسم (الاتحاد النسائي في سوريا ولبنان)، فيما أسست (هدى الشعرواي) بمصر سنة 1908م أول جمعية وكانت (جمعية ميرة محمد علي)، فيما أسست (إميليا السكاكيني وزليخة الشهابي) عام 1921م أول اتحاد نسائي فلسطيني.

كما تشير إلى انعقاد أول مؤتمر نسائي عام 1929م في مدينة القدس والذي شاركت به النساء من مختلف المناطق والمدن الفلسطينية.

وفي ضوء الاستعراض لحركة نساء الغرب تاريخياً، وكذلك التحرك النسائي في العالم الغربي، تقدم لنا عرضاً عن تطور الحركة النسائية الأردنية محاولة توضيح موقعها على الخارطة العالمية، فقد أشارت الباحثة (التل)، وحسب السياق التاريخي لانطلاقة الحركة في الأردن، بأنها قد تأخرت بما يزيد عن نصف قرن عن ركب الحركة النسائية العربية، فقد ظهرت أول جمعية نسائية أردنية عام 1944م، في إضاءة حملت مشعلها الرائدة (إميلي بشارات) والتي كانت على تواصل مع قيادات ورائدات على المستوى العالمي والعربي، والذي يؤكد لنا انعكاس وتأثير هذا التواصل والمشاركة على التحرك النسائي في الأردن، فقد سلطت الباحثة الضوء على البدايات الأردنية للحركة، و تذكر لنا (جمعية التضامن النسائي الاجتماعية) أولى الجمعيات، وكذلك (جمعية الاتحاد النسائي الأردني) والتي تأسست عام 1945م، كما تستعرض مجموعة كبيرة من الجمعيات والتي تزايدت بوضوح سيما بعد العام 1948م. وفي السياق نفسه تلقي الضوء على (اتحاد المرأة العربية)،

فيما تورد لنا مشاركة (إميلي بشارات) و (إميلي نفاع) في تأسيس التجمع الوطني الأردني عام 1968م، وخلال السياق التاريخي تطلق عنوان النهضة الثانية بـ(الاتحادات النسائية) في الفصل الخامس من مؤلفها؛ والتي بدأت بعد إعلان الأمم المتحدة عام 1975 (عاماً دولياً للمرأة)، ستعرضه بعض الاتحادات ومنها: (اتحاد المرأة الأردنية: الاتحاد النسائي في الأردن) وكذلك (الاتحاد النسائي الأردني العام) والذي يمثل الجمعيات والهيئات الاجتماعية والنسائية المسجلة بوزارة التنمية الاجتماعية، وقد أسس عام 1981، فيما تتناول بعد ذلك الحديث عن (تجمع لجان المرأة الوطني الأردني) والذي أسس عام 1992 كمنظمة نسائية غير حكومية برئاسة سمو الأميرة بسمة بنت طلال، حيث بلغ عدد أعضاء التجمع ما يزيد عن (140) ألف سيدة وفتاة؛ وفي إشارة للمنظمات النسائية المتنوعة أفردت الباحثة الفصل السادس والأخير للحديث عنها: والتي تشمل مجموعة منظمات نسائية سياسية وتذكر لنا (رابطة النساء الديمقراطيات) ورابطة المرأة الأردنية (رما)؛ وتستعرض مجموعة من اللجان المشتركة النسائية، وتذكر كذلك مجموعة النوادي والهيئات النسائية الثقافية والرياضية ومنها: نادي الجامعيات العربيات والذي تأسس عام 1978، ومركز دراسات المرأة تأسس عام 1989 ، فيما تذكر مجموعه من الجمعيات النسائية المتخصصة كنادي صاحبات الأعمال والمهن وتأسس عام (1976)، وتشير إلى المعهد الدولي لتضامن النساء والذي تأسس عام (1998)، ومركز الإعلاميات العربيات، وجمعية الأسر التنموية، فيما تورد لنا إحصائية مجموع المنظمات المحلية النسائية المسجلة بوزارة التنمية حيث بلغ عددها (147) هيئة وجمعية موزعة على مختلف محافظات المملكة.

كذلك، أوضحت لنا (التل) المحور التاريخي والاجتماعي في الدولة الأردنية، محاولة إيضاح طبيعة العلاقة ما بين الدولة والعشيرة وانعكاساتها على الدولة والمجتمع وصورة المرأة ونشاطها وتحركها على المستوى الاجتماعي والاقتصادي والثقافي والسياسي بوجه عام؛ في ظل تداخل الأدوار وتعديل القوانين والتشريعات الناظمة للإدارة والحياة العامة والاتجاه نحو المجتمع المدني وتطوير مؤسساتها المختلفة، بحيث أصبحت النساء تشارك في الوظائف الحكومية والعمل العام، والتي جسدتها استراتيجيات الدولة الأردنية وخططها وبرامجها في تمكين المرأة وإشراكها في القضايا العامة والاجتماعية، على المستوى المحلي والإقليمي العربي والدولي من خلال المؤتمرات والندوات والحلقات الدراسية، والتي، وحسب الباحثة (التل)، أدت إلى تطوير آليات فاعلة لنشر ثقافة حقوق المرأة والإنسان من خلال أنموذج اللجنة الوطنية الأردنية لشؤون المرأة، إضافة لمجموعة الاستراتيجيات والشبكات واللجان المنبثقة بمختلف المجالات التي تسعى إلى النهوض وتمكين المرأة بصورة أفضل في مختلف مجالات الحياة العامة والاجتماعية.

ولعل (التل) قد أضافت مرجعاً حقيقياً وعملياً لتأريخ الحركة النسائية الأردنية من خلال ما قدمته في كتاباتها الغنية بالوثائق والدراسات والمقابلات والأرقام والإحصائيات وغيرها من الأدوات التي ألقت الضوء على المناهج المتنوعه التي استخدمتها في دراسة تاريخية مميزة لجوانب هامة في حياة المجتمع والدولة الأردنية؛ ونشير هنا إلى ما خلصت اليه الباحثة في أن الحركة النسائية الأردنية بدأت نشاطها كحركة اجتماعية خيرية، إلا أنها سرعان ما تلونت بلون مطلبي وتنموي أخذ يتعاظم على الرغم من الصعوبات والعوائق التي واجهت قيادات ورائدات المنظمات النسائية، وفي مراحل زمنية ارتبطت بمفاصل وأحداث تاريخية محددة، فيما تجد نهوضاً متتابعاً قبل نهاية القرن العشرين وإطلالات القرن الجديد، حيث استقر أمر الحركة النسائية الأردنية لحركة اجتماعية مطلبية.

بين ذيب اللافي وذيب التاريخ

قراءة في «عودة الذيب» لسليمان الأزرعي

حسن عبد الفتاح ناجي



فرحتُ كثيراً حين أهداني الصديق الأزرعي نسخة من عمله الإبداعي «عودة الذيب» لسببين، السبب الأول أنّ ما بيننا من صداقة مضى عليها أكثر من ثلاثين سنة، ما زال طازجاً، والسبب الثاني العمل الإبداعي ذاته الذي يتحدث عن رموز مهمّة من أبناء سوريا الكبرى، فنحن قد تربّينا على مفهوم بلاد الشام وبلاد سوريا الكبرى، بكل دلالات هذا المسمى، وجاء كتاب «عودة الذيب» ليعيد إلى الذاكرة قراءة المسطور والمحفور على جدارها.

في المقدمة والتنويه يتمترس الأزرعي خلف قلم المبدع الروائي، احترازاً من الوقوع في السرد التاريخي وسطوة الأسماء المزيّفة وقدرتها على التناصّ مع أحداثه، والإقامة في تفاصيله، ناسياً أو متناسياً، أنّ ما يكتبه هو التاريخ الحقيقي بشخوصه الحقيقيين، ليعيد بذلك الحدث لصانعه، وأرى أنه كان مسكوناً عند كتابة روايته هذه بالخط الدرامي الذي يوصل القارئ إلى شخصية «ذيب اللافي» بإنسانيتها ومواقفها القومية، من هنا فهو لا يؤرّخ لمرحلة تاريخية أو سياسية، لذلك

كاتب أردني.

فقد اعتمد أسلوب الانتقائية بالنسبة للأحداث والشخوص ليفيد بها عمله الروائي الإبداعي، ومع هذا لم تكن الأحداث والشخوص ثانويين في السرد، إنهم البنية الأساسية للفعل الدرامي بتناميه وحركته الزمانية والمكانية.

ذيب اللافي، بدأ في الرواية فارساً رومانسياً، اعتاد عند عودته مساء إلى بلدته في ضواحي إربد من أعمال عجلون، الغناء، إعلاناً عن قدومه، واعتادت المزيونة سلمى، حمل السراج والتلويح به فرحاً باستقباله، قصة الحب هذه لم يتوقّف الأزرعي عندها كثيراً ، بل اختصرها بجملة تشي بنهاية هذه الرومانسية والحميمية بإعلان الزواج (تكرّر غناء ذيب وعواؤه، وتكرّرت حركات سراج سلمى، أمست سلمى والذيب حديث القرية إلى أن زُفّت عروساً إلى بيت الذيب) لأنه مسكون بأحداث يراها أهمّ، وأرى أنّ مثل هذه الإشارات الرومانسية كانت بحاجة إلى إشباع، وملاحقة أحداثها، لتسليط الضوء على الجانب الإنساني لهذه الشخصية المتميزة بقوميتها وبطولتها، لكنّ الأمر لم يكن كذلك، ليقفز الأزرعي عن زمن إنساني عاشه الذيب، والذي سوف يتواجه معه في نهاية الرواية، مواجهة معكوسة تماماً، يحكمها العقل والمصالح الشخصية عند سلمى، بينما نجد نبض الحب ما زال عفياً عند ذيب اللافي، وقد أعطى الأزرعي مشهد النهاية اهتماماً أكبر من بدايتها، مع وجوب التناغم بينهما، تبريراً لموقف الذيب الإنساني وإدانة لموقف سلمى اللاإنساني.

إنّ صورة تنكّر الزوجة والعشيرة والأهل لذيب اللافي، صورة جارحة لا يستحقها اللافي، ونرى الأزرعي قد تتبّع ملامحها ليصل بنا إلى نقطتين مهمتين: الأولى، إعادة وترسيخ صورة الإنسان داخل ذيب اللافي ووفائه وتضحيته حين ترك كل ما يملك من مال من أجل أسرته، والثانية، صورة المختار الإيجابية التي تمثّلت في مواجهته لسلمى عندما عرف الحقيقة باتهامها بالخيانة، بينما سقطت سلمى، المرأة الحبيبة في وحل المصالح الشخصية.

إنّ سقوط سلمى قد يكون مبرّراً اجتماعياً، فليس من السهل على الزوجة أن تعيش في ظلّ بيت واحد بين زوجين، حبيب أبعدته الأيام ثلاثون عاماً، وأقامت له الكنيسة جنّازاً، وزوج يحقّ له أن تنتمي إليه. وأظن أنّ إنكارها لحبيب الأمس، جاء حلاً معقولاً لهذه المشكلة التي قد يعاني منها الآخرون؛ الزوجان والأولاد، لقد فضّلت أن تعاني وحدها، وأظن أن اللافي قد استوعب موقفها، فانسحب بهدوء دون إحراج لها.

«صالح الفياض» الجاسوس أو الداسوس، كما يسميه الأزرعي، مرسوم بدقة وعناية، وهو نموذج حقيقي حرص الأزرعي على حضوره، لتكتمل صورة المشهد بكل سلبياته وإيجابياته، وبخلاف هذه الشخصية القذرة التي تبيع رجالات البلد إلى الأتراك بأبخس الأثمان، يكون الأزرعي قد خالف الواقع، وأظهر لنا واقعاً مثالياً غير موجود، إنّ عبث ومشاغبات صالح الفياض قد أغنت الرواية في خطها التاريخي والإنساني معاً.

يدخل الأزرعي في تفاصيل الحياة الريفية لتلك الفترة الزمنية التي تجري فيها الأحداث، ويصوّرها لنا خير تصوير بجميع مفرداتها اليومية، وهو حين يتحدَّث عن «راشد السلمان» الفلاح الذي يعمل عنده أربعون مرابعاً؛ بمعنى أنه يمثل حالة برجوازية بدليل اتساع رقعة أراضيه وكثرة محصوله، نرى فيه وفي أبنائه من بعده صورة الفلاح الثائر الذي يهب ما يملك من أجل مقاومة الغزاة، ويتمثل هذا في محصول سنوات طويلة دفنها في بئر عميقة، لم يهتدِ إليها أحد بعد وفاته، وبعد زمن طويل وعند الحاجة إلى هذا المحصول في سنوات الحرب والمحل والقحط من أجل المزارعين، ومن أجل رجال الثورة القادمين إلى القرية، يعاود الفلاحون البحث ويفكرون بطريقة غريبة، لا يعرفها سواهم، وهي الاستعانة بالحمير التي كانت تنقل المحصول، ويتم لهم الاهتداء للبئر وتوزيع المحصول مجاناً. مثل هذه الصورة بطرافتها وإنسانيتها

يلتقطها الأزرعي ضمن سياق درامي ليؤكد دور الفلاحين بكافة طبقاتهم في الثورة.

يغيب ذيب اللالي عن أحداث كثيرة بسبب ما أذيع عن وفاته، مما دعا زوجته المزيونة سلمى إلى الزواج برجل آخر هو أيوب العبدالله، وغيابه هذا أعطى الفرصة للأزرعي لتسليط الضوء على شخصيات وطنية عاشت في الفترة الزمنية نفسها، وكان لها دور قيادي مهم امتد حتى عودة ظهور الذيب لمسرح الأحداث، من أهم هذه الشخصيات: علي خلقي الشرايري ويوسف العظمة وسلطان باشا الأطرش ومفلح العبيدات ونجيب البطاينة وأدهم الخنجر، ولاحقاً جاء: أبو جلدة والعرميط وأسعد شرار، كل هذه الأسماء يتتبّع الأزرعي مسارها القومي لخدمة النص، مما قد يمنح القارئ فرصة الظن بأنه لم يعطهم حقهم من الحضور، وأرى الأمر غير ذلك، فكل واحدة من هذه الشخصيات بحاجة إلى قصة خاصة بها، والأزرعي يعرف هذا، بل ربما يقوم بذلك، لكنه الآن مسكون بقصة ذيب اللالي وما جرى من أحداث شارك بها أو صنعها أو حدثت في زمانه.

يحق لشخصية ذيب اللالي بامتياز انتسابها لبلاد الشام، فالأحداث القومية التي شارك بها أو كان أحد صنّاعها، امتدّت جغرافيتها من فلسطين إلى الأردن، فسوريا ولبنان، فهو الذي حارب في سمخ، وأعطى درساً لأبي جلدة والعرميط في أخلاق النضال الشعبي، بأنه لا يجوز أن نستولي على أموال الفقراء، حتى لو كان الهدف تسليح الثوار، فالهدف النبيل بحاجة إلى وسيلة نبيلة، وهو الذي قطع رأس الفرنسي في وسط شوارع دمشق، ثمناً لإعدام صديقه، ولنا أن نتوقّف عند مقتل «غورو» أحد قادة الفرنسيين، بما له من دلالات، فعندما أَسَرَت مجموعة أدهم الخنجر «غورو» القائد ومرافقيه، نسمع أدهم يقول لرفاقه: «اتركوا غورو للذيب»، فيتقدّم الذيب راسماً إشارة الصليب على وجهه، مُطلقاً من بندقيته رصاصة تخترق صدر غورو، تُعلن لغورو ولفرنسا كلها، أننا متّحدون كنيسة ومئذنة.

ذيب اللالي يعود إلى قريته، دافعه الشوق إلى زوجة وأولاد، وحنين إلى الأرض التي ولد فيها وأحبها، حاملاً معه تاريخاً من النضال والمقاومة وجروحاً وحروقاً في الوجه واليدين، ومالاً يشتري به نصف أراضي قريته، عاد ذيب اللالي، لتنكره الزوجة أمام جميع أفراد أسرته وعشيرته، ليقرّر بعدها الرحيل عن الأرض التي عشقها وهام بها، لتنتهي سيرة هذا النموذج من الرجال نهاية غامضة. وهكذا، يغيب ذيب اللالي كما غاب كثير من أبطال الأحداث وصانعيها من صفحات التاريخ، ليأتي سليمان الأزرعي؛ وفيّاً لتاريخ هؤلاء الأبناء من بلاد الشام، سوريا الكبرى. آملين أن تُتاح له الفرصة ليحدّثنا عن بعض الرموز الذين ما زالوا في الذاكرة.



لوحة للفنان التشكيلي د. راتب شعبان

الانتحار.. فراغ أرستقراطي

منـــال حمـــدي

دائماً نجزم بأننا تلزمنا الشهرة والأضواء والمقاعد المخملية والمايكات واسعة المدى، وتاريخ لا ظلّ له خارج حدودنا، كأننا العالم وكل الكائنات ذرات فيه! وربما نصل إلى ما نحلم أن نصل إليه، لكننا وبعد مضي الوقت المرهون بالعمر، نكتشف أنّنا لم نكن بحجم الحُلم، وأنّه كلّما كبُر، حوّلنا إلى جُرم صغير، وأننا كنّا نحجّم أنفسنا في بوتقة لا تتعدّى حدود الذات. تجاربُ الآخرين تفرض علينا أن نقرأها ونتأملها، وقد نظن أننا معرّضون للخطر ذاته؛ لأننا أيضاً ذهبت بنا أحلامنا حيث ذهب الآخرون، الرجوع يعني مربعاً فيه حلم مفجوع. الكاتب والطبيب المنتحِر دايل كارنيجي، يقارب مخاوفنا، ويظلل لنا طريقه، وقد سلكها وسلكناها تباعاً، لنقطع الشوط إلى كارنيجي.

كُتُب هذا المؤلف رائجة وتُباع بأعداد هائلة، فهي قادرة على تجاوز العقبات النفسية لتتحوصل داخل الروح، مشكّلةً الشرارة الأولى لتفجير الحياة بعيداً عن موت محقق. موت يلحّ علينا ليتحول إلى خطوة مرجوّة نحو الخلاص. كتابه حمل عنوان «دع القلق وابدأ الحياة»، الحياة تعني له سلوكاً واستدراكاً ووعياً واستنطاقاً وتأملاً لكل جمال مكنون يعبُّ بالآفاق الرحبة التي تُخرجنا أحياءً. طبيب استطاع أن يؤثر في الحياة الإنسانية لتغدو أكثر فهماً وتقبلاً، بعيداً عن القلق والهموم التي تعرقل المسيرة. مرتفعاً بالقيمة البشرية إلى الذروة. لكنه هو ذاته الطبيب المنتحِر!

كارنيجي، الذي علّمنا من خلال كتبه كيف نكسب أنفسنا والآخرين، كيف نتأمل نقطة مركزية تتمحور داخلنا تكون هي بداية ألق لحياة مشعّة لمنطوق يبدأ بالوضوح مع كل خطوة اقتراب منه، ذاته الذي يقع في فخ الانتحار مرتين: مرة ونحن ننظر إليه كطبيب تُعَلّمه مهنته كيف يجعل من صحته النفسية والجسدية مثالاً يحتذي به الآخرون؛ ومرة كمتقن لفن الكلمة والتعبير وتأرجحها في مناخات الحياة. وكثيراً ما تَعَلّمنا أنه الطبيب الذي له مسحة بإمكانها أن تنشلنا من متاعبنا الصحية والنفسية، وبالتالي فإنه ليس بحاجة لمن يُضَمّخه بحبه، أو إلى أذنين تحسنان الاستماع إليه جيداً. ربما نحن أشد فتكاً به، من فتك معضلاتنا اليومية علينا، لأننا بشر وأقصيناه إلى ملائكية، تنسينا بشريته! الذهن الذي ينكفئ على معطيات ما خاصة بنا، التأمل والشرود وتحويل الأفكار إلى حركات بصرية لها وهج ما، الشرارات التي تبدأ بالانفلات

كاتبة أردنية.

من بؤرة محورية ومتمركزة يتحول فيها الإدراك والوعي إلى حالة لجيّة عميقة تثير التساؤلات والنوازع البشرية. ربما نسي كارنيجي أنها أسباب كافية لفكرة التخلّص من الحياة. كتبه عيادة نفسية محمولة باليد، مقروءة بالعين والقلب واللسان. ظننا أننا قرأنا هذا الطبيب من خلال ما كَتب. كنت أحاول رسم تصوُّر خاص عن حياته، بهدوئها وسكينتها، ولم أظن للحظة أنه يتقن فن الهرب من الحياة بهذه الطريقة التهويمية! طريقة التفاني بالعطاء، ليلوذ بالفرار من نفسه. نظن أنَّ من يكتب عن الإنسانية، يفعل ذلك لأنه يعي تماماً كيف يخرج من متاهاتها سالماً معافى. لا يكفي أن نكون أصحّاء الجسد، وإلا لما كان هذا الإبداع مهدداً بوأد صاحبه، ووضعه تحت العناوين الحمراء. الملايين الذين يصفّقون ويشترون ويحظون بمثل هذا الأدب هم في الواقع شخص واحد، لأنهم غير موجودين في اليوميات والأجندة الشخصية. هم سبب النجاح والشهرة والكتب التي تُطبع بأعداد هائلة، لكنهم أنفسهم قد يكونون سبباً في السقوط، ورحيله إلى المجهول. ربما كان يكفيه شخص واحد يستعيض به عن كل هؤلاء الذين ربما كانوا السبب الوجيه الذي أودى به إلى الانتحار.

* * *

آرنست همنجواي، الحائز على جائزة نوبل للآداب عن روايته العالمية «الشيخ والبحر»، حرق خلفه الطريق بانتحاره، قاطعاً على الآخرين شوط عبوره، هذا العبور لم يعد يشكل هدفاً نوبليّاً بالنسبة له، معلنها أرضاً مطاطية حرجَة. وقد زرع بدايات الموت المتمثلة ضمناً بما لا يألفه الآخرون. همنجواي بعدما قارب نهايته التي تعدّت حدود الشهرة والنزعة الواثقة، اتجه إلى وحدة دفعته ليقتل نفسه ببندقية قديمة. لم تمتلئ فراغاته بما أملى به أوراقاً بحبر سائل. هل تعني هذه الشهرة امتلاءه بالناس؟ ماذا يعني أن يملأ بهم يومياته وهو فارغ منهم، وقد تُرك وحيداً تستنزفه وحدته. يصبح الامتلاء فراغاً يُعلن للكاتب المنتحِر، بعد فوات الأوان، أنّ الموت فعلٌ ارستقراطي يليق بفئة من الناس: تلك القادرة على الموت مجدّداً. الشهرة التي تعني بداية الانكماش على الذات. هؤلاء الآخرون الذين نرقبهم من بعيد وعن كثب: نجاحاتهم المتواصلة، الأوسكارات، نوبل، التكريم، الترف، المليارات، ماذا تفعل بهم، وكيف تقصيهم إلى الطرف الآخر من الحياة؟

الشهرة والزّواج لم يكونا سببين كافيين يحررانه من وحدته. هي على النقيض تماماً من حياة الاستقرار والأمان والنهاية المعقولة. وحدته وعزلته اللتان دفعتا به إلى الانتحار. نحن لا نحتاج إلى العالم وإن كنا نطلق العنان لأنفسنا سعياً للشهرة. هل يحتاج الانتحار إلى تفكير، أم هو تنفيذ عاجل لتفكير مؤجل؟ نستطيع تنفيذ هذا القرار، لا مواجهته. لا يمكن الوقوف وجهاً لوجه أمامه. المواجهة تحتاجنا، في أوج الحماسة والانتصار المبطن. هم في عمر العطاء وفي لهفته. ما الذي يدفعهم للانتحار؟ الانتحار هو سؤالنا وليس سؤالهم، هم مضوا وتركوا لنا جملة من الأسئلة، لا ننجح في الإجابات عنها بالإنابة عنهم، كلّ منا يحمل جواب النقيض من الجسد المادي وهو يعبر روحه الأثيرية. هل يجعلنا نعتقد أن الحلول الأثيرية تبدأ بالانتحار؟ ما الذي يجعل مثل هذه الفكرة تكوّرنا داخل كرة سهلٌ رميُها من بُعد يَشهق البدايات ويجعل منها نَفَسَه الأخير؟

* * *

ربما علينا أن ندرك أيضاً أن هذا الفعل لا يعني موت الجسد لمرة واحدة! فقد يكون محاولات فشلت لمرات في العمر وتمارَس لمرات في اليوم الواحد. المطّلع على حياة الروائية فرنسواز ساجان، يرى هذا الجانب. فهي مالكة ثروة المال والجمال، التي تجاوز حجم ثروتها خمسمائة مليون فرنك

فرنسي جراء مبيعاتها، لكن هذه الثروة ذهبت بها إلى بذخ تفشّى في يومياتها كمرض، أدى إلى انتحار يومي بإدمانها على الكحول وتعاطي المخدرات وسهراتها الليلية. بدأت حياتها بمعاقرة الحزن، وقد تجسّد ذلك في روايتها «صباح الخير أيها الحزن»، التي كتبتها وهي ابنة الثمانية عشر ربيعاً، وظلت على هذا السلوك حتى غسلت نفسها وهي على حافة مشارف الأربعين بروايتها «امرأة عند مشارف الأربعين»، التي طردت فيها خوفها من التجاعيد بشجاعة أكثر من غيرها، بعد مضي تسع وثلاثين عاماً من عمرها. وهي ذاتها التي تعرّضت لحادث سير مفجع كاد يودي بحياتها، وعانت بسببه من أوجاع وكسور وتردٍّ في وضعها الصحي والنفسي، ما اضطرها للّجوء إلى طبيب نفسي، ليساعدها على المضي قدماً في الحياة؛ بعد تصميم أخيها على إنقاذها، وقد نجح. ميتَتُها ليست هادئة كما توصَف، فقد حدثت في المستشفى بعد مرض طويل سبّبه إدمانها على المخدرات والكحول والحزن؛ الذي ظنّت أنها تغسله وهي على حافة الأربعين. امرأة بقدر ما هي منفتحة على مجتمعها الخارجي، تبدو منغلقة على روحها. هل يعني الانتحار رصاصة في الرأس، أو كمية حبوب تُبلع دفعة واحدة بهدف الموت؟

من المؤكد كما تدلّ الدراسات أنّ أساليب الانتحار المختلفة لها تفسيرات تتعلق بالمنتحِر نفسه. لكن يظل موت يحزّ أرواحنا كل يوم ونحن نعطيه الأداة، قاتلِنا معنا كل يوم وأينما ذهبنا.

ما السبب الذي يدفعهم للرحيل بهذه الطريقة؟ ما ذلك الشيء الذي قد يدفعنا نحن أيضاً للرحيل بهذه الطريقة ذات يوم؟ كل شيء بات متوقعاً، والأفظع أنّ كل شيء بات مألوفاً، حتى الموت الذي لا يكون قدراً. ما أسهل الحزن عندما نستطيع اجتثاثه بروح أثيرية. أهي الشمس التي تشرق خلفهم؟ أهو الغروب الذي يطل عليهم، متكدراً، منهزماً، تاركاً بصمة الهدوء والسكينة تنساح على رمال تعلق بخطاهم على ملتقى منهم، وعلى منأى منا؟ هل هم أقوى منا، حين نقرر الانتحار مئات المرات، ونبتعد عن هذه الفكرة مئات المرات أيضاً؟!

* * *

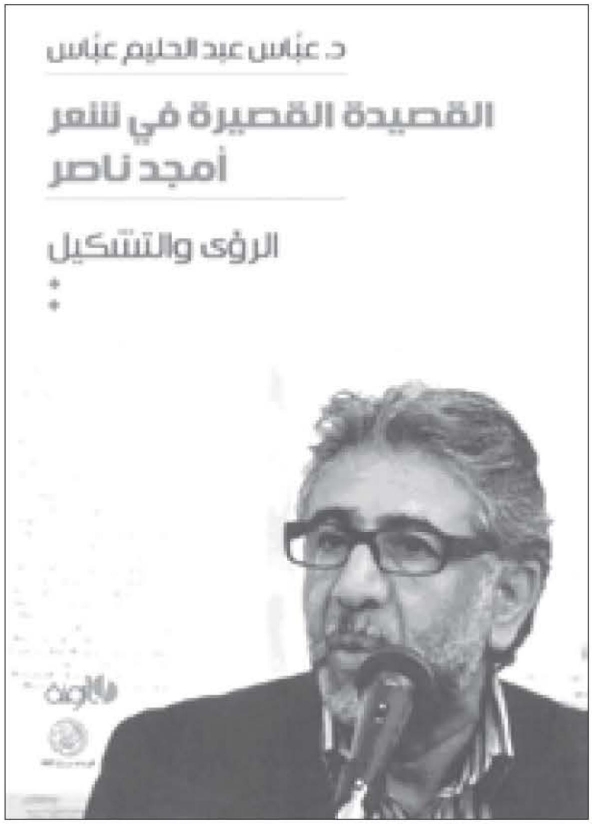
ربما هو ليس قراراً، بل هو خطوة المتثائبين نحو الموت. الخطوة العابثة بإيمانهم، الحياة بمرآتها التي لا نرى فيها وجوهنا، هذا الهلع، الذي يقول إننا نقف على عتبته، التي سرعان ما تبتلعنا إلى الداخل منه. هو ليس مشروعاً علنيّ التنفيذ، ربما خلاصة تراكمات تنتهي بتسليم يصبح علنيّاً على الملأ. ربما في اللحظة نفسها، ربما بعد يوم، بعد يومين! يهيأ لي أنّ مثل هذا الموت بمثابة كاتم لصوت الفزع فينا حين يباغتنا بصرخته. يفرغ لحظاتنا من معنى آدميتنا. الآدميون قادرون على قتل أنفسهم، وعلى شحذ أنفسهم بالموت منذ أول مطبّ، وحتى آخر نَفَس. قادرون، بل الانتحار ثيمة تميّزنا عن بقية الكائنات.

* * *

ثمّة منتحرون أقوى منا جميعنا؛ لولا أنهم لم يتباطؤوا في تنفيذ القرار. وهم أضعفنا جميعنا، لولا أننا أرجأنا تنفيذ مثل هذا القرار. نحن كلّنا ننتظر الفرصة المناسبة، كلّنا نظن أنّ الفرصة المناسبة لم تسنح لنا بعد! لكن في حضرة هذا القرار، نخاف ونرتجف، يصيبنا الذعر ونحن ننظر خلفنا، ونحن نلوذ إلى وسائل تنفيسية تجترّ ولو لوقت نقمتّنا على كل شيء، وربما أننا كلُّ الأشياء التي نريد أن نتخلّص منها، ربما أننا الحياةُ التي نريد أن نهرب منها.

صــدر حديثــاً

إعــداد: محمــد ســلاّم جميعــان



القصيدة القصيرة في شعر أمجد ناصر

د.عباس عبد الحليم عباس

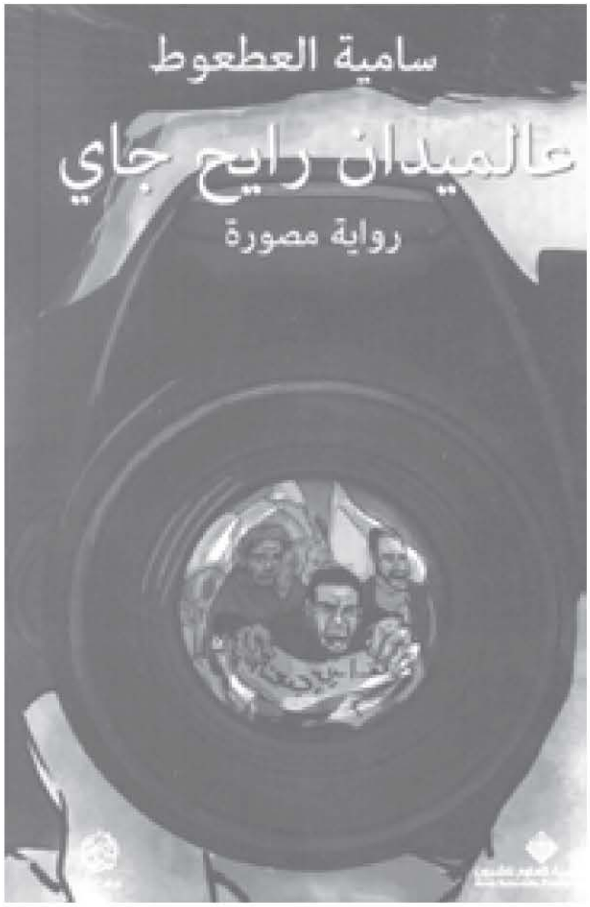
يدرس الباحث في هذا الكتاب جانباً من جوانب الفن الشعري، يتمثل في القصيدة القصيرة كما تتجلى جوانبها الدلالية والفنية لدى الشاعر أمجد ناصر. ولأهمية السيرة الذاتية في إحداث الاشتباك الفكري مع تجربة الشاعر، فقد أولاها الباحث جزءاً من عنايته، بعيداً عن الحياد وقريباً من الانحياز للشاعر وتجربته، التي أهم ما يغنيها حياة الاغتراب، والميل الصوفي، والحالات اليومية، والنزعة الآيروسية وتمثلاتها.

وقد خص الباحث الفصل الأول بالبحث في حدود القصيدة القصيرة في الشعر الحديث وتحولاتها، اعتماداً على مقولات نقدية، يراها نقّاد قدماء ومحدثون، بعيداً عن جدل التسمية والتقعيد المصطلحي. وفي تجربة السيرة والذات تتدامج العلاقات بين الشاعر المبحوث وأمكنته وأزمنته، أو هذا ما أرادت اللغة النقدية للباحث أن تُصوِّره وهي تختزل سيرة الذات في ثلاث محطات، لتؤسس من ثم لتأثيرات الذات الشاعرة في الأبنية المضمونية للقصيدة القصيرة، والتي انعكست بالضرورة على التشكيل الفني لجمرة النص الشعري، بفعل عوامل متعددة يُجملها الباحث إجمالاً بعيداً عن التفصيل في الشكل والوظيفة، والاعتناء القليل بالجانب التأويلي.

لكنّ القارئ الحصيف سيتساءل عن علاقات الوصل والفصل في الملاحق التي أضافها الباحث لدراسته، وبخاصة ما يتعلق بالنماذج المختارة من شعر أمجد ناصر، وغياب نماذج من القصائد القصيرة التي كانت الحافز الرئيس للبحث بأكمله، حتى اتخذته عنواناً.

عالميدان رايح جاي / سامية العطعوط

بحثاً عن حلم مفقود تأتي الكتابة في هذه الرواية المصوَّرة، حيث تتداخل الحكاية والخبر بالقصة القصيرة وبالمنولوج، ويحمل حبرُها تشظيات الربيع العربي وتناقضاته ومآسيه. والرواية تجربة جديدة في البناء والشكل الفني، تخوضها سامية العطعوط بصحبة صوتين يرافقانها، ويتزامنان مع صوت الساردة والريشة التعبيرية للفنانة ساندرا الدجاني، التي استلهمت وقائع السرد، فأضافت إليه من ريشتها دلالات شارحة لفنتازيا المشهد. فالحرف والريشة في هذا العمل يسردان كثيراً من المفارقات والعجائبيات في الاجتماع والسياسة، حتى ليبدو المشهد كاريكاتورياً بامتياز، وبخاصة أنّ السرد حضر بضمير المتكلم عبر شخصية الصحفي، ما



جعل النص بوحاً فيه الكثير من الامتعاض من مآلات الأشياء والحكّام والناس، الذين رهنهم الزمن في قارورة عمياء، فلم يعودوا يبصرون الأحداث على حقيقتها، فقد التبس المشهد الذي تقدّمه الراوية على المشاهدين والمحطات الفضائية. فالحلقة المفرَغة هي سيدة الموقف المليء بالضحك والثرثرة والسخرية، ونوبات الحزن، حتى إنّ القارئ ليحار أين يقف السارد الملطّخ بالفجيعة. فالراوية تقول الأشياء وتصفها بلغة غير عادية، وكأنها اعترافات بودلير، الذي يعبّر عن خطايانا العنيدة وندمنا البليد، ونحن ندفع ثمناً باهظاً لاعترافاتنا (هو الشيطان الذي يمسك بالخيوط التي تحركنا فنجد الفتنة في الأشياء المقيتة)، بهذه العبارة البودليرية، يصحُّ أن يصف القارئ ما فاضت به هذه الرواية.

تلالي تضيق بعوسجها / عمار الجنيدي

التجربة الشعرية لدى عمار الجنيدي نابعة من خصوصية حياته، فهو يوظّف التماعات الوجدان وإحساساته بمرارة الزمن والحركة، في صيغ تعبيرية أدبية تزلزل كيانه الخاص ليتحوّل إلى عامٍّ وجمعيّ. يصحُّ هذا في ما يكتبه عمار من نصوص نثرية، تنتظم فيها الحركة والسكون على نحو إيقاعي متوازن. لهذا ينتمي كتابه الجديد هذا إلى قصيدة النثر بكل حمولاتها الموسيقية الداخلية، والتباساتها في التجنيس الأدبي.

وقد سوَّغ لنفسه هذا العمل الجديد على صعيديّ الرؤية والمضمون والتشكيل الإيقاعي، بالاستناد إلى شهادات نقدية



لعدد من الكتّاب، جعلها بين يدي نصوصه، لتكون كاشفة عمّا توارى من تجربته الأدبية في الشعر والقصة، وهو جدير بكل ما قيل في تجربته، التي من أخصّ خصائصها المكوث في منطقة الألم الإنساني، وفداحة الخسارات، ابتداء من عنوان هذه المجموعة، التي تكشف مدى الضيق والتبرُّم من المآلات، حتى درجة الاحتجاج على الوجود الفيزيائي لذاته المُشخّصة في الواقع المشهود:

(في البدء كانت الرغبة

ثم كان الظلم

ثم كنتُ أنا)

وهذا المقطع وحده كافٍ لتفسير الرغبات والأحلام، وما يكتنفها من احتجاجات جارحة، في القلب منها خطايا كثيرة، ستبقى تنزف شعراً يتحد مع الزوابع والريح الغضوب. ذلك هو عمار الجنيدي في ديوانه هذا.

البحث عن لغة / حسين نشوان

مع أنّ ما يجمع بين الدراسات التي يشتمل عليها هذا الكتاب، هو أنها اختيارات لا تنطلق من تخطيط مسبق، في دوافع الكتابة، إلا أنها تجتمع في بؤرة فكروية واحدة، قوامها اللغة النقدية المستخدمة في مقاربة النصوص الشعرية والسردية، فهي لغة تعفُّ عن الوصف التقريري أو إعادة مقول القول لمنتجها الأصل.

فالكاتب هنا يدير سجالاً معرفياً وتأويلياً مع النص المبحوث فيه، على نحو تتكامل فيه أدوات الناقد، ومعارفه في سبر ما وراء النصّ وممكناته، والغوص في الجامع الكليّ أو الثيمة المركزية التي جاءت في صورة عنوانٍ رديف، يكشف عن أساسات المعالجة النقدية ومنطلقاتها. فالآليات المستخدمة



في هذا العمل تتوازى مع المنهج الثقافي في مثاقفة النصوص، ولعله المنهج الأوفى على صعيد ما يشهده النقد من تحوّلات.

وتبدو الممازجة بين مفردات النقد الأدبي ومفردات الفن التشكيلي لازمة من لوازم الأداء النقدي لدى الكاتب هنا، وبخاصة في مجال معالجة الصورة الشعرية في النصوص الشعرية، أو المشهد الدرامي في الأعمال السردية، ويشهد لذلك اللوحة الحروفية التي وشّى بها المؤلف غلاف كتابه، ما يؤكد منهجية الباحث المستندة كذلك إلى مرجعيات نقدية معرفية آن اشتباكه مع النصوص الشعرية والسردية.

في رحاب الفكر العلميّ

محمود سيف الدين الإيراني

(هذه آخر افتتاحية كتبها الأديب الراحل محمود سيف الدين الإيراني لمجلة «أفكار» التي رئس تحريرها، وجاءت في العدد 23 الصادر مطلع حزيران 1974. توفي الإيراني في 31 أيار 1974، أي قبل يوم واحد من صدور العدد 23، وقد ارتأت هيئة التحرير أن تضع كلماته الأخيرة بين يديّ القراء في عدد حزيران 2014؛ فيما نحتفي بمرور 48 عاماً على صدور العدد الأول من «أفكار»)

انعقدت في الكويت، فيما بين 7 و11 نيسان الماضي ندوة «أزمة التطوُّر الحضاري في الوطن العربي»، تحت إشراف جامعة الكويت وبدعوة من جمعية الخريجين الكويتية. وكانت الدعوة قد وُجّهت إلى عدد كبير من أساتذة الجامعات ونخبة من رجال الفكر في الوطن العربي.

لا شكّ في أنها كانت مبادرة رائعة، ولا شك في أنها كانت الأولى من نوعها، فيما سبق أن احتشد مثل هذا العدد الكبير من أعلام الفكر لكي يبحثوا ويتدارسوا أزمة التطوُّر الحضاري في الوطن العربي، أو بعبارة أخرى أسباب التخلُّف في مجالات متعدّدة كالتخلُّف الفكري، والتخلُّف السياسي، والتخلُّف الاقتصادي وما يعاني الوطن العربي من أزمات في القيم والعادات والتقاليد وبُنية العائلة، ونظام التعليم، وغوائل الاستعمار والأبعاد التاريخية لأزمة التطوُّر الحضاري.

كانت الخطوة جريئة حقاً، لأنها جاءت على صعيد النقد الذاتي في مختلف الأبحاث والدراسات التي قُدّمت ونوقشت في حوار صريح طيلة أيام خمسة، من الصباح حتى التاسعة أو العاشرة ليلاً.

وصحيح أنّ الأقلام هبَّت، على أثر نكسة سنة 1967، تكتب في النقد الذاتي فصولاً مستفيضة، إلا أنّ هذا الذي كُتب يومئذ كان بدافع المرارة، وكان، لذلك، متَّقد الأوار، عاطفياً، أكثر منه دراسات مُستأنية، متّزنة، وموضوعية، في ضوء الواقع، وفي ضوء الفكر الشامل العميق الذي يبحث مشكلات التخلُّف من أصولها وجذورها في مختلف نواحي الحياة العربية.

فهل أدّت ندوة «أزمة التطوُّر الحضاري في الوطن العربي» دورها في البحث والدراسة الموضوعية المنشودة؟

الواقع أنّ الدراسات والأبحاث التي قُدِّمت في الندوة قد حاولت ذلك في كثير من الإخلاص، وإن تشعّبت الآراء، واختلفت المفاهيم، وتباينت الميول والاتجاهات. إلا أنه كان هناك منطلق واحد، على الأقل، انعقد عليه الاجتماع وهو: ضرورة الأخذ بأحكام العقل، في دراسة أزمة التطور، وأسباب التخلُّف التي عانى منها مجتمعنا العربي وما يزال يعاني، كما أجمع أصحاب الدراسات والبحوث وأصحاب الحوار والنقاش على أنّ (العقلانية) وحدها يجب أن تكون المقياس الحضاري الذي لا بُدّ من أن نصطنعه لنتبيَّن أين عسانا نقف، نحن، من حضارة العصر.

إنها ظاهرة صحة نفسيّة، وعقليّة، واجتماعيّة، أن نواجه أزمة التطوُّر الحضاري في المجتمع العربي بمثل هذه البحوث والدراسات، وبمثل هذا النقاش والحوار، ممّا يُجْمِله في كثير من التركيز والتعمُّق البيان الختامي للندوة الذي ننشره في غير هذا المكان من «أفكار».

وقد قيل إنّه كان من الأجدى والأعوَد بالفائدة لو أنّ هذه الندوة عُقدت مباشرة بعد حرب 1967، أما أن تُعقد بعد النصر الذي حقّقه العرب في حرب رمضان الماضي فأمرٌ فيه نظر. ونحن نعلم أنّ جمعية الخريجين الكويتية قد عملت جاهدة في الإعداد لهذه الندوة زمناً طويلاً قبل حرب رمضان. ومع ذلك فإنّ أوان هذه الندوة لم ينقضِ، بل قد تكون بحاجة إلى مثيلات لها الآن وفي سنوات مقبلات، ذلك أنّ الشعوب الحيّة التي تريد أن تلحق بركب الحضارة وتواكب منجزاتها العلميّة لا بُدّ من مراجعة مواقفها وتصحيح ما ينبغي له التصحيح من أمرها حيناً بعد حين إلى أن تستكمل مقوّمات نهوضها وتبلُغ الحدّ الذي تريد لعزّتها وكرامتها.

وخلاصة القول إنّ هذه الندوة خطوة كبيرة وذات أبعاد فكريّة عريضة في حياتنا، والمنطق يدعو إلى مواصلة الجهد على هذه الدرب لكي تتحقق الغاية المرجوّة وهي إزالة أسباب التخلُّف جميعاً والقضاء على ما نُعاني من أزمات التطوُّر في زمنٍ يأتي فيه كل يوم بجديد في سُلّم الحضارة ومسيرتها التصاعديّة المُذهلة.

و«أفكار» إذ تفرد صفحاتها الأولى في الحديث عن هذه الندوة الفذّة، فإنها تُعدّ العدّة لكي تفرد الصفحات الأولى من عددها المُقبل للمؤتمر الفكري العالمي الرفيع الذي دعت إليه جامعتنا الأردنية وعُقِد في رحابها، ودرس فيه علماء أجلاّء حضارة وتاريخ بلاد الشام، في الوقت الذي كان فيه هذا العدد من «أفكار» قيد الطباعة، ذلك أنّ مؤتمر جامعة الكويت وجمعية الخريجين الكويتيين ومؤتمر جامعتنا الأردنية على الصعيد العربي والعالمي يكمّل أحدهما الآخر في مجال الفكر العلمي، وهو طابع الحضارة العالمية المعاصرة.